خالد النصرالله

الخط الأبيض من اللّيل

مكتبة | 822
سُر مَن قرأ

دار الساقي

مكتبة
t.me/t_pdf

© دار الساقي 2021
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2021

ISBN 978-614-03-2195-3

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114—2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

إلى إسماعيل فهد إسماعيل

حديثنا الذي لم ينتهِ...

إلى سارة

أصل الأشياء

١

عندما استيقظَ في ذلك اليوم، شَعر بأنه ليس الشخص ذاته الذي أوى إلى فراشه البارحة.

ساعة الحائط تشير تقريباً إلى الثانية والنصف فجراً. هكذا تراءت له ببصيص عمود إنارة الشارع القريب من نافذته وسط عتمة الغرفة. كانت الليلة شديدة البرودة خلاف الأيام الماضية. ارتدى أثقل ملابسه وخبأ داخل معطفه كتاب التاريخ الموجز، ورواية معاصرة من الأدب العالمي. رغم العهد الذي قطعه على نفسه بألا يثق بأحد، ومواصلته عزلته في غرفته، واتخاذه الإجراءات الاحترازية كافّة، فإنه قرر في ذاك الوقت بالتحديد: سأجرّب. التزم الهدوء والحذر حتى غادر المنزل. في الشارع المحاذي له، التفت يميناً ويساراً ثم عرَّج نحو الزقاق القريب الذي يشقّ فسحته الضيقة وراء البيوت. أرهف سمعه ليلتقط أي حركة غريبة مجاورة، وأخذ يراقب موطئ قدمه لئلّا يدهس غصن شجرة أو حشائش جافة. كانت حواسه محتدمة فطنة، والرياح عتيّة قاسية ترجّ جذوع الأشجار. فجأة يعلو صفيرها القادم من الجهة الأخرى، وكلمّا نَفَحه الهواء البارد، تذكر مشاوير مماثلة في صباه

نحو المكتبة الصغيرة في أطراف المنطقة. كيف تستحيل الأوضاع إلى خراب في زمن وجيز؟ كانت ذكرياته متوقدة تومض في رأسه مثل لقطات. تربط ما حدث بما يحدث، وما يمكن أن تؤول إليه الأمور في قادم الأيام. وبعد نحو عشر دقائق من السير اليقظ، انعطف نحو الممر الفرعي الأخير. هذا هو البيت. أخذ نظرة شاملة شاخصة. رأى ضوءاً خافتاً في نافذة عليا. كانت تلك علامة استعدادهم لاستقبال الزائرين. تناول حصاة صغيرة ونظر حوله متأنياً قبل أن يقذف زجاج النافذة، ثم كرر فعلته بعد أقل من دقيقة. ظهرت ظلال كّف تلوّح من الداخل. لم يتيقن صاحبنا من مغزى إشارته. بعد قليل، فَتح الباب رجل ملثم يقول: "ماذا تريد؟" وبصعوبة بالغة، سحب الكتابين من تحت ملابسه. هبّت ريح شديدة، فأشار الرجل إليه ليقترب منه، ثم كرّر معايناً رد الآخر: "ماذا تريد؟" قال: "المعرفة في جوف الأرض وليست في عنق السماء". هزّ رأسه مرتين، ثم سمح له بالدخول.

أغلق الباب، لكن الرجل لم يفك لثامه بعد. سأله بانتباه تام: "أين أوقفت سيارتك؟" رد بتلقائية: "أتيت مشياً". أطلّت دهشة من عينَي الملثم، فأردف: "بيتي قريب". نظر إليه متأملاً لثوانٍ ثم قال: "أرني ما معك". ناوله الكتابين، وقال: "جديدان كلياً، ربما لم تسمع بهما من قبل". لم يردّ الآخر. قاده إلى السرداب بهدوء وحذر مع أن شعوراً عاماً يشي بأنه يعيش وحده في هذا البيت. كانت هناك إضاءات خافتة موزعة في زوايا المكان، ورائحة ورق من تلك التي يعرفها تملأ الأرجاء. وصلا إلى باب غرفة موارب بجانبه طاولة وجهاز كمبيوتر. أخذ الملثم الكتابين وبدا أنه يسجل كل عنوان في خانة خاصة. سأله بتردد: "هل تضيف

إليهما بطاقة مكتبية؟" لم يجبه الآخر من فوره، واكتفى بقوله: "ليس تماماً". جلس أمام الجهاز، فيما راح صاحبنا يتطلع إلى الجوار محاولاً اختلاس النظر إلى ما داخل الغرفة القريبة. كانت الأجواء متوترة. بدا أن كليهما لم يطمئن إلى الآخر بعد. قال الرجل الملثم بعدما فرغ من عمله: "إننا نراعي ألا تتكرر العناوين". لم يستوعب ما يرمي إليه.

– أليس من الأفضل أن تمتلك من الكتاب نسختين بدلاً من واحدة؟

–لا.

إجابته كانت سريعة هذه المرة، فأردف: "الأفضل أن توفرها لمكتبة أخرى". ثم أخذ لحظة صمت قبل أن يخلص: "هذا يحافظ على بقاء الكتاب في حال وقوع الخطر".

***

هناك، عند منحنى الطريق الإجباري، يربض حاجز المبنى الضخم الذي تواردت أخبار إخلائه وهدمه مرات عدة لكن هذا حتى اللحظة لم يحدث. أسواره الشاهقة التي تعتليها لفائف من الأسلاك الشائكة، وكاميرات مراقبة في الزوايا، تشي بانطباع ثابت لدى الجميع؛ إنه مبنى حكومي. صحيح. يخال المرء أنها وزارة دفاع، أو أيّ جهة أمنية رغم – هذه مفارقة عجيبة – استحالة رؤية المبنى من الشارع المحاذي للسور. ولعل هذا سبب رئيسي في اللغط السائد حوله. بعد الانعطاف الإجباري، وحين تستقيم الطريق، تأتي البوابة العريضة المحمية بذراع معدنية خاضعة لتحكم النقطة الأمنية، بالإضافة إلى المصدّ الفولاذي

الذي يخرج ويختفي في الأرض. الغريب في الأمر أنه عند تجاوز البوابة تجد أن الأسوار الطويلة الشاهقة تُخفي وراءها مساحات شاسعة من الخلاء، تنبت فيها نباتات العرفج والرمث، وأزهار النوير التي تجد فرصتها في فصل الربيع. من يدري، لعل العقارب والأفاعي أيضاً تسكن هذه الصحراء! في العمق، يمكن ملاحظة المبنى المقصود بعد أن يمضي الزائر في سيارته حتى تمثُل اللوحة: إدارة المدوّنات المنشورة. المبنى ليس بتلك الضخامة لكن الطوق الخارجي خدّاع. عند الاقتراب من الجدران والأعمدة الخارجية تظهر نتوءات بارزة ناتجة عن حصى الصبّ الخرساني للإدارة. أي عامل مبتدئ سيهزأ من رداءة البناء. لو أسنَدَ أحدهم كفه على عمود أو لطم أحد الجدران، فسيصاب بجروح ملوّثة، رغم محاولات التدعيم والترميم بوساطة قوائم حديدية في أجزاء كثيرة، زادت تشوه المبنى، لكن ذلك لا يعفيه من مخالفة تلزم الحكومة إخلاءه وهدمه.

ربما في زمن ما كان هذا البناء يُعدّ ابتكاراً هندسياً بارعاً لولا إضافة تلك الأسياخ على النوافذ التي تشبه عيوناً ناعسة بغرض الأمن والحماية، وبضع غرف شاذة تم بناؤها لاحقاً في الزاوية الشمالية من المبنى والجهة الأمامية من السطح، وأيضاً لطخ رقع الإسمنت بالقرب من المداخل بقصد الإصلاح أو معالجة خرير وتسريب. عندما يمضي الزائر بسيارته دون توقف، سيلاحظ أنه أجرى التفافة كبيرة جداً وعاد إلى واجهة السور، وسيصادف بوابة أخرى مغلقة بإحكام أُسند عليها أثاث قديم وخزانات مياه فارغة وأجهزة تكييف تالفة وقطع كثيرة مجهولة الهوية وحاويات حديدية كبيرة. يتضح أن هذا الباب قد

صُمّم ليكون مخرجاً إذا ما عُدّ الآخر مدخلاً. وإذا ما أردنا أن نصف المكان بدقة، فإن رسم الشارع الداخلي يمثّل حرف النون على أساس أن النقطة هي المبنى. كل ما قيل من وصف ورصد مقبول عدا أن يكون مدخل الإدارة الأساسي في الجنب الأيسر من الواجهة. ولذلك حين يتراءى المبنى بعد تجاوز النقطة الأمنية يبدو مجهول الشكل، مثل مكعب مغلق، لكن حين يأخذ الشارع بالالتفاف يتضح أن المبنى يعرض عن الزائرين، ويشيح بمحياه التَعِب. فعلاً، هذا المبنى بحاجة إلى أن يجلس، أو يُمنح عكازاً على الأقل.

ليس من الممتع الإسهاب في وصف المباني الحكومية من الداخل لأنها مهما كانت نظيفة وجميلة، أو مرممة أو حديثة، فإن هذا بالنسبة إلى الجميع محاولات مفتعلة تلازمها مشاعر فاترة، وصورة ذهنية ثابتة ومتشابهة في القالب العام ومختلفة في التفاصيل. لهذا، سنتجاوز ما لا يلزم قدر الإمكان. السلالم والمصاعد على مقربة من المدخل بعد تجاوز منصة الاستقبال التي لا يجلس وراءها أي أحد إلا في المناسبات والزيارات الرسمية. عادة يفضّل عامة الناس استخدام السلالم لأن المصاعد بطيئة وضيّقة، ولأن المبنى طابقَان ليسا بالعلو المتعب. عند الوصول إلى الطابق الثاني، يُلاحظ أن منفذ السلالم مطوّق بممرات تطوف من حوله، وفي كل زاوية منها باب خشبيّ ذو درفتَين يخصّ أقساماً مختلفة. نحن معنيّون بقسم تدقيق المدوّنات الذي يقابل قسم المداهمات. وراء بابهِ الثقيل نسبياً يمتد ممر طويل بعرض مترين تقريباً، ويتفرع منه ممرات شبيهة؛ تم تقسيم المكان بحواجز خشبية ذات نوافذ مغطاة بلاصق أسود. لا يتجاوز ارتفاعها المترين، فلا يصل

الحاجز إلى السقف. يمكن لأيّهم تخيّل أن هذه الإدارة قد تمّ تسليمها كقاعة كبيرة فارغة، ثم جرى ترتيبها على هذا النحو المكشوف، إذ تنعدم الخصوصيات، فلا يقدر أحدهم على حجب أنفه عن رائحة عطر رديء في المكتب المجاور، كما أن الأحاديث مشتركة، ولا حاجة لأحدهم أن ينقل أخبار الآخرين. لذا، يستعين بعضهم بالقلم والورقة ليخبروا الآخرين عن سر أو خبر، وغالباً ما تُسمع همهمات تعمّ أرجاء المكاتب، حتى في النقاشات التي تخص العمل، خصوصاً أن الإضاءة المشتركة للمكان خافتة، وتعطي شعوراً نعساً وأحياناً طارداً، فيلجأ بعضهم إلى إضاءات خاصة على مكاتبهم من أجل مزاولة العمل دون عناء. أما غرفة المسؤول التي يمكن رؤية بابها في آخر الممر، فمحمية ومعزولة عن كل ما يجري في الخارج.

عند دخول القسم في الممر الرئيسي، وبعد نحو عشرين خطوة، ثمة منعطف فرعي في الجهة اليسرى يؤدي إلى ممر آخر. هناك أبواب عدة على الجانبين مكتوب عليها: "خاص بموظفي القسم فقط". وراء الباب الأخير غرفة مستطيلة تأخذ شكلها الطولي، ويتقابل داخلها أربعة مكاتب بمثلها وعند نهايتها نافذة تطل على الخلاء المواجه للمبنى. في المكتب الأخير من الجانب الأيسر... هنا يعمل المدقّق.

***

قبل سنوات، وبعد تخرّج المدقّق في الجامعة، تقدّم بطلب وظيفة إعلامية. تم تخييره بين وظيفتين شاغرتين: إدارة إشاعة الأخبار، أو

إدارة المدوّنات المنشورة. بعد البحث والاستفسار تبيّن أن الأخيرة يقتصر عملها على قراءة الكتب فقط ولا شيء سوى ذلك، فاختار المدقّق - دون أن يشغل تفكيره - إدارة المدوّنات بلا شك. وعلّل بفرح غامر: هل من فرصة شبيهة تلزمني مزاولة حياتي؟ لم يقُل مزاولة هوايتي مثلاً. كانت جملة أكثر دقة مما نظن، فهذا الإنسان ليس سوى آلة قراءة. إنه لا يحبها فحسب، ولا يمارسها كعادة مكتسبة؛ إنها أكثر من حالة هوس.

في صغره، بدأ تعلّم القراءة باكراً. في سن ما بين الرابعة والخامسة، كان في استطاعته أن يقرأ جملة مكونة من عشر كلمات بشكل صحيح، وبعد سنة تقريباً أو أكثر بقليل، صار بإمكانه إنهاء صفحة من ثمانية وعشرين سطراً لا تقل عن مئتي كلمة في زمن مقدّر بثلاث دقائق. لم يكن ليستطيع ذلك لولا أن هناك محركاً داخلياً مجهول المصدر يدفعه إلى التعلم والمضيّ في الأمر. يقول والده إن سبب هذا ربما يعود إلى كونه عندما تجاوز أشهر المهد، وصار في استطاعته أن يجلس، كان يضعه في حجره ويقرأ له قصصاً مصوّرة من تلك التي كان ينجزها في مطبعته، ويحطّ أصابعه الصغيرة مكان الكلمة التي ينطقها، في حين كان المدقّق يحلق في الصور والكلمات ولعابه يسيل على الصفحات. غير دقيق كفاية هذا التعليل، فهناك سنتان على الأقل أهمل خلالهما الأب ممارسة تلك العادة التي كانت أصلاً غير منتظمة، لكن هذا لا يعني أنه ووالدته لم ينتبها إلى هذه الميزة في ابنهما، بل شجّعاه على ذلك. اشترت أمه سلسلة "المكتبة الخضراء"، وأهداه أحد

أعمامه مجلدات قديمة لمجلات **باسم وماجد وميكي وبطوط**. كان يمضي في قراءتها سريعاً، ثم ينقل إلى أمه كل الأشياء الجديدة التي تعلّمها. وبقدر صمته وغرقه في تلك المطبوعات، وقد يصلان إلى ست ساعات يومياً، كان يشرع في حديث لا ينتهي عندما يفرغ منها. يسرد الأفكار والقصص والأسئلة في مزيج واحد، أمام التلفاز وأثناء تناول العشاء وعندما يذهب إلى الحمام، وحين يستعد للنوم. وفي الفراش، يتحدث طويلاً حتى أنّ أمه كانت تنام قبله في بعض الأحيان. يستيقظ كثيراً في الفجر ليروي قصة سُريالية ثم يعود إلى مرقده. تلك الأمور بدت مثيرة للضحك ومسلية في بادئ الأمر لكنها غدت متعبة للأبوين لاحقاً. وبعد مدة لُوحظ أنه لا ينجذب إلى القصص فحسب، بل يقرأ كل شيء. يفتح الصحف اليومية وكتب الطبخ ونشرات الأدوية وفواتير المشتريات وعقود البنوك وشركات الاتصالات. حتى في عبثه يبحث عن أشياء تحوي في مضمونها كلمات، كأنه نَذر نفسه أن يقرأ كل حرف يقع في طريقه، وأن شيئاً ما فاته لو كانت هناك ورقة لم يطّلع عليها. في حين كان الأطفال في مثل سنّه يبكون إذا اختفت ألعابهم أو انكسرت، كان المدقّق ينفجر لو رمت الخادمة ورقة من صحيفة لم يتأكد بعد هل قرأها أم لا. كان ينظر إلى الكلمات كأعجوبة، وتدور في خلده أسئلة حيالها، وقبل أن ينام ذات مرة قال لأمه: "لو اختفت الكلمات، فهل هذا يعني أننا لن نتحدث؟" تعجبت الأم من ذاك السؤال. لم يكن جوابها حاضراً حينذاك، لكن من حسن حظها أنها تداركت الأمر وقالت: "لا تخف؛ الكلمات لن تختفي". لم يندفع المدقّق

للحصول على إجابة مقنعة لأن الأسئلة تتوالد بسرعة قصوى، أسرع حتى من انتظار الجواب، ورغم الثقافة التي يتمتع بها الأبوان، فإنها لم تكن تسعفهما في الحصول على ردّ جاهز كل مرة.

سادت حالة من القلق بين الزوجين جرّاء هذا التصاعد العجول، لكن لم يفصح أحدهما إلى الآخر بذلك. وذات يوم نظر المدقّق إلى هاتف والده حين شعّت منه رسالة واردة لم يتمكن من مقاومة قراءة فحواها. تساءل في نفسه: من يصف أبوه بكلمات الحب؟ ثم أوحى لأمه في المساء بمفاد ما قرأه، وبدورها، لم تدّخر وقتاً لكشف الأمر الذي خلّف شجاراً كبيراً بينهما. غَضِب الأب لكنه كبح مشاعره قدر الإمكان، وليفرغ ما أمكن مما جرى، أوعز السبب إلى لعنة القراءة تلك التي مسّت ابنه. ولأنه لا يريد أن يصرخ في الفتى، قال له بعد أيام إن القراءة بهذا الكم تسبب أمراضاً كثيرة، وعليه أن يقلل ويختصر قدر الإمكان، وضغط على ظهره بالسبابة والوسطى عامداً أن يوجعه. قال إن هذا الألم الذي تشعر به سيتضاعف إذا استمر الأمر، وحاول بطُرق ساذجة أخرى إيهامه بخطورة حالته، وبدا أن المدقّق يحاول أن يصدّق والده، لكنه لا يستطيع التوقف عن القراءة. هذه المسألة ليست بيده. ولعله مرض حقيقيّ هذا الذي يجعله يتحسّس الأوراق ويتشمّم الكلمات أينما كانت وحول أي موضوع وباستمرار، لكن ليس كما يصفه الأب الذي صار يجرّب استمالته بالرياضة وألعاب الفيديو والسينما والرسوم المتحركة وعروض المكافآت إن استجاب إليه. لكن المدقّق لا يرى أي ثواب مجدٍ غير أن تعطيه مزيداً من الكتب. وبعد محاولات عدة، وإصرار وإقناع، وتذكير وتحذير، وَجَده ذات

يوم يجمع الصحف الإعلانية والمنشورات الدعائية من أمام المنزل، فثار غضبه هذه المرة، وخرجت انفعالاته عن نطاق سيطرته، واتخذ قراره بمنعه من قراءة أي شيء غير فروضه الدراسية، ورمى بكل الكتب الأخرى التي يحتفظ بها، وألغى اشتراك الصحيفة، وقام بالجرد والتنقيب عن كل الأوراق التي تحوي كمّاً كبيراً من الكلمات، وأخفى عنه كل قصاصة وأعلن حالة استنفار حول هذه القضية، وأصرَّ على أن يكتفي بمشاهدة التلفاز واللعب بالكرات والسيارات وأدواته الأخرى، مسوغاً أفعاله تلك بحجة: "أنت كسول". ولضيق حيلة المدقّق، صار يقرأ مكونات الأطعمة خلف العلب والأكياس، والتحذيرات على ظهر الأجهزة الكهربائية، وقطع القماش في طيّات ياقات الملابس، وكل ما يمكن قراءته على رقعة مكررة وخالية من الأفكار، لكن ذلك لم يكن كافياً ليهدأ. بدأت تنتابه نوبات صراخ تتلوها عمليات نبش وتخريب. بدت حالة من الجنون تسيطر عليه.

منذ ذلك الحين صارت القراءة محرّمة لسبب لم يكن يعرف حقيقته. بدأت أمه تهرّب له المجلات وتصحبه ساعات خارج المنزل حتى يقرأ الكتب بعيداً من أنظار والده الذي يعرف في أحيان كثيرة غايتها من تمضية ذلك الوقت في الخارج برفقة الفتى، لكنه مع مضي الأسابيع والأشهر شعر بالتعب من هذه القصة، فتارة تخمد ثورته وأخرى تنشط طبقاً لحالته، وقد نشبت شجارات كثيرة بين الزوجين حول هذا الموضوع. لكنه خلص إلى هدنة داخلية مفادها أن يتغاضى عن ملاحقته باستمرار، وأن يكون الثواب في السماح له بالقراءة والعقاب بمنعه لو يوماً واحداً. أنجبت الأم بعد حادثة

رسالة الهاتف أختاً وحيدة للمدقق. قضت السنوات ونضج الفتى على هذه الحال مروراً بالمراحل الدراسية حين بدأ يتجاوز دهشة سحر القراءة تدريجياً، وفي المرحلة الثانوية، صار يُرَشّد اطلاعه وينظّمه، حتى انتهى طيش القراءة أو جنونه ذاك. صار يشعر بالملل من بعض الكتب - كحالة طبيعية - ويستمتع بأشياء أخرى. توفيّ الأب بأزمة قلبيّة مفاجئة، ورغم الحزن العارم لوفاته غير المتوقعة، ولكونه صار رجلاً صالحاً في سنواته الأخيرة، شعر المدقّق تلقائياً بانفراج كبير، لدرجة أنه في مراسم العزاء كان يدخل إلى غرفته كل عشر دقائق ليقرأ صفحتين من كتاب ويعود مجدداً لاستقبال المعزين.

أليس هذا عذراً كافياً للمدقق كي يعمل هنا، في مكتب لغرفة مستطيلة من مبنى آيل إلى السقوط؟ رغم كونه طالباً متفوقاً ونبيهاً كفاية لاختيار مسلك يضمن له مستقبلاً أفضل، فإنه أيضاً يدرك جيداً أن لا مكان يناسب كينونته غير هذا. لكن إذا ما أردنا سرد الأحداث بواقعية أكبر، نجده لا يتفوّق كثيراً في مهارات القراءة على زملائه السبعة الذين يشاركونه العمل، إنهم على كفاءة متقاربة من السرعة والإدراك والبصيرة والقدرة العالية في معرفة المعاني وبواطنها والهمز واللمز والإشارات الخفية... الفارق الوحيد يتمثل في كونهم حين يعودون إلى منازلهم لا يودون النظر إلى حرف واحد، فيما يواصل هو القراءة حتى ينصرف إلى مضجعه.

كان المسؤول عند بداية كل أسبوع يسلّم موظفيه خمسة كتب كحد أقصى في الأوقات الاعتيادية، ويتسلّم منهم تقارير كتب الأسبوع الماضي، إذ يُعنى قسم تدقيق المدونات بسماح تداول

الكتب أو منعها وفقاً للمعايير المتفق عليها، لكن هذا لا يُخلي المدقّق شخصياً من المساءلة لو أفلتَ كلمة مخالفة أو فكرة غير سليمة، أكان ساهياً أم عامداً، وهو الأمر الذي يَمنع الانتفاع من هذه الوظيفة التي تقتضي الحفاظ على القيم السائدة وأخلاق الناشئة والعلاقات السياسية مع الدول المجاورة، لذا، إذا ما اختلط الأمر على أحد الموظفين، يستعين بزملائه ويشرك البقية في نقاش حول جملة أو كلمة ما، وإذا اختلفت الآراء يُحال الأمر إلى المسؤول ذي الخبرة الموغلة، الذي يدّعي أن في استطاعته معرفة الكتب المخالفة من صفحتها الأولى. يوجس النيّات بمشاعره الحساسة حيال ما يرنو إليه بعضهم وإن كانت مقاصدهم جيدة.

يشعر المسؤول بمتعة حين يسهب في قصّ حكاياته على موظفيه عن بدايات العمل في العقود الماضية حين كان يَهرُبُ الجميع من مزاولة هذه المهنة. يقول: "القراءة جهد لا يستهان به أبداً، أن تحني رأسك إلى كتاب طوال حياتك، أو ترمي بنظرك على صفحات كتب بيضاء وصفراء مملوءة بالأتربة والحشرات كل يوم، ست ساعات على الأقل... شيء فيه الكثير من القسوة". ثم إن هذا النوع من الوظائف يخضع لأمزجة الموظفين، وبعضهم لا يتخيّلون حتى أن يفتحوا كتاباً ويقرؤوا عشر صفحات أو أقل. المسؤول شَهد أناساً لا يبقون في وظيفتهم لأكثر من يوم واحد. وما أكثر الأوقات التي بقِيَ فيها وحده في القسم ينقل الكتب معه أينما ارتحل، إلى البيت والبحر والسوق والسفر!

كان المدقّق في أيامه الأولى ينهي الكتب الخمسة خلال يومين أو

ثلاثة كحد أقصى، ويكتب تقاريرها، لكنه اكتشف أن هذه الطريقة بدأت تسرقه من قراءاته الخاصة التي يحبها، فصار يعمد أن يلتزم تسليم الكتب حسب الموعد المعتاد، كي لا يعطيه المسؤول دفعة أخرى. صحيح أن هناك كتباً جيدة ومفيدة، إذ يُسمح للموظفين بتبادلها وفقاً لرغباتهم، إذا ما أراد أحدهم قراءة كتاب مكلّف إياه زميل آخر، لكن هناك عناوين مثل: الدوائر الكهربائية في ألواح الطاقة الشمسية، أو: التنمية الزراعية في دول أمريكا الجنوبية، لا أحد يرغب في قراءتها، ولذا، يصير لزاماً على الموظف قضاء أوقات مملة في الإمكان استغلالها بأخرى، إضافة إلى أجواء من التوتر السائد طوال اليوم، فقرارات المنع والسماح تأخذ مأخذاً عميقاً من مزاج الموظف وحالته النفسية. إنه رهن قراره لكونه قاضي الكتب الذي يظلم ويعدل. كان أحدهم يبكي عند لحظة كتابة التقرير، ولم يكن في إمكانه أن يفصح عما داخله من وجع يُظهره بهذه الصورة المهزومة.

إن الموظفين يتألمون حين يمنعون كتاباً، وهذه حقيقة غير قابلة للتشكيك، بل يجدر القول إنهم يتعذبون باستمرار في هذه المهنة القاسية. وإنْ تفاوتت درجات الألم من شخص إلى آخر، فإنهم يؤيدون فعل التدقيق، فهُم الذين يقرؤون، وهم الذين يعرفون، وليس في إمكان أي شخص أن ينكر ذلك، وإن شاعت الاعتراضات وتحدث الناس في الندوات، وهو ما يحذّر منه المسؤول دوماً: "انتبهوا إلى ما تقترفون، فإن كانت أصوات أولئك الذين يرفضونكم عالية، فهذا لأنكم موجودون فقط، لكن إن اختفيتم يوماً، فإن هناك أصواتاً أخرى أكثر صخباً من تلك ستظهر". إدارة التدقيق تدرك نتائج أفكار

المؤلفين، وهذه الوظيفة تعرّض العاملين فيها للمخاطر، ولذا يحرّم عليهم أن يفصحوا عن عملهم خوفاً عليهم لا منهم، فهم بالضبط مثل منفّذ أمر الإعدام. ينبغي أن يستر نفسه كي لا ينتقم منه أقرباء المحكوم عليه. أما المدقّق – صاحبنا – فلا يعلّق على تلك الأمور، ولا يبدي رأياً صريحاً أو ملتوياً، وبعيداً من كل هذا هو يحضر مَجالس القراءات الأدبية والندوات الثقافية، وصادف وجوده في معارض الحديث عن كُتب مُنعت، وشَهد استهزاء بعضهم من المهزلة التي تدار في إدارة المنشورات. ولأن روّاد تلك التجمعات مجموعات يعرف بعضها الآخر، يثير حضور المدقّق الذي ينزوي في كرسي بعيداً من البقية صامتاً لا يعلّق ولا يشارك التساؤل بعد ملاحظته أكثر من مرة، لكن أحداً لم يسأله مباشرة هل كان صحافياً أو مبعوثاً مكلّفاً من جهة رسمية، بل ذهب بعضهم أبعد من هذا فظنّوه ضابطاً في المباحث الجنائية. هذا لم يغيّر من الأمر شيئاً، إذ إن القوى الثقافية – هذا مسمى افتراضي – ماضية في غاياتها حيال الإدارة: "إنهم يهابون الكلمات، ويفزعون من الأوصاف والكنايات والرؤى السردية البليغة، ولا ينظرون في حاجات النصوص والاعتبارات الفنيّة وصدق العرض وواقعية الأحداث". يقولون ما يقولون، ويحار المدقّق في أمرهم وأمره. وبعد أن يعود إلى البيت، يوغل في نفسه وينطوي على تلك الحاجة التي تلكزه باستمرار، ويرخي الحبل لأفكاره التي تستفرد به، ويتساءل بحماسة وريبة: ماذا لو كتَبتُ رواية؟

٢

أحياناً تختلط العبارات والفقرات. كثيراً ما يقرأ المدقّق جملة ويدّعي أنه طالعها في مكان آخر. وفي سياقات مختلفة، تجده يتناول فكرة من كتاب ويزعم أنه يعرف المصدر الذي استُوحيت منه. أحياناً أخرى يقرأ صفحات ويتنبأ بالآتي، فيَصدق. إنه أمر مثير للسخرية، بل إنه يستغرق في الضحك إلى درجة الجنون، ويتساءل بتعجب عمّا يحدث؟ يعيد ويؤكد لنفسه: لقد شاهدت هذا من قبل. ثم يتكرر الأمر بعد أسابيع، ولا يمكنه أن يخلص إلى قناعة صرف لأنه في الوقت نفسه على يقين من أنه لم يقرأ هذا الكتاب الأخير، ولا يعرف المؤلف. بالإضافة إلى هذا، عندما يخلد إلى النوم تظهر المشاهد الروائية وتتجسد أمامه كما تخيّلها، ويتشارك الحديث مع شخصيات الأعمال والنصوص، ويسألهم عن كذا وكذا، وأحياناً تتنبأ الأحلام بالقادم من الصفحات. قد تكون نتيجة طبيعية إذا ما أرجعنا الأسباب إلى كل ما ورد حيال المدقّق؛ إنه يقرأ مئتي صفحة في اليوم على الأقل، وإذا ما اضطرته المسؤوليات والاستثناءات والطوارئ وقرأ أقل من المعتاد، يشعر بإحباط وحزن وذنب يجعله ملزماً مضاعفة

عدد صفحات اليوم الذي يليه. وإذا شرع في كتاب، عليه أن ينهيه مهما كانت العواقب، ومهما اعتراه الملل، فشعور الكمال والإنجاز يتحقق عندما ينهي آخر حرف من كتاب.

المدقّق بطبيعة الحال، كأي قارئ، لديه رؤية ناقدة فذّة، وبإمكانه تصنيف الخطوط السردية وتفكيك أنماطها، ويبدي رأيه الخاص بينه وبين نفسه فقط. لديه كتّابه المفضّلون أيضاً، وبسبب حظه العاثر، من النادر جداً أن يُكلّف تدقيق عمل لمؤلف يحبه؛ يمنّي نفسه كل أسبوع أن يحظى بكتاب خاص من تلك التي يحملها المسؤول ويفرزها على الموظفين، وغالباً ما تخيب أمنياته. وإن تحقق ذلك، فإن البهجة لا تبرحه أسبوعاً كاملاً. لم يسبق أن مَنَع واحدة من تلك الكتب، ولهذا الرواية التي بين يديه هذه المرة، للروائي الفارس – هذه كنية فنيّة لدواعي السريّة – يحدث في فصلها الثاني بعد أن يستهل العمل بوجود شخصين تائهين في صحراء لزمن غير معلوم، ويمضيان في أسئلة فلسفية وجودية حيال ما جرى وما يجري، إذ يسير النص في تمايز ما بين الحلم والحقيقة، أو ما يختلط على القارئ وفقاً لرؤية المؤلف، وقبل أن يجدا ملاذاً لورطتهما، يسقط أحدهما مغشياً عليه إثر الشمس الحارقة، والجفاف القاسي، ما جعل الآخر في حيرة من أمره، ويبحث عن وسيلة تُنقذ صاحبه، فالنص يتطلب وجود الاثنين، لو مات الأول سيدركه الآخر، فيقوم بمحاولة ليس من حيلة سواها، تتضمن أن يقضي حاجته في ملابسه ويعصرها في حلق صديقه، لكن المؤلف لم يكتبها كما تم نقلها، وإنما استخدم كلمة محظورة، وهو ما استوقف المدقّق وأشعره

بمسؤولية خاصة، أو مهمة موكلة من القَدَر. وقبل أن يبدي أي تصرف، قرر أن يأخذ الكتاب معه إلى البيت وينهيه في تلك الليلة، وهذا أمر لا يخالف القواعد العامة، بل إن المسؤول يحث موظفيه على هذا في أسابيع الذروة من العام.

عندما استفرد بالرواية، كان يدوّن كل عقبة ممكنة في سبيل إصدار ورقة إخلاء سبيلها، وانتهى من العمل وهو في حالة إعجاب وتعلّق ابتداءً من الفكرة حتى المعالجة والتفاصيل والشخصيات، إلى النهاية التي أطلقت حواسه ومنحته رغبة مطولة في التأمل لولا انشغاله بالمحاذير التي وجدها في النص، والتي دوّن عدداً منها بالإمكان تجاوزها عدا مشهد يصوّر فيه جسد امرأة مُغرَق بالوصف الدقيق، ويسهب متمماً المشهد السابق إذ يمدحها ويتغزل بها الرجل ويتخيّلها كما يحلو له، ويذهب إلى أبعد من ذلك في فصل آخر... وهكذا خلص المدقّق إلى أربعة مواضع في الكتاب لن يستطيع أن يتحمل مسؤوليتها. ليس أمامه سوى أمر واحد يتلخص في تأخير إصدار تقرير هذا الكتاب، وإيجاد حل لتصحيحه وإعادة تقديمه. أما السؤال الأكثر أهمية: كيف يحدث ذلك؟ ظلّ معلقاً في أفكاره حتى أوى إلى مخدعه، ورغم تعدد المنافذ السانحة التي تتيح فرصة العبور منها إلى المؤلف، فإن سدوداً تقف في نهاية الطريق؛ خطر في باله أن يطلب استمارة تقديم الكتاب إلى إدارة تدقيق المدوّنات التي تحوي بيانات مقدّم الطلب لكنه خشي أن تسأله الموظفة المعنية عن الأسباب، ولربما تنقل الأمر إلى المسؤول الذي سيستدعي بدوره المدقّق ويبحث حول الأمر. فتنبه إلى مسلك آمن ويسير بزغ في

مخيلته، ويغنيه عن الطُّرق التي قد تضعه في دائرة الشبهة وتزعزع ثقة المسؤول والزملاء بأمانته.

كانت الوسيلة الوحيدة الاتصال بالناشر، فليس أسهل من الحصول على أرقام هواتف دور النشر. بينما يجلس المدقّق وراء مكتبه المجاور للنافذة المطلة على العراء، وبيده كتاب لم يَنجز منه فقرة واحدة، وهو ينظر إلى الخارج باتجاه قطة في البعيد تقفز وتخربش شيئاً ما، ثم تتوقف لتراقب وتعاود محاولتها في اكتشاف خنفساء هاربة تبحث عن جحر، لن يستطيع المدقّق رؤيتها من مكانه، إنه مشغول بالآلية السليمة للحصول على مراده دون أن يكشف عن نفسه، أو تخيب مساعيه. لم يجد بديلاً عن ادعاء حاجة إدارة التدقيق إلى رقم هاتف المؤلف. أما قلقه ذاك، فمرتبط بكونه لم يحاول أن ينتحل شخصية أخرى من قبل، أو يستغل وظيفته لأغراض خاصة، إنه يعمل على محاولة نبيلة للمساعدة، وسيخلص إلى ذلك لو تمهّل قليلاً وتحرّر من هالة التوتر التي تسيطر عليه. في كل الأحوال، يجب التعامل مع الظرف الآني، ولعل ضرورة التواصل مع دار النشر في المدة الصباحية زادت ارتباكه لأن الجهات الحكومية لا تعمل في أوقات المساء. لذا، يلزم أن ينجز مهمته الآن، وليس من الحكمة تأجيل الأمر. كان يفكر في مكان آمن يضمن له التحدث بعيداً من مسامع الآخرين. ولذا، نهض بتثاقل من مكتبه، وبصمت تام كأنه يبتغي الذهاب إلى دورة المياه، لكنه خرج من المبنى والتفّ إلى الجهة المقابلة للصحراء. ما من أحد يراه سوى القط الذي وجده مستلقياً بالقرب من الجدار يستريح عقب مجهوده العابث، ولعل

المدقّق بالغ جداً في الاختباء في هذا المكان لكنه يشعر بالارتياح على كل حال. نظر إلى الهاتف وتخيّل الحوار المفترض. أجرى تجربة لما يمكن أن يقول. لم يُطل لأكثر من ذلك. اتصل حاشداً انتباهه وحواسه. تحدث إلى الموظف بلهجة رسمية تدرّب عليها، وعرّف نفسَه كونه موظفاً في إدارة المدوّنات المنشورة مخفياً انتماءه إلى قسم التدقيق، متوارياً في الاحتمالات الكثيرة حيال هويته. نقل الموظف المكالمة إلى مدير النشر الذي تعامل معه بحذر شديد لأن اتصالاً كهذا غير مألوف أو غير متوقع إطلاقاً لكونهم بمنأى تام عن أي مخالفات محتملة. قال المدقّق: "نجد صعوبة في التواصل مع الروائي الفارس؛ يبدو أن أحدهم أخطأ في كتابة رقم هاتفه". صوته لا يخلّف مشاعر خاصة لدى الأطراف الأخرى في الهاتف، ونبرته تشبه مذيعي نشرات الأخبار، وقد عزز أمره باختيار المفردات المناسبة والعبارات الموجزة. لم يجد مدير النشر ملاذاً من تنفيذ مطلبه، فلم يحبذ أن يطيل الحوار ويكثر من الأسئلة، ولم يرغب في الاصطدام مع أي جهة حكومية بأي حال، ولو أن عهده الأدبي مع جميع المؤلفين ألّا يمنح أرقام هواتفهم لأي شخص، لكن استناد المدقّق على إدارته الرسمية أزاح تلك العقبة. عندما أنهى المكالمة، فكّر لثوانٍ قبل أن يعود إلى مكتبه مجدداً. لم يتصل من فوره بالروائي الفارس؛ أراد أن ينسق الأمر قبل أن يُقدم على تلك الخطوة التي ستحقق له أمله في الاستفراد بمؤلفه المميز، والمساعدة في إنقاذ الرواية من الحظر. لن يغيّر من الأمر شيئاً إن اتصل في الصباح أو المساء، وحتى لو تكرر الأمر وقدم نفسه بصفة موظف في الإدارة السالفة. في النهاية، لن

يواصل الكذب، وسيطلب لقاءه من أجل أمر يخصّ كتابه.

أثناء غياب المدقّق أبدى بعض زملائه ملاحظتهم حيال سلوكه الغريب في هذا اليوم بالتحديد إذا ما تجاهلنا تصرفاته العامة والمعتادة، وشروده التام واستغراقه في التفكير. حتى أنّ الزميل المجاور لاحظ أنه لم يغيّر صفحة كتابه منذ الصباح. أما الزميل المقابل، فرصده يطيل النظر عبر النافذة. وعندما عاد، واصل حالته تلك رغم أنه أنجز نصف مهمته، ما استدعى من أحد الزملاء سؤاله عن الحال والأسباب، لكن المدقّق تهرّب بإجابة مباشرة بعد أن أظهر ابتسامة مصطنعة، وكرر رده: "لا شيء"، ممهّداً لإيجاد حجة مناسبة يغلق بها أبواب أسئلة أخرى، فقال: "تشغلني مشكلة أسرية".

كان يرسم تفاصيل وشكل المكالمة التي سيجريها مع الروائي الفارس الذي بلغه الآخر أمر اتصال إدارة المدوّنات المنشورة، ورغم دهشته من الطلب، لم يعر الأمر أهمية شديدة. بدوره، لم يتوصل المدقّق إلى حكاية جديدة أو مدخل مميز يقنعه بضرورة اللقاء، فاعتزم كشف غايته بالتدريج. كانت الشمس قد غربت قبل نصف ساعة حين قرر أن يتصل. أقفل باب غرفته كي يضمن لنفسه الهدوء والتركيز. بدأت نبضات قلبه تدق بقوة عندما ضغط على زر الاتصال. بعد مضيّ عشر ثوانٍ أجاب الطرف الآخر بفتور أربك المدقّق الذي قال: "الروائي الفارس؟" إجابة الآخر بدت يقِظة هذه المرة: "تفضل!" رد المدقّق: "نعم"، ثم صمت ثانيتين قبل أن يكمل: "أنا موظف في إدارة المدوّنات المنشورة". أعاد الروائي جملته الأخيرة: "المدونات المنشورة!" أجابه: "نعم"، ثم أردف: "وجدنا محظورات عدة في

رواياتك الأخيرة، وأردنا تنبيهك إليها". آثر المدقّق استخدام صيغة الجمع هذه المرة. أما الروائي الذي لم يسأل عن الضرورة الملحة لجهة حكومية في الاتصال بمثل هذا الوقت، متجاهلاً غرابة الموقف بأكمله، ولعله افترض أنهم بدؤوا اتخاذ إجراءات مستحدثة، فقال: "أتريدون أن أحضر إلى الإدارة؟" رد المدقّق سريعاً: "لا!" وبسبب حيرة الطرفين، عمّ صمت بضع ثوانٍ. أحدهما يريد معرفة سبب الاتصال، والآخر يبحث عن مخرج مهذب. أرخى المدقّق صوته قائلاً: "أستاذ! إنني أتحدث إليك بصفة شخصية". كرر الروائي: "صفة شخصية؟" استطرد الآخر: "إنني معجب بأعمالكم، وقد قرأتها كلها دون استثناء. حتى مقالاتكم النقدية في المجلة الشهرية، وما صدر أخيراً عن سيرتكم الشخصية، وقد وقع النص الجديد بين يديّ، وحاولت مساعدتكم قدر المستطاع، لكن هناك مواضع، وأظن أنكم تتفهمون الموقف، لا يمكنني تجاوزها، وتلك الأشياء غير خاضعة لرأيي الخاص"... قاطعه الروائي حينئذ: "أفهم أنك مدقق؟" ولأن سؤالاً كهذا يعطي شعوراً بالانكشاف وبالتفسخ أمام الآخر، ولم يُحسب له حساب، رد المدقّق بنبرة مترددة ومهزومة: "نعم، وأرجو أن نبقي هذا سرّاً بيننا". أراد أن يوضح أن فضح أمره يعود بالضرر عليه، لكنه لم يفعل. أما الروائي، فاستلطف الموضوع، وراقت له الفكرة، ولذلك أراد أن يختصر الأمر: "متى وأين تودّ أن نلتقي؟" إحساس متدفق بالنصر باغت المدقّق، فشعر بثقة تامة، وقال: "إن أردت، اليوم، فمن الأفضل أن نستعجل؛ أنا مطالب بتسليم تقرير كتابكم مطلع الأسبوع المقبل، والوقت يدركنا كما ترى".

تمهّل الروائي قبل أن يقول: "ليكن اللقاء في الغد، السابعة مساءً، في مقهى برج الناصية".

***

في الصباح التالي، كان المدقّق أفضل حالاً. شرع في قراءة الكتب المقررة من جديد. حافظ على اتزانه أمام زملائه ولم تظهر عليه الحماسة التي تشاكسه للقاء الليلة بعكس ما بدا عليه البارحة من قلق وانشغال. كان يوماً عادياً غير أنه تلكأ في الخروج من العمل وقتئذٍ تعويضاً لتأخره في إتمام كتب الأسبوع، وهذا الاستثناء جعله يشهد لأول مرة مراسم حرق الكتب الممنوعة. لم ينتبه إلى أنه في هذا اليوم بالتحديد تُجرى هذه العملية الدورية في جانب من الصحراء المقابلة للمبنى، وهناك العديد من الموظفين الذين تجاوزت مدة خدمتهم أكثر من عشر سنوات لم يشهدوا هذا التقليد الأسبوعي، بل لم يشعروا بوجوده قطعاً، لأنه بعد انتهاء العمل الرسمي. حتى المدقّق لم يكن ليتنبه إليهم بسبب انكبابه في القراءة لولا رائحة الكربون النفّاذة التي تنبعث من أوراق الكتب المشتعلة التي تسللت إلى المدقّق عبر النافذة القريبة من مكتبه. إنهم يجمعون الكتب في حوض معدني ذي شكل مخروطي، ومرفوع على حامل له عجلات، ويتذيل جزأه السفلي ذراع طويلة، كما يتراءى للعيان أن في الإمكان فتحه لتسقط محتوياته بعد أن تخمد النار. ثم يُخفون الحوض، بالتأكيد، في مكان ما بعد إتمام العملية، لشكله القبيح الذي يفسد واجهة المبنى. الكتاب الذي

يُعتمد قرار منعه يصير وجوده جريمة، وحيازته أو تداوله جناية، فيلزم إدارة تدقيق المنشورات أن تتخلص منه، وألّا يكون له أثر إطلاقاً. كانت النار هائجة عندما نظر المدقّق إلى ساعته؛ لقد تأخر عشرين دقيقة عن موعد الانصراف. بدا المسؤول واقفاً ليشرف على العملية، ويحدد كميات الكتب التي تُرمى في الحوض تباعاً وبطريقة فنية أو علمية؛ ربما ليس من الجيد إلقاؤها دفعة واحدة. انصرف المسؤول بعد إعدام الكمية المحظورة لهذا الأسبوع. فكّر المدقّق في مصير كتاب الروائي الفارس. تخيّل أن تَلقى روايته حتفها في هذا الحوض القبيح.

في المساء، وصل حسب الموعد إلى مقهى "برج الناصية" وهو يحمل معه النسخة التي دوّن فيها الملاحظات، المحظورات والمستحبات. اتصل بالروائي ليعلن وصوله، فأخبره الآخر أنه يجلس في شرفة المقهى الذي يحتل طابقين من مجمع تجاريّ يطل على شارع عام مزدحم غالباً. كانت الإضاءة خافتة. على المرء أن يمعن النظر حتى يتعرّف إلى صاحبه. لم يكن هناك زبائن كُثر كما أن الروائي الفارس لا يختلف كثيراً عن طلعته في الصور. كان يجلس في آخر الشرفة يولّي نصف ظهره للبقية. يقرأ كتاباً غلافه رمادي. استطاع المدقّق أن يلمح الشق الثاني من العنوان: "الظلمات"، لأن الآخر أخفاه في حقيبة أسفل كرسيه عندما دنا منه. وضع سيجارته على المنفضة بعد أن ألقى المدقّق تحيته، وهمّ للترحيب به. لاحظ مدى ترهّل رقبته، وجلدة ظاهر كفّه. كان يعتقد أنه أصغر سناً مما يبدو. قال الروائي بعدما جلسا: "آثرت شرب القهوة معك". ابتسم

المدقّق بخجل، ثم شكره واعتذر عنها. تساءل عن السبب، فرد المدقّق: "أخشى على الكتاب، اعتدت هذا في العمل: يُمنع شرب الأشياء في المكتب خوفاً من اندلاقها على الأوراق". ابتسم الروائي بسخرية: "الأشياء لا تندلق هنا، اطمئن، ويمكنك وضع الكتاب جانباً على طاولة أخرى حين شرب القهوة". لم يبدِ اعتراضاً جديداً، وقال بموافقة حذرة: "كما تحبون".

تنبّه المدقّق إلى توتره الجامح، ورأى حجة رفض القهوة تلك غاية في السخف، وليست لها دلالة على شخصية متفردة أو ذات طابع خاص، كما كان يخطط طوال اليوم حول حوك سلوكه في لقاء الليلة وانتقائه المفردات الخاصة التي تناسب الشخصية التي يلتقي بها. كان محرّكه الخاص يندفع من فكرتين: أن يقنعه بضرورة التعديل، وألا يبدو أحمقَ بطلبه. سأله الروائي بعدما انصرف النادل: "أنت موظف جديد؟" "لا، أبداً"، رد المدقّق. لكنه لم يقل كم سنة أمضى في إدارة التدقيق. أضاف الآخر ملحوظة مغايرة: "أظن أنني رأيتك من قبل؛ ملامحك مألوفة". ابتسم المدقّق ولوى شفتيه، ثم هز رأسه دون أن يبدي تعليقه، وقال: "لست سوى رجل قراءة، وقد شعرت بمسؤوليتي إزاء هذا العمل الرائع، ووجب عليّ القيام بدوري ليشاركني بقيّة القرّاء هذه المتعة". سعل الروائي بخفة وألقى بعقب سيجارته في المنفضة وعاد ليعبَّ صدره قبل أن يرد: "لكنك قارئ مميز كما يبدو، فكيف تقبل ممارسة عملك هذا؟" فهم المدقّق مرمى سؤاله خصوصاً أنه مفرط الحساسية في ما يخص هذا الجانب، ولذا عدّل جلسته قبل أن يستهل: "التدقيق رغبة وطنية؛ إن الإدارة موجودة

بقوة البرلمان الذي سيحاسب الحكومة لو أُلغيت، واقتناعي بعملي نابع من إيماني بالديموقراطية". ترك لحظة صمت قبل أن تهلهل نبرته: "ثم إنني مجرد موظف يتقاضى راتباً نهاية الشهر". إضافته الأخيرة جاءت من أجل تخفيف ثقل الإجابة التي حضّرها سلفاً تحسباً لسؤال كهذا، ولأنه ناقش هذا الموضوع بينه وبين نفسه مراراً، خلص إلى هذه القناعة المريحة، رغم أنه حين أفضى بجوابه تذكر جملة عالقة في ذاكرته قرأها في رواية: "لم ينقذ أي برلمان في يوم من الأيام أي دولة". رد الروائي بشيء من الحدّة والاختصار: "المشكلة الحقيقية - رغم أنها مسألة لا يجوز فيها الاختصار - تكمن في من يُوجّه الديموقراطية".

مقهى "برج الناصية" من الأماكن الجيدة والمشهورة لكنه خيار سيّئ للقاء كهذا. كان ضجيج الازدحام المروري في الشارع يتداخل مع حوارهما، ولفت انتباهه مكتب في البرج المجاور إضاءته صفراء وستارته تكشف جزءاً صغيراً في المنتصف. تساءلت نفسه التي تقاطعت مع حواره الظاهر عما يمكن أن يحدث في هذا المكان. منظر كهذا يحفّز المخيّلة لنسج القصص والحكايات، بالإضافة إلى مواصلة فضوله تجاه الكتاب الرمادي الذي لم يتمكن من قراءة عنوانه كاملاً. صوت الروائي حاد ويشتت أيَّ أفكار أخرى طارئة لكن عقل المدقّق يتابع إصراره على طرح الاحتمالات والمشاهد في أي وقت وأي ظرف. أخذا وقتيهما في شرب القهوة قبل أن يشرعا في أمرهما الذي جاءا من أجله. كان الروائي يسأل بتفصيل دقيق حول الآلية المتبعة في عملهم، وصدقهم في قراءة الكتب من

أولها إلى آخرها، وعدد المدقّقين، وقدرتهم على قراءة هذا الكم الكبير من الكتب التي تصلهم سنوياً، وملاحظته حيال كتب قديمة متداولة في الأسواق فيها من المآخذ المحظورة وفق توصياتهم، وأنواع محددة من الكتب وتعاملهم معها... وهكذا. اطمأن المدقّق بعد أن أفرغا فنجانيهما ففتح الكتاب بالترتيب العكسي: الملاحظة الأخيرة حتى الأولى. كل واحدة لها مدلولها الخاص غير المتصل بالسياق العام. أخذ يشرّح المشاهد التي اتخذت من المرأة محوراً، وقبل أن يوغل في العرض، أطلعه على درايته الكاملة حيال ما يتخذه شكل النص العام، إذ اعتَمَدت اللغة وفقاً لأجواء العمل طابعَ الأدب العربي التراثي، وكان الروائي يستمع بتفهّم تام لكنه لم يكشف أيّ رغبة أو نيّة للتجاوب.

كانت الملاحظات الثلاث تتحدث خاصة عن مشاهد وعبارات كُتبت في وصف جسد أو فعل إغواء يؤدي في نهايته إلى إثارة اشتهاء القارئ وتوجيه مخيلته نحو ما يخلّ بالعادات والتقاليد. استفسر الروائي عن العادات المقصودة، في حين أشار المدقّق ببديهة عابرة إلى العادات العامة المجتمعية لكنه لم يوضح أن تعاملهم مع النصوص شبيه بما يأخذه القضاة من حيثيات، إذ يتوجب أحياناً الاستناد إلى الأعراف العامة ليتبيّنوا دواخل المتهمين. ورغم ذلك، لم يعلّق الروائي على مسوّغ الملاحظات، وآثر أن ينهي ما ابتدأه، وتحديداً عن الملاحظة التي استخدم فيها كلمة محظورة، كلمة واحدة بالإمكان التخلي عنها أو استبدالها، تلك التي تفيد بفعل أحد الصديقين التائهين حين أُغمي على الأول وأراد الثاني أن يبلل جوفه. ولأن المدقّق يظلل

الملاحظات بلون أصفر، وضع الروائي إصبعه عليها: أهذه الكلمة المقصودة؟ رفع المدقّق رأسه عن الكتاب ونظر إليه ثم أجابه بتردد يشوبه خوف من انفلات عقدة خطته: "نعم!" نطق الروائي بالكلمة المحظورة بنبرة تغمرها الدهشة. كان هذا ما يخشاه صاحبنا، وبدأ يشعر بعجزه عن تدارك الموقف، وتعطلت أفكاره وتشتت تركيزه كليّاً. أخذ الآخر يحلق في العبارة التي وردت فيها الكلمة، ويبدو أنه أعاد قراءة الفقرة كاملة، في حين طرح سؤاله بغضب واستغراب: "وتحت أي ذريعة تُحظر هذه المفردة؟" وجد المدقّق نفسه واقعاً في أحد الفخَّين اللذين أعدّ لهما العتاد، وراح يشرح الموقف ويفسره ساعياً إلى انتقاء أجود ما تحتويه معاجم المرادفات، معبّراً بذلك عن عجزه التام في المساعدة لكونها جاءت في النص صريحة، وهي من المفردات المحظورة والمصدّق عليها في كرّاسة الموظفين ضمن بنود الإخلال بالذوق العام، التي تُمثّل دستور عملهم الرسمي.

أطبق الروائي الكتاب من أمام المدقّق، وهز رأسه حانقاً في حين كان يأخذ نفسه من السيجارة. قال: "اعذرني". لم يعلق الآخر. لكنه أكمل بعد أن انتصب ظهره: "كنت أُجهد نفسي أثناء شرحك محاولاً تفهّم ما تقول، وتبادرت لي فكرة التعديل، لكن عند هذا الحد لا". تذكر المدقّق: "مَهد الظلمات". كان هذا عنوان الكتاب الرمادي.

٣

إنّ مَعِدة المدقّق ليّنة ومضطربة دوماً، ما يضطره إلى تناول أقراص لمعالجة التقلصات وغيرها من المتاعب. ذات ليلة رأى نفسه في المنام يدخل مطبعة والده، ويجلس إلى كرسي مقابل آلة الطباعة الكبيرة يراقب الأوراق التي تخرج من فمها إلى حامل يضمّها. منذ ذلك اليوم، صار يذرع الحمام ذهاباً وجيئة، وتضاعفت حاجته إلى الأدوية. المدقّق يخشى الارتباطات التي قد تشغله عن القراءة والاطلاع مع أنه رافق والده في صغره مرات عدة إلى المطبعة، وكان يتعقب مراحل صناعة المجلات والكتب بصمت وذهول تام، ولربما استطاع بالملاحظة وحدها تعلّم خطوات العمل بدقة؛ إنها شديدة التعقيد وعصيّة الفهم على صبيّ في مثل سنّه. كان يرى طريقة إعداد ألواح الطباعة وتحضير الألوان، ثم يتتبع الجهاز الذي يسحب الأوراق الكبيرة من الرزمة العملاقة التي تطويها على مراحل لتصير في حجم الكتب المعتادة. وفي جهة أخرى، تجري عمليات طباعة الأغلفة وتجليدها، ثم ثني أطرافها الداخلية، حتى تجميع الأجزاء النهائية. لهذا، كان المدقّق مفتوناً بموسيقا الصخب التي تصدرها

الماكينات، ومتيماً برائحة الأوراق والغراء، ومذهولاً من هذا الدأب والخلق الشديد الإحكام والترتيب والشبيه بالتناغم البديع الذي رغم تنفيذه بمساعدة أجهزة عدة يستغرق العمّال لإنجازه في عمل يقظ ومتواصل.

الصناعة المدهشة للكتب عزّزت من تقديسه لها وتقديره القراءة، وهو ما حرّضه لطرح أسئلة كثيرة على والده تخص آلية العمل، وسُبل الإنتاج المثلى، وجعله يقترح بعفوية تعديل بعض الخطوات وفق فهمه البسيط، التي رأى أنها تساعد على تحسين الجودة أو سرعة التنفيذ؛ كانت غالبية اقتراحاته، أو جميعها على وجه الدقة، غير صالحة عملياً لكنها صححت معرفته وأضافت إلى ملاحظاته عمقاً أكبر، ما أكسبه القدرة الجيّدة على تقييم متانة المطبوعات. وصاغت فيه عادة تفحص جودة الكتب قبل اقتنائها، فتجده يقلّب النُسَخ ويشد أغلفتها بحذر، ويتحسس سمك الورق ويعاين جوانبها، ويَنصح المكتبات بالاهتمام بإجراءات التخزين، فإنّ تلفَ كتاب واحد يساوي عُطباً في وعي أحد الأفراد وضياع فرصة قراءة سانحة.

رغم هذا الاحتواء المعرفي المتكامل لدى المدقّق، آثر التخلي عن مسؤوليته حيال تولي مهمات إنتاج الكتب بعد وفاة والده، خصوصاً بعدما أدرك قصة البدايات عندما قرر أربعة أفراد أن يؤسسوا مطبعة متخصصة كان والده أحدهم. ولأنه صاحب الفكرة والدعوة، والذي ثابر في بحثه ودراسته حول ما يتعلّق بفرص نجاحها من إخفاقها، وتابع إجراءات شراء الأجهزة، وتعلّم أبجديات استخدامها، تولى منصب المدير العام بتزكية الشركاء، وحظي بالثقة الكافية. لكنه عند

مباشرة العمل، وبدء الإعلان والترويج واستقطاب الزبائن، وبعد عبور موجات التجارب والأخطاء الأولية، ومضيّ مدة من عُرف المشاريع والتجارة، تكشّفت بضعة أحداث مثيرة للشك: شيكات لمصلحة شركات الأوراق والأحبار بمبالغ أعلى بكثير مما في رصيد المطبعة، تأخر متعمد في دفع رواتب العمالة، مصروفات مجهولة، وعود كاذبة لعملاء معتمدين، ادعاءات بضرورة تأجير محلات أخرى لتلبية متطلبات حكومية بيروقراطية... الأدهى من هذا كله: تبيّن أنه أقدم على قرض بنكي دون علم البقية، واستطاع أن يمرر طلبه ذاك بتزوير إمضاءات الشركاء.

المدقّق لم يطّلع على كل هذه التفاصيل الدقيقة لأنه عندما أُبلغ بقشور القصة أعرض عن سماع التفاصيل. لكن حتى اللحظة لم يعرف أحد بالحقيقة وراء أسباب وملابسات الأحداث التي كادت أن تورط الجميع. حتى عندما تمت مواجهته بالأمر، كان يحاول التملص بمواصلته الكذب والردود الملتوية، ولم يُوَلِّ أحدهم أهمية لضرورة تصريحه واعترافه بأفعاله، إذ تداركوا الأمر بعد عزله عنوة عن الإدارة ولمدة وجيزة حتى يتجاوز المشروع مشكلاته الخارجية، ثم انكفأ الشركاء على والد المدقّق، وأجبروه على دفع قيمة حصصهم تحت تهديد صريح وواضح يشي بفضح فعل التزوير. لم يكن هناك مهرب آخر. دهمه شعور بالعري ولم يكن ثمة حل أو مخرج، ثم بدأ ينصاع بوهن لمطالبهم، ومن جهة أخرى، بدأ يصحح ما اقترفه أيضاً. وفي بؤس شديد وحالة من الضياع، ولمدة عصيبة متوترة مشدودة، لم يشِ الأفق ببصيص، ولم يلوّح ذاك الليل بأي إشراقة. لقد اشترى

المطبعة، صحيح، لكنه وجد نفسه يغرق في قعر داكن. لم يكن يعرف أي اتجاه يوصله إلى السطح، وكم سيستغرق لينفرج هذا الغم. كان يمنّي نفسه بضربة حظ، بمشترٍ آخر للمطبعة يعتقه من رق الديون. كل الأشياء قابلة للافتراض. ما من خطة واضحة ولا خريطة يُهتَدى بها، إضافة إلى السمعة السيئة التي لحقت به، فصار العملاء والشركات يتجنبون التعامل معه، وإن اقتنع أحدهم بذلك، فالأمور تكون وفق شروط الآخر خصوصاً في مسائل التسليم والسداد. ما من مفر؛ عليه القبول والخنوع. لكنه بعدما استعاد شيئاً من عقله قرر أن يسعى في ما ابتدأه، ويستمر إلى وقت غير معلوم، ويذهب حيث يأخذه الطريق.

لوالد المدقّق جسد كمّثري وشعر قصير أجعد، بملامح بسيطة خالية من التفاصيل إلا من أنفه الأفطس، ويحافظ غالباً على سلوكه الهادئ، ولا يُظهر فرحه أو تعاسته، ولا راحته من تعبه، بل حتى إذا أخطأ أحدهم في حقه لا يذهب بعيداً في الدفاع عن نفسه. وإذا ما ثار غضبه، ينعقد حاجباه، وتنثني شفتاه قليلاً، ثم يبدد شيئاً من انفعاله في زمن مقدّر بسيجارة إلى اثنتين حتى ينقضي الأمر تقريباً. هذا يُكسبه قدرته السحرية في إقناع الآخرين بالثقة والطمأنينة، وبث مشاعر الصدق والوضوح. حتى بعدما جرى ما جرى، لا يزال هناك من يجد نفسه تلقائياً متعاطفاً معه، ويبحث عن مسوّغ لمقاصده إزاء تلك التصرفات الغريبة. ولعل الغموض المحيط بهذا كله هو ما يجعل الآخرين يمنحونه مزيداً من الفرص ويجددون عقد الآمال وتقديم الظنون الحسنة، وهذه مزية فريدة تتجسد في ألا يبرر أخطاءه ويفسر تصرفاته مقابل ألا يصد من يخطئون في حقه. إنه يمنحهم

المساحة الكافية لإفراغ حمولتهم الغاضبة، وصمته ذاك يؤنبهم في بعض الأحيان بعد أن تهدأ مشاعرهم. إنه ضرب من الاستحقار والاستعطاف. في النهاية هو لم يعرّض أيّ شخص للضرر، وسعى عند أول تهديد إلى إعادة الأشياء إلى موضعها، وتحمَّل وحده عبء ترتيب الفوضى. وهذا ساعده كثيراً في إشاعة خبر توبته وعودته إلى رشده، وبدا أنه تعلّم مما أصابه وصار يرى العالم بشكله السويّ، ولذلك كان هناك نوعان من الأفراد الذين ينقلون أحداث هذه القصة: الأول يكتفي بالبداية، والثاني يقفز إلى النهاية. أما المدقّق، فسمع بالجزء الأول واستشعر الأخير.

بعد سنوات عدة غير محصية، ولو على وجه التقريب، من الكدّ والعناء، وتنوع النشاطات وتخيّر السهل المربح، آثر التركيز على طباعة البطاقات الشخصية، والمنشورات ودفاتر الفواتير، وكراسات مدرسية أو ملصقات دعائية، وسعى للبحث عن سُبل تخفيض التكاليف، والمحافظة على صيانة الأجهزة واستمرارها لأطول أمد ممكن. تَجاوزت المطبعة العوائق المادية والديون التي تكالبت عليها إثر السقوط القاسي. لقد خرجت من هاويتها ونجت بمعجزة من موت محسوم في مهدها. حينذاك بدأ والد المدقّق يشعر بأنه أتم المهمة وأنجز ما عليه، وكفّر عن ذنبه العظيم، وانتبه إلى الإرهاق والملل الذي اعتراه منذ زمن، والتفت إلى فتوّته وطاقته التي انتُهكت في هذه النكبة، وتلك الأفكار التي راودته حين قرر أن يشرع في مسلكه، والتي سرقت منه سنوات لن تعود، وأودعت في منامه سماوات قاتمة وأرقاً يقتفي لياليه وأكداساً من شرائط

وعبوات الأدوية. لذا، قرر أن يسلّم المطبعة للمدير المباشر وفق ورقة موقعة تفيد بحصوله على مبلغ شهري ثابت يضمن له الانتفاع والتفرّغ، ويخلّصه من عذاب القلق اللحوح والتوجس المؤبد، ما يمنحه أعواماً قادمة هادئة. شعر بانفراج عظيم بعد تلك الخطوة لكنه حين نظر إلى مخلفات العاصفة بعد انقشاعها وجد هوّة سحيقة في منزله. لم يكن على يقين هل في استطاعته استئناف العمل من جديد: التعويض والاقتراب، ومنح ما في الداخل إلى الداخل. إنّ اتساع فجوة المشاعر جليّة، والأبناء قد كبروا على النسيان. قرر بصورة تلقائية أن يبدأ بنفسه: العودة إلى المستوى الصفر، إنساناً آخر وأفكاراً مختلفة وخطة قادمة من أجل الشفاء. السفر أو العزلة، ربما المرح أو التديّن! كان يخرج من منزله يومياً يسير على قدميه مسافات طويلة، أربع ساعات إلى خمس من المشي. أحياناً أخرى يوغل في البحر رفقة قائد زورق مدفوع الثمن، أو يقضي يوماً في مناطق بعيدة من ضوضاء المدينة يتنقل بين المزارع الكبيرة ويجوبها واحدة تلو أخرى. يحاول جاهداً تطهير دماغه من شحنات التوتر والاضطراب التي لازمته طوال سنواته الماضية. لاحظ المدقّق آنذاك كيف تحوّل والده من شخص إلى آخر، لكن شيئاً ما غير مرئي أو ربما داخلي يقف بينهما ويحجب قدرته على التقرّب إليه، غير والدته وأخته اللتين لا تقضيان دقائق كثيرة في المكان الذي يجلس فيه عادة، فتتجنبان أي حوار محتمل معه. في تلك المدة على وجه التحديد، قضى والد المدقّق في غفوة على أريكة المجلس طالت إلى أمد الدهر.

لعلها قصة لا تشبه الحكايات التي يطالعها المدقّق في الروايات

وغيرها من الكتب؛ أحداثها خالية من التشويق الذي يفتعله الكتّاب، أو تلك المنطقية والواقعية التي تُجهد المؤلف لإقناع القارئ بصدق المحتوى، وفق عمق الأسلوب أو جزالة الوصف... حتى بالبحث المستفيض لاحتواء موضوع العمل أو القضية المنشودة. في النهاية هذا العابر الذي يشتري القصص يبحث عن نفسه في الصفحات، أو متعة وقتية يقضيها في أيام معدودة. سيغلق هذا الغلاف وينتقل إلى ذاك ببساطة شديدة. قصة والد المدقّق أكثر من فانتازيا، مع أن أحداثها حقيقية ولن ينفيها ناقد أو يغلقها قارئ. لذلك، كان المدقّق حين يستعيد شريط حياة والده وفق المعطيات التي لديه يبدأ تفكيك الأحداث وإعادة تركيبها، وينسج من خياله أشياء أخرى. قال له أحدهم إن والده كان مطلوباً قضائياً وصدر في حقه أمر ضبط وإحضار لكنه تدارك أمره حين سارع في تسوية أموره مع شركائه. أما المدقّق، فأضاف حادثة اقتياد والده إلى المباحث الجنائية بعد أن أمسكوا به في نقطة أمنية، ما عرّضه للإهانة والحبس، وهكذا يمضي ساعاته في مكتبه يتذكر الأشياء ويربط بعضها ببعض ويحوك مواقف أخرى يقتبسها أحياناً من روايات قرأها مراراً، كحكاية المصرفي الذي استيقظ من النوم ذات صباح ووجد رجلين في غرفته يبلغانه بأنه رهن الاعتقال وعليه الحضور إلى المحكمة من أجل المثول أمام العدالة في قضية لا أحد يعرفها، ثم بدآ إهانته وتفحصا خزانته وتناولا طعام إفطاره غير مبالين برفضه سلوكهما المشين. يقلّب المدقّق الأمر في مخيلته، ويضع والده مقام الحدث، ما يقتضي تناول فناجين متتابعة من القهوة: شيء للخيال وآخر للذكريات المترسبة داخله،

وكلاهما بحاجة إلى ساعات من الصمت الموجع الذي يستدعي تخديره بالكافيين، ولا يترتب على ذلك سوى المزيد من أقراص المعدة.

عندما استيقظَ من نومه تلك الليلة بعد حلم المطبعة ذاك، داخله إحساس بأن هناك أمراً ما سيحدث. في الساعة الأخيرة من نهار أحد أيام الأسبوع التالي، حين بدأت السماء تنذر بالظلام، قرع أحدهم جرس البيت. نظر المدقّق من نافذة غرفته التي عادة يستطلع منها هوية الأشخاص في الخارج، فلاح له مدير المطبعة الموكل بشؤونها. رجل قصير نحيل البنية، أسمر البشرة، يسرّح شعره إلى الجانب الأيسر، يرتدي قميصاً أبيض يخفي أطرافه داخل البنطال. تقريباً لم يلتقِ به منذ وفاة والده. أبلغه آنذاك باستمرار العمل وفق الاتفاق المبرم سابقاً، وكان يودع المبلغ الشهري المقرر في الحساب البنكي حسب موعده دون تأخير. حين رآه، شعر بتقلصات في معدته، مع أنه كان يتوقع هذا الحضور في أيّ لحظة. عندما خرج إليه، هلل الآخر وصافحه بحرارة وأبدى احترامه البالغ. من أمام باب البيت في الإمكان سماع صياح أطفال يلعبون في الساحة القريبة، فيما أخذت أعمدة إنارة الشارع تضاء تدريجياً.

طلب المدقّق من المدير الدخول إلى مجلسه المخصص للضيوف. تركه دقائق وعاد. لم يألف استقبال الزائرين ولا يعرف نظام الضيافة النمطي. في الحقيقة هو لم يسبق له استخدام غرفة الضيوف من قبل. كان يشعر ببرود وجفاف ترحابه، لكن ما خفف الأمر أن طبيعة المدير الخجولة والهادئة تجعله لا يلتفت إلى تلك

التفاصيل. سأله عن أحواله وبقيّة العمّال، فرد الآخر بالإجابات المعتادة. كان المدير يشبك أصابعه ويريح ذراعيه في حجره، ثم راح يعيد أسئلة المدقّق إليه: أحوال والدته والأسرة، قبل أن تدخل الخادمة وتضع كأس عصير وماء وطبق مكسرات على طاولة من أمام المدير الذي قال: "بشأن المطبعة...". تأهب المدقّق للأمر. أكمل: "نواجه مشكلات كثيرة في المدة الأخيرة". هز الآخر رأسه ليتابع: "الأجهزة باتت قديمة جداً، واستُنزفت تماماً، وقضت أكثر من عمرها الافتراضي، فما عادت تنفع الصيانة الدورية، ولا تبديل القطع الاستهلاكية. صار الأمر مكلفاً جداً خصوصاً بعدما انصرف الكثير من الزبائن إلى مطابع جديدة". ثم ألقى بنظره نحو نقطة مبهمة وأكمل: "أسعار الإيجارات تضاعفت، والمواد الأساسية من أوراق وأحبار ارتفعت. ما عاد الأمر يجدي معنا". هز المدقّق رأسه مجدداً بقصد التفهم هذه المرة، فنظر إلى الطاولة أمام المدير حين قال: "بالنسبة إلي..."، ثم سكت قليلاً، "كما تعرف، هذا إرث أبي، وأنا سأساعد على استمراره بأي طريقة ممكنة، ولكي أختصر الأمر، يمكنني تخفيض المبلغ المطلوب دفعه شهرياً إلى النصف". التنازل السريع والسهل مؤشر على مخاوف خاصة. هز المدير رأسه على استحياء وأبدى ابتسامة مقتضبة: "لن يكفي". ثم استدرك أمره: "عفواً، أقدّر عرضكم السخي، لكنه لن يكفي لتصحيح الأوضاع. لن نتمكن من الاستمرار بهذه الأجهزة القديمة". بدأ المدقّق يحك مرفقه الأيمن: "كيف يمكنني المساعدة؟" عدل المدير جلسته وتناول جرعة من كأس الماء: "الطباعة بحرها كبير، ولن تزول

الحاجة إليها قبل عشرات السنوات في أسوأ حال".

لسبب وجيه، تذكر المدقّق عبارات نمطية عدة كان يشعر بالحساسية والاستفزاز حين يقرؤها، مثل رواية يقول بطلها إذا ما أراد البحث: "فتحت المراجع لأبحر في التاريخ"، أو آخر يصرخ: "سأدافع عن مبادئي حتى آخر قطرة في دمي"، كأن المدقّق يريد أن يكرر الغلطة نفسها ويقول إن هذه عبارات أكل عليها الدهر وشرب، ولأن جملة "الطباعة بحرها كبير" أثارت خياله: لم يسمع الجملة التي أعقبتها لكنه حرّك رأسه موافقاً، فتابع المدير: "الأمر بحاجة إلى قليل من المال". ثم صحح ما قاله: "ليس قليلاً؛ في الحقيقة نحتاج دفعة جيدة تجعلنا نواكب حاجة الزبائن. وإذا ما انضممت إلينا وتوفرت القدرة على شراء أجهزة حديثة، سأضمن لكم – وفق خبرتي طوال هذه السنوات – أن الأوضاع ستنتعش والعمل سيتواصل دون انقطاع، ويمكننا إضافة نسبة لمصلحتكم من الربح العام تصل إلى الثلث إضافة إلى راتب شهري ثابت". لم يفكر المدقّق في العرض كقيمة مادية، فمن المعروف أنه يقيس الخسائر الزمنية التي سينفقها من ساعات القراءة، وعندما شعر المدير أن الآخر لن يطرح أيّ أسئلة متعلقة بمقدار ما سيدفعه لتلك التعزيزات، أو المزايا التي سيحصل عليها إثر المخاطرة التجارية، قال إن عليه أن يأتي إلى المطبعة حتى يطلعه على مقاصده بالدقة والتفصيل، ويعرض عليه نتائج بحثه حيال أحدث الماكينات المناسبة التي تخدم عملهم ومتطلباته. هز المدقّق رأسه وقال: "سأتصل بك في وقت قريب".

اجتماع الأسرة لم يسفر عن أيّ فائدة. قالت والدته: "افعل ما

تراه مناسباً". أما أخته، فأبدت جهلها في هذه الأمور. كان يريد من إحداهما أن تدفع إليه فكرة التخلص من المطبعة لكنه إذا ما واجه نفسه لا يستطيع أن يقترف هذا الذنب. تنازعته رغباته وبدأ يوغل في حيرته. يُقرُّ في نفسه أنه ضعيف في اتخاذ القرارات. ماذا سيقول المدير إذا ما رآه يخذل هذه العِشرة التي تربطه بوالده ودوره الفعّال في مساعدة العائلة للإفلات من عار كاد أن يلحق بوالدهم؟ ماذا عن بقيّة العمال ورزقهم المرهون بهذا المكان؟ لا بد من ميزان يفاضل به قراراته: ما يترتب له وعليه.

كانت المطبعة كما هي منذ تأسيسها. مكانها بالقرب من مقهى شعبي ومطعم للوجبات السريعة لا يتناسب ونشاطها. لم تتغير من الداخل. نوافذها المتصلة من أولها إلى آخرها تجعلها مشمسة ساطعة، عدا بضعة جوانب أُسدلت بالستائر والملصقات كي تقلل حرارة المكان وتحمي الأجهزة القريبة منها. البلاط المرقط، وكومة من الأوراق التالفة في ركن مخصص، والمكتب الصغير الذي يقع أقصى الجهة اليمنى من المدخل... ربما الفارق الوحيد الذي أحسه عند دخوله، ما عاد ذلك الضجيج الذي يحجب سماع صوت زميل من بُعد، كان جهاز قص الورق يعمل وحده.

المدير الفرح بقدوم المدقّق أجلسه وراء مكتب والده، وقدّم إليه قهوة سادة لم يخترها. قال له ما معناه إن المكان يليق به، وإن عليه إدارة العجلة من جديد. لم يفكر المدقّق هذه المرة في الجملة السابقة. كانت ذاكرته مشغولة باستعادة عاطفة الطفولة وشباب المطبعة. للأماكن ذروتها وانكسارها. وَضَع أمامه أوراقاً وجهاز كمبيوتر

محمول جلس بالقرب منه وبدأ يعرض مجموعة ماكينات تبدو من صفائحها الخارجية عصرية حديثة وألوانها زاهية بعكس تلك الهرمة. قال المدقّق: "حجمها صغير على ما يبدو". كان يحاول أن يتفاعل مع المدير الذي استطرد في شرح المزايا الرقمية: هذه تطبع عدد كذا من الورق في الدقيقة، تستهلك كمية محدودة من الأحبار، كُلفة المنتج على سبيل المثال، منشورات ملوّنة من الوجهين، ستكلّفنا هذا المبلغ وسنبيعها بربح مضاعف ثلاث مرات، ثم إن صيانتها مكفولة لدى الشركة المنتجة بمبلغ سنوي زهيد، إضافة إلى توفير الوقت والجهد، أما هذا الجهاز، فله مزايا عجيبة: يطبع على أوراق يصل وزن سمكها إلى كذا غرام، وفي استطاعته تجهيز علب من الكرتون، ثم إن هذه الماكينات ستجعلنا نملك القدرة على البيع المفرد بدلاً من أن يقتصر عملنا على الكميات الكبيرة، وهو سوق جديد تغفله غالبية المطابع... وراح يتنقل في التوضيحات من شاشة الكمبيوتر إلى الورق، وأحياناً يشغّل مقطع فيديو يشرح آلية عمل الماكينة. المدقّق لا يحتاج إلى هذا الإنصات وذاك الشرح المستفيض؛ هو يثق بالمدير ومطمئن إلى أمانته لكنه لا يريد أن يحبط حماسته ورغبته في تبرير الحاجة إلى هذا المشروع الجديد، وربما سيدّعي أنه اقتنع بعد هذا العرض، ولذلك انتظره حتى يفرغ من حديثه، ثم قال إنه لم يتطرق بعد إلى النقطة الأهم، وكان يقصد المبلغ الذي عليه أن يوفره أو يرصده لجلب الأجهزة المطلوبة. أما المدير، ففهم بطبيعة الحال ما يعنيه، وراح يجمع التكاليف على ورقة ليشاركه في المسألة: الطابعة الفلانية، جهاز التغليف، جهاز القص... وهكذا. كتب رقماً

على ورقة طالعها المدقّق وراح يفكر قليلاً، ثم قال: "أليس مبلغاً كبيراً؟" ابتسم المدير باقتضاب لكنه رد: "قد يكون كذلك، لكن في مقدورك استرداده كاملاً في غضون سنة". ثم فرز الأوراق وأخرج واحدة وزجها أمام المدقّق وقال: "هذا الجهاز في استطاعته طباعة عملات نقدية". كانت كناية جيّدة هذه المرة، هكذا فكّر المدقّق. لكن المدير أضاف أمراً آخر: "سنعرض كل الأجهزة التي لدينا الآن للبيع. هناك سوق يهتم بتفكيك القطع وبيعها بالتجزئة. صحيح أننا سنجني مبلغاً زهيداً لكنه سيعيننا على المصاريف". ثم استدرك أمراً ما: "عدا ماكينة الطباعة الكبيرة، لن نبيعها، ما زلنا بحاجة إليها".

انصرف المدقّق بعدما طلب مهلة لأيام قليلة ليدرس الموضوع ويراجع قدرته المادية. إن المبلغ الذي يحتفظ به في حساب العائلة ناتج من مخزون أرباح والده السابقة من المطبعة، بالإضافة إلى تحصيل الإيراد الشهري الذي يضاف إلى حساب التوفير غالباً إلا في مرات قليلة يضطر فيها إلى صرف شيء على حاجة ضرورية. وعود المدير رغم يقينه بصدقها ليست مضمونة، فقد يحدث طارئ: عيب غير متوقع في الأجهزة الحديثة، أزمة مالية، مشكلات في الموارد التشغيلية. أعدّ المدقّق كل المفردات الاقتصادية التي تخطر في باله. كان متخوفاً، ويفكر في تكبّد المسؤوليات ووقت القراءة الذي سينحسر. فإذا ما اطلّع أحدهم على حياة المدقّق، سيجد أنها فارغة من كل شيء: لا أصدقاء ولا أنشطة، هو لا يفعل أي شيء لكنه يمارس كل الأشياء في كتبه. ليس في مقدور أحد مشاركة الآخر شعوره، ولذا يحس بذلك الانشغال الدائم الذي يجعله متردداً في اتخاذ قراره،

لكنه في الليلة الثانية بعد زيارته المدير، تذكر قوله بشأن آلة الطباعة الكبيرة التي سيبقيها ولن يفرط فيها، وارتبط هذا تلقائياً برؤيا ذلك اليوم حين جلب كرسياً وجلس مقابل الآلة. كانت في الحلم وحدها. الآن انتبه إلى هذا الأمر! كانت وحدها.

٤

"لولا يقيني التام بوجودي، لجزمت أنني في الفردوس. وَقَفَت في الرواق حورية لا أعرف كيف أصفها بغير هذا. كل ما يرجوه رجل من سحر في امرأة ملكته وأكثر. نظرتُ إليها فاغراً فاهي فأطرقَت خجلاً".

كان المدقّق يهذي بهذه الكلمات عند مرور والدته بالقرب من غرفته، الأمر الذي جعلها تقف وتنصت جيداً إلى ما يقول، إذ شَعَرَت أنه يتحدث عن فتاة غريبة لصديق ما عبر الهاتف، لكنه بعدئذ صَمَت تماماً، فابتسمت وانصرفت. في الحقيقة، كان المدقّق نائماً يحلم بالأجزاء المحظورة من كتاب الروائي الفارس. ومن حسن حظه أنه توقف عند هذا الجزء ولم يكمل بقية النص. ولأنه متألم لما آل إليه لقاؤه السابق، الذي كان متوَقعاً أن يُحدث سابقة جديدة وتجربة قد يحتذيها بقيّة المؤلفين خصوصاً أولئك الشباب الذين يرددون أفكاراً حول قدسية النص والفكرة بل نرجسيتها وغرورها، كاد المدقّق يقضي على هذا الوباء المنقول من أبد الكتابة إلى يومنا. تساءل في نفسه بعد أن انفض اللقاء: ما المشكلة في وجود شخص أو جهة تعد الخطوات وتتعقب الكلمات من أجل صفحات مصفّاة

خالية من الشوائب؟ الإنسان بحاجة إلى النذير. يا حبذا لو كان نذيراً فورياً ومباشراً! لكن المدقّق ما استطاع ذلك اليوم إلا أن يعيد فتح الصفحات التي أشار بحظرها، ولا سيما تلك الكلمة، الكلمة الوحيدة التي يتعذّر نشرها. إنها مسألة لا تقبل الاحتمالات، والروائي يعرف أن في إمكانه استخدام مفردة بديلة، أو تعديل بسيط في الصياغة قد يفي بالغرض، لكن تعنته نابع من دافع تحدٍّ، أو لشعوره بتدخل فظ. قال له بعدما نهى عن أي تعديل: "هذا اضطهاد سافر"، حتى بعد أن حاول احتواء غضبه حين قال ما يعني برغبته الجامحة في تمرير العمل. الروائي الفارس أظهر تقديره واحترامه لمسعى صاحبنا، وحتى يطمئنه بعد أن لاحظ حرجه وتوتره، قال: "هذه ليست أول مرة تُحظر فيها إحدى رواياتي، وقرار الرفض لا يخصك". لكن ذلك لم يطفئ شعوره بالفشل والعجز، ما جعله يُقدم بفعل دافع من دواخله المتأرجحة التي قررت أن تقول قبل أن ينصرف: "لكنني سأحاول المساعدة قدر الإمكان"، في حين رد الآخر: "إذا ما أُعلن حظرها، سأذهب بنفسي لأستفسر عن الأسباب".

بصرف النظر عن نيّته النبيلة، التي تعدُّ بمكانة رد جميل للمدقق، لم يُنهِ الأخير المسألة عند هذا الحد، ففي يوم عمل آخر، شبيه بذاك الحائر الذي بحث فيه عن حل لمعضلة اللقاء بالروائي، فكّر أنه لو وجد جوازاً يبيح الإفراج عن الكلمة المحظورة، فإنه سيعيد الأمل بالسماح لتداول الرواية في المكتبات. أخذ نسخته مُقرراً أن ينهي جدله مع نفسه. خرج من غرفة المدقّقين ليقطع الممر نحو مكتب المسؤول. سمع فتاة وراء حاجز تقول لأخرى: "الحرارة في الخارج

لا تطاق". ثم أخذتهما وصلة ضحك ما انقطعت حتى دخل المدقّق غرفة المسؤول. كان الأخير يقرأ تقريراً كما يبدو، فأشار له بالجلوس في الكرسي المقابل. راح يمعن في كلمة أو جملة حتى اتسعت حدقته ثم ضيّق عينه اليمنى وأبعد الورقة قليلاً. هذا فعل طبيعي لدى المسؤول ولا ينم عن أي حدث مهم. ارتدى نظارته ومد يده ليتناول الكتاب من المدقّق لظنه المعتاد بقدوم الموظفين في استشارة إزاء حيرة من إحدى الجُمل. ولو أن الأمر بالفعل كذلك، لكن صاحبنا يأتيه بغاية مغايرة. فتح الكتاب على الصفحة التي تحوي الملاحظة. كان متردداً وعازماً في آن خصوصاً في جملته المترنحة حين قال: "هذا الكتاب لا يوجد فيه أيُّ تجاوزات"، ثم أتم جملته: "سوى هذه الكلمة". نظر إليها المسؤول ثم خلع نظارته. أطبق الكتاب ورده إليه: "كيف أساعدك؟" المسؤول كان سميناً في السابق، ووجنتاه كانتا ممتلئتين جداً، ما يعطي ذقنه مساحة واسعة كبيرة، لكنه أجرى عملية جراحية، وغدا ينحف تدريجياً حتى جحظت عيناه، وصارت لحيته كثيفة، وحين يحدق في وجه شخص يوحى إلى الآخر أنها نظرة كُره وازدراء. مهما تفهم المرء طبيعة المسؤول، فإن شكله يرسل مشاعر مربكة غير مريحة. نافذة المكتب كبيرة وتسمح للشمس بالتألق في المكان، وتطل على مواقف سيارات الموظفين وهو يستغلها في معرفة الحضور والغياب دون الحاجة إلى السؤال عن أحدهم. ولأن النافذة وراء المدقّق، هو يرى ملامح المسؤول مشعة ساطعة يقرأ فيها كل خلجاته. لم يرغب المدقّق في أن يفضح نيته الخالصة في التجاوز عن هنَات كتاب الروائي الفارس،

لكن سؤال المسؤول - العفوي جداً - كشف شيئاً مما يخفي قوله، إذ من المعروف سلفاً أن المدقّق لا يملك مزية دهاء الرد والتعبير، لكنه حشد مشاعره محاولاً تدارك أمره حين قال: "ليست مساعدة، لكنها سابقة لي". ثم فتح الكتاب مجدداً يبحث في صفحاته، ولعلها حيلة منه كي يتجنب النظر في عيني المسؤول. وأكمل: "أول مرة أصادف كتاباً كهذا ليس فيه أي محظور سوى هذه الكلمة، وهذا أربك قراري". وبينما يعبث المدقّق في الكتاب، تناول المسؤول كتيّباً مخبأً تحت الأوراق في جانب من مكتبه، وتصفحه سريعاً حتى توقف عند صفحة ما. قال بنبرة حادة واضحة: "هذه كلمة مدرجة في معجم المحرمات من دستور العمل، يا أستاذ". يحب المسؤول أحياناً أن يطلق على موظفيه لقب أستاذ في نوع من التهكم والتنبيه في آن. كان الكتيّب مفتوحاً على فصل الحرف باء من الألفاظ المحظورة حيث الكلمة تعتلي الصفحة. ويَذكر الدستور أن المفردات تمنع بأصلها وتصاريفها وجمعها ومثناها وبإضافة ألف ولام التعريف.

"أليست معك كرّاسة التدقيق؟" سأل المسؤول، وأجاب الآخر بتلقائية: "بلى"، ما دفعه للمتابعة: "إذاً، لست بحاجة إلى طرح هذا التساؤل. إنها بدهيات خالصة، سواء امتلأ الكتاب بالتجاوزات أم اقتصر على تلك". ثم أردف: "أنت على مستوى من الخبرة، وتعرف أن هذه الكلمات تقودك إلى تحقيق إداري". لم يرد المدقّق أو يضف إلى توضيحاته مسوغات أخرى، أعاد مبرراته بصوت منخفض فقط مثل همهمات حين انصرافه، وراح ينضد أفكاره ويضبط ميزان اتخاذ القرارات. منذ انضمامه إلى الإدارة لم يعرف موظفاً اقتيد

إلى التحقيق بسبب سماحه بإحدى التجاوزات. إنه ملم جداً بآليتهم الصارمة، فعملهم ليس إلا مرحلة تنقية أولى لمحتويات الكتب؛ يدوّن الموظف في تقريره ما يراه محرماً بصفة جازمة وأيضاً ما يشك في أمره، ولا يخلو أي تقرير من لفت انتباه إلى عبارة حتى لو كانت يقيناً مباحة، ثم تنتقل المهمة إلى لجنة فنية خبيرة تضم نخبة من اللغويين والباحثين في تخصصات عدة ليصدروا حكمهم النهائي بالإجماع. كانت الخطوات المتسلسلة لآلية العمل تنتظم في مخيلة المدقّق منذ سماعه: "تقودك إلى تحقيق إداري". الاعتراض على كلمة تستوجب وجود مُعترِض. قال لنفسه: لو أبحت كلمة، من سيعرف إذا لم يتقدم أحدهم بشكوى؟ عندما عاد إلى القسم، ألقى بنفسه على الكرسي. انتابه شعور بالخزي. كانت المجموعة تناقش عبارة في كتاب لدى أحد الزملاء، إذ وردت شتيمة جسيمة في النص لأحدهم يقول لآخر: "يا ابن الزانية!" وحار الزميل في أن يشملها ضمن الملاحظات الداعية للمنع أم تلك التي يُنظر في أمرها، واختلفت الأطراف في شأنها. يرى أحدهم أن القارئ حين تقع عينيه على شتيمة، شديدة أو بسيطة، تشمئز نفسه وتتأثر، ويتفاعل داخلياً مع ما قرأ كأنما سمعها عنوة من أحدهم صرخ بها في الشارع، لكن رأياً آخر يقول إنه لا يصح منع كلمة الزانية وهي منصوصة في الكتب المقدسة لمجرد توظيفها الخطأ على لسان أحدهم؛ إن دعوة مثل تلك تفتح أبواباً خطيرة، لكن الرد على هذا شديد البساطة لكون الألفاظ جمادات، والإنسان يبث فيها من روحه الكارهة أو المحبة، فهي أداة مساعدة في نهاية الأمر. علينا استخدامها بطريقة نافعة، ولعل هذا دفاع جيّد

عن وجهة نظر وجيهة. لكن الزميل المجاور للمدقق رفض هذا رفضاً تاماً بحجة أن الكلمة رأيٌ متفردٌ بحد ذاتها، وعلّل بمثال: "ماذا لو استبدلنا المفردة السالفة بمرادف آخر متداول لدى العامة؟ هذا يجعل الأمر مغايراً، ولوقعها أثر مختلف في المجتمع والأخلاق والناشئة والأعراف. هناك كلمات لو كُتبت وحدها، ستعطي ذات التأثير لو ألحقتها بجملة".

شعر المدقّق بالإنهاك والملل. حين توقفوا عن النقاش فضّل الزميل الحائر أن يراجع المسؤول بطبيعة الحال، ولو أنها نتيجة حتمية في ظل هذا اللغط السائد. عاد الهدوء إلى المكان عندما حانت نصف الساعة المقررة للراحة. خرج بعضهم للتدخين والآخرون لشرب القهوة سوى أحد الزملاء عاد إلى قراءة كتابه. استغل المدقّق هذه الفسحة، فطلب من الزميل المجاور البقاء بغية الاستفسار عن أمر. سأله بصفته الأكبر سناً والأكثر خبرة هل اشتكى مواطن ذات مرة حيال كلمة مُجازة أو عبارة خادشة، وقال مختزلاً غايته: "هل شَهدتَ سوابق من تلك؟" أسند الزميل المجاور مرفقه على المكتب وأغشى جبهته بكفه اليمنى مسدلاً جفنيه يسترخي ليستعيد ذاكرته، فقال: "تحضرني حادثة وحيدة غابرة لكنها علامة بارزة في تاريخ الإدارة لأنها تحولت إلى شأن عام". اتسعت حدقتاه حين قال: "شأن عام". لكنه عقد حاجبيه حين عرّج إلى جانب آخر: "وأظن أنه بسبب تلك الحادثة تغيّر النظام العام في العمل". أخرج المدقّق قرصاً من درج مكتبه وتناوله أثناء حديث زميله. قال: "أتذكر أن أحد الموظفين – كما تسعفني الذاكرة – ساعد مؤلفاً بالتجاوز عن مخالفات صارخة،

ومضى الأمر دون أن يعلم أحد، ونُشر الكتاب ووُزّع على المكتبات، لكن بعد مدة قصيرة رفع أحدهم دعوى قضائية على الإدارة وعلى المؤلف من جهة أخرى تحت ذريعة احتواء النص على مشاهد جنسية فاضحة وتعدٍّ على الذوات المحرّمة. أخذ الأمر إجراءات طويلة من التقصي والتحقيق، وانتقل إلى الصحف ووسائل الإعلام، ما أحرج الإدارة وألبسها ثوب الفوضى واللامبالاة، وعرّض وزيرها لاستجواب برلماني رغم معرفة المسؤول فور تفشي الأمر بالمتسبب في الواقعة، فقد كان يريد استدراج الموظف ليتبيّن دوافعه وأسباب تهاونه المتعمد قبل أن يُعلن العقوبات المقررة عليه، لكنه أنكر وجود علاقة تربطه بالكاتب، رمى فقط بتركيزه على كيدية الدعوى وأن القارئ يريد الضرر بالإدارة، واكتفى بذلك. ربح المشتكي ونجا المؤلف وفُصل الموظف. وكُتب في تقرير أسباب القرار أنه تخاذل في حفظ قيم المجتمع وصيانتها وحقّر عاداته وأعرافه وأهان شرف المهنة". أضاف الزميل المجاور: "هذه خيانة أمانة". ولأنه يريد أن يرسل تنبيهاً إلى المدقق، أكمل: "هذه التجاوزات يجري اكتشافها عاجلاً أم آجلاً؛ المجتمع يشاركنا الوظيفة".

لو سمع المدقّق هذه القصة قبل أن يذهب إلى المسؤول، لأنعش خطته، لكنه في موقف سيّئ الآن. هذا افتراض واجتهاد لا أكثر، لأن المدقّق أيضاً ليس ذاك المقدام الذي يمضي بحصانه، وإنما سينتظر كثيراً قبل أن يقرر أمره. تلك الكناية ليست مدلولاً جازماً عمّا تخبئه الأحداث لكن ما جرى في نهاية الأسبوع أنه استسلم لكتابة التقرير. حالة من اليأس والحزن كانت تغرقه حينذاك، ولا تخلو من بعض

الرضا عمّا بذله من جهد. لقد كابد في الوصول إلى صياغة مناسبة ليرسل ملاحظاته، ولا سيما تلك الكلمة المعضلة، وهذا يعني أنه ألقى الكثير من الأوراق في سلة المهملات، لأنه كلّما قرر الشكل النهائي، يضطر إلى تعديل عارض بعد القراءة الأخيرة، بسبب جملة أحسها توحي بفكرة مغايرة عن مقصده، وهكذا، ورقة بعد أخرى، تصحيح يجر آخر، حتى خلص إلى استخدام قلم الرصاص، ثم نسخ التقرير على الصفحة نفسها باستخدام الحبر الجاف. وبعد أن أنهى الأمر، قرأها ثلاث مرات، ثم جال في خاطره أن يحررها مجدداً. لقد أصيب بحالة من الجنون. بدأ يشعر بثقل الهواء وحرارته، وراح العرق يبلل ملابسه. بدا كأنه جرى عشرات الكيلومترات ولا يعيب المدقّق أن يلاحظه أحدهم وهو يخفي دمعة حارت في طرف عينه اليمنى. يمسحها وتعاود الظهور بعد دقائق.

نظر إلى نافذته القريبة. نهار هذه المدة من السنة مستعر جاف. كان يتخيّل هذا الغلاف الجميل الذي يحتفظ بآية فنيّة في يد المسؤول أمام مخروط المحرقة، يرمي به بازدراء وباحتقار ووحشية مهينة. تهيج النيران حتى تستحيل الكتب رماداً، فتسقط بعد أن يرفع أحدهم الذراع السفلية مثل براز. صاح المدقّق في نفسه: "يا الله!" شعر بدهشته بعد أن أدرك فعله. "يا الله. لقد منعتُ الرواية!"

***

أحياناً يقرأ المدقّق كتابه وهو يذرع البيت صعوداً ونزولاً. يكسر

حالة الجمود على كرسي مكتبه، أو الرقود في فراشه. وبينما يمارس عادته في ذلك اليوم، كان على مقربة من غرفة المعيشة. سمع صوتاً مألوفاً يصدر عن التلفاز. كانت أخته جالسة في الغرفة تتناول طبقاً من قِطَع الفواكه ولا تعير اهتماماً لأمر البرنامج المسائي. وضع المدقّق سبابته بين دفتي الكتاب، وجلس يمعن في الشاشة ينتظر أن تأتي الكاميرا على الضيف. رفع حاجبيه ابتهاجاً، وقال: "هذا الروائي الفارس". كان قد مضى على لقائهما أكثر من أربعة أشهر، لكن ذاكرته عادت إلى الوراء متجاوزة أيامه الرتيبة. أحس أن تلك الليلة كانت البارحة. الجلسة نفسها والأسلوب والنبرة الساخرة إذا اقتضى الأمر. كان الحديث يأخذ منحاه الخاص: نضاله السياسي، قضاياه الإنسانية التي تجسدها أعماله الأدبية، مرحلة الدراسة الجامعية، تعاطيه مع المتغيرات العصرية... أظهروا صوراً تجمعه بشخصيات فنية وأدبية، وأخرى دبلوماسية من الدرجة الرفيعة. قالت أخته: "يبدو أن الموضوع يهمك". التَفَتَ نحوها: "أعرف الضيف". رفعت من مستوى صوت التلفاز. سألته المذيعة: "كم عملاً أنتجتَه حتى الآن". أجاب وهو يميل برأسه: "نحو تسعة عشر عملاً، مراوحاً بين الأجناس الأدبية". ثم أتبعته بسؤالها الآخر: "وكم عملاً مُنع؟" أبدت ابتسامة متأهبة لإجابته، لكنه قال باختصار: "ثلاثة". ثم أضاف: "ثلاثة أعمال روائية". وأكمل بعد أن عدل جلسته ومسح بأصابعه طرفي فمه وسعل مرتين: "لو أخبرك عن سبب حظر الرواية الأخيرة، لانفجرتِ ضاحكة". هزت المذيعة رأسها مرفقة ابتسامتها التي تقريباً لا تتغيّر تحت أي ظرف وحال: "أرجو أن تخبرنا بها". رفع الروائي

سبابته في وضع استعداد ليفلت عقدة حكايته: "بسبب مفردة، مفردة واحدة". ومط كلمة "واحدة". "هذه المفردة في إمكاني التفوه بها في كل مكان، وفي وسع الآلاف أو الملايين ممن يتابعون البرنامج الآن سماعها دون أن أتعرض لأي مساءلة قانونية". ثم طرح تساؤلاً عارضاً: "أعتقد أن مشاهدي التلفاز أكثر من قراء الكتب، أليس كذلك؟" لم تجب المذيعة. ليس من قبيل المبالغة في حق القناة ولا تقليلاً من شأن الكتاب، وإنما كانت في منتهى الإحراج. فأجاب بدلاً عنها: "بالتأكيد مشاهدي التلفاز. تخيّلي أنني أستطيع أن أصيح بها ولا يمكنني كتابتها؛ الرواية مُنعت بسبب كلمة...". ثم كررها: كذا. كذا. قالها ثلاث مرات. أفلتت المذيعة ضحكة عالية. لا أحد يدري هل تخليها عن تحفظها في هذه اللحظة بالذات بسبب طريقة إفشاء الروائي الكلمة المحظورة أم بسبب الكلمة نفسها، في حين تابع الفارس مضيّه: "هل جرحت ذوقك الآن؟" لكنها استعادت توازنها وقالت: "أيضاً نحتفظ بحق الرد لإدارة التدقيق، فبالتأكيد لهم أسبابهم الوجيهة". لزم الروائي صمته، وفضّل ألا يعلق على تعقيبها.

قالت أخت المدقّق: "هل هذا يهاجمكم؟" أجابها دون أن يلتفت هذه المرة: "صحيح، يقصدنا". كان صمته يخفي الكثير من البوح. يبدو أنه بحاجة إلى ذلك الشخص الذي يستدرجه للحديث. أخته ليست من ذاك النوع الذي يفهم إشاراته، ونبرة صوته، وحركة أصابعه، ونظراته الفاضحة، خصوصاً أنه يوليها ظهره في غرفة مشمشية ذات إضاءة صفراء. لعله امتزاج ألوان يثير التوتر. ربما. بالإضافة إلى لون

الأريكة البنية المطرزة بالذهبي الفاقع. في كل الأحوال لا حاجة إلى مزيد من الأعذار كي نبرر أن أخته لم تحاول استجداءه ليفصح عمّا داخله. المدقّق بطبيعته يبدو للعامة غريب الأطوار. يركن إلى الهدوء وشح الكلام، وإن تحدث، فهو يكثّف حصته من الحوار. من يدري، ربما تتصرف أخته بهذه الطريقة لأن لديها الخبرة الكافية إثر تراكم مواقف عدة، فتتوقع ردود أفعاله، وهي تخلص إلى نتيجة حتمية: إن كان هناك ما يود قوله، فها أنا أستمع. رغم هذا وذاك، ظل المدقّق صامتاً ينظر إلى الشاشة وقد أنهت المذيعة الحوار الذي أخذ منحى آخر، وانتقلت إلى فاصل إعلاني. شعر في ذلك الوقت أنه مشمول بمقاصد الروائي الفارس، حتى إن أكد له ذلك في لقائهما السالف، فلا يستطيع الإنسان أن ينفصل عن أحاسيسه، تلك التي تنبعث عن تلقائية معقدة يصعب السيطرة عليها؛ بدا الروائي مختلفاً عن ذلك اللقاء، وفكّر أن صورته – المدقّق – حضرت في ذهنه حين تفوه بالكلمة المحظورة. في كل مرة يكررها، يظهر وجه ذاك الغبيّ الذي يعمل في إدارة التدقيق. الأمور بدت شخصية الآن، نعم، ولم لا؟ هونك يا هذا، عليك أن تهدأ. هكذا قال لنفسه، في حين جعله صوت ارتطام الشوكة التي انزلقت من يد أخته على الطبق ينتفض ويلتفت ناحيتها عنوة. شَهقَت فتناولتها من جديد، ثم نظرت في عيني أخيها: "أفزعتك؟" هز رأسه نافياً ومطمئناً.

ذاع صيت اللقاء التلفزيوني. في البدء، تفاعل بعضهم مع الخبر بصفة هزلية، عن ذلك اللفظ الذي تسبب في منع كتاب الروائي الفارس. إياك أن تكتب الكلمة المحظورة، فهي جريمة يعاقب عليها

القانون. صارت الحديث الدائر، ومثار حوار الأوساط الثقافية. بعد أيام طَرح أحدهم مبادرة لإحياء مطالبات برفع التدقيق عن الكتب وتصعيدها إلى أعلى المستويات، ولاقت الفكرة قبولاً وحماسة جيدة، ومثل كل الاعتراضات القديمة والقضايا المسكوت عنها، حدث صغير وعفوي يحركها بل يدفعها بشدة كأنها كارثة جديدة. سرعان ما شرعوا في تكوين فريق عمل أطلقوا عليه لقب جماعة "حرية بلا حدود"، وحرصوا على أن يصنفوا أنفسهم ضمن القوى الثقافية، مؤكدين ومشددين على أن ليس لهم أي تبعية سياسية أو حزبية ذات مصالح نفعية. وبالمناسبة، عناصر الجماعة مؤلفة من أولئك الذين ينظمون الندوات الأدبية طوال السنة، وتحت مسميات مختلفة لملتقيات ثقافية عدة، وهي ليست "قوى" بالمعنى الذي تحمله الكلمة من ثقل، وإنما شلة لا يتجاوز عددهم عشرة أشخاص، وغالباً ما يجري بينهم اختلافات تؤدي إلى انشقاق، لكن هذه المرة جرت الترتيبات على نحو جيد، ونسقوا مع جماعات أخرى مهتمة بالقضايا المشابهة وباشروا خطواتهم منددين بأفعال إدارة التدقيق في الصحف والإذاعات وقنوات التلفاز، وهددوا برفع القضايا وتنظيم المسيرات والاعتصامات. بدأت بعض الصحف تتفاعل على استحياء – رغم أن القضية تعنيهم بالدرجة الأولى – مثل نشر رسم كاريكاتيري رديء، ومقص وأقلام ومكبّر على الكتب وأشياء كتلك، وتغطية إخبارية غير مرضية في الصفحة الثقافية، إذ كان من المأمول أن تتصدر تحركاتهم الصفحات الأولى. وبعض كتاب الأعمدة اليومية الذين يستنزفون مخزون القضايا والموضوعات

التي يتناولونها في العادة وجدوها قصة أو حالة جديرة بالكتابة. لكن المثقفين عامة – وفي مختلف أنحاء المعمورة – لا يمكنهم أن يكونوا ثقلاً اجتماعياً، فالمراسلون الصحافيون مثلاً عندما يذهبون لتغطية أحد التجمعات المعارِضة يبحثون عن الأسماء والوجوه المألوفة لدى الإعلام، لكنهم لا يجدون أحداً. إنهم النخبة الذين يفضلون أن يكونوا بمنأى عن الظهور، فالروائي الفارس على سبيل المثال لم يحضر لو يوماً واحداً. يبدو هذا جلياً حين استضاف أحد البرامج التلفزيونية ممثلين عن الحركة للتحدث في شؤون مطالبهم. كان يقدمهم المذيع باسم الناشطين الثقافيين. لم يظهر على السطح أي شاعر أو روائي، ولا مؤرخ أو باحث. حتى لم يكن هناك ناشر أو بائع كتب. هذا بطبيعة الحال يضعف الموقف العام، ولا يحقق تلك الرغبات المنشودة رغم سعيهم وراء الأسماء اللامعة التي قد تهز الجهات المعنية وتدفعها إلى التفاعل.

كان المدقّق يتابع ما يجري جيداً، ويراقب خطوات الجماعة المناهضة، لكنه أحجم عن حضور الندوات كما فعل في السابق، خصوصاً أنهم طلبوا لقاء المسؤول الذي أجرى اجتماعاً مختصراً مع موظفيه حيال الأوضاع الحالية. لم يبدُ عليه الانزعاج أو التوتر. على النقيض تماماً، تحدث إلى أعضاء إدارته ألا يولوا أي اهتمام لهذه الأخبار، فهي ليست الأولى من نوعها. لقد عاش هذا المبنى تاريخاً من الخصومة. إن الذين يريدون كسر القوانين والعيش في غابة كُثُر، أولئك الذي لا يراعون أدنى الأعراف المجتمعية. خشي المدقّق أن يلتفت إليه المسؤول أو يستدعيه لطرح بضعة أسئلة حيال

الرواية التي تسببت في كل هذا، لكن الأمر بالنسبة إليه أكثر بساطة. حتى بعد زيارة عدد منهم إلى مكتب المسؤول كان أكثر ثقة واعتداداً بنفسه، ويجيد التعامل معهم. يقال أنه أيدهم في حقهم ودعاهم إلى رفع القضايا وتنظيم المسيرات أمام البرلمان. لم يتغيّر شيء، ولن يحدث أكثر من زوبعة صغيرة تقضي مدتها وتخمد، هذا ما يردده الجميع تقريباً من قدامى موظفي الإدارة، فأولئك الناشطون غالبيتهم من البسيطين الذين لا يملكون القدرة المادية واللوجستية – إن جاز التعبير – لدعم واستمرار فكرة تحتاج إلى تحرك من سلطة عليا. هم لا يملكون إلا أن يستغلوا بعض المنافذ الإعلامية التي تتيح لهم حصة متواضعة للظهور، وخطاباتهم المصاغة بإتقان، واللوحات التي يكتبها خطاط ماهر، ومخزونهم من القراءة، وسيقانهم التي تحملهم ساعات من المسير والوقوف خارج أسوار الإدارة.

بعد وقت بدأ التعب والإنهاك ومشاعر الهزيمة تتسلل إليهم. لا جدوى، قالها كل عضو منهم دون أن يفصح عنها، لكنهم بدؤوا الانصراف تدريجياً إلى مزاولة أشغالهم التي تضمن لهم مصادر دخلهم وتؤمّن متطلبات أطفالهم وحاجات معيشتهم. في ظل هذه الأجواء الباهتة المحطمة التي تنم عن تهالك الجهود، وتخلي كل العناصر المشتركة والمعنية بالأمر، استيقظ الجميع ذات يوم على خبر فوز الروائية المُغامِرة – هذه كنية أخرى للدواعي نفسها – بجائزة أدبية إقليمية ذات مستوى رفيع، وهذا نبأ مدوٍّ وجامح عن رواية حُظرت قبل أكثر من عام.

٥

"إنها تعمل بصورة رائعة، مذهلة، مذهلة! انظر، قارن، المس واستشعر الفرق".

وافق المدقّق على عرض المدير، وزوّده بالمبلغ الذي يقتضيه، وغاب عنه حتى يكمل إجراءاته وتصل الأجهزة إلى المطبعة. لقد نسيَ الأمر بعد أسبوع لكنه حَرَصَ أن يكثف قراءاته في تلك المدة. كان يتوقع انشغالاً آتياً سيسرقه من متعته لا محالة. بدأ يقضي على أكثر من ثلاثمئة صفحة في اليوم. أحياناً، عند انغماسه ساعات محنياً ظهره وعنقه على الصفحات، تنبت دوائر صغيرة من العرق في جبهته، أو خيط يسيل محاذاة أذنه. يبذل جهده لإشباع روحه بالكتب. وبعد شهرين تقريباً من القراءات المكثفة، اتصل به المدير ليخبره بتوافد الأجهزة. ذهب إليهم في اليوم الأول فوجد صناديق كبيرة من الكرتون تملأ المكان، فعاد في اليوم الذي يليه ووجدهم يفرغون محتواها ورجال كثر يقومون على التركيب. عاد في اليوم الثالث فوجد مجموعة من الفنيين الكهربائيين يكسرون خطوطاً في الجدران ويضعون التمديدات اللازمة. اليوم الرابع بَدَأَت أعمال

البرمجيات وإغلاق أنابيب أسلاك الكهرباء المكشوفة، ومجموعة أخرى تبني غرفة صغيرة للمكتب الجديد. شعر المدقّق بجهله حيال ما يستوجب فعله، وأن وقته يضيع بلا فعالية حقيقية للعمل، خصوصاً أنه يأتي مباشرة بعد أن يفرغ من وظيفته في إدارة التدقيق ليستغل كل ثانية من يومه، فيقضي ساعتين ويرحل. بادر المدير بعد أن أحس بحيرة المدقّق: "لست بحاجة أن تأتي كل يوم". وبعد أسبوع تقريباً، عاود الاتصال به، وعندما حضر هذه المرة، كان المكان في أتمّ استعداد، ودائرة العمل قد اكتملت، ورائحة الغراء وغبار الورق عادت من جديد، واستقبله المدير بسعادة غامرة بعدما أجروا اختباراتهم المطولة وفي يده نسختان من صورة كبيرة دقيقة التفاصيل والألوان ليقارن جودة الجهازين - الجديد والقديم - ويكرر جملته: "مذهلة! إن طباعتها تجعل الأشياء تبدو حقيقية. إتقانها رهيب، انظر، قارن، المس الورقتين واستشعر الفرق".

انشغل المدقّق أيامها في التحقق من النماذج التي تطبعها الماكينات الجديدة، وأحضر كتاباً قديماً يوشك غلافه أن ينشق عن أوراقه، فأعادوه إليه كما لو كان جديداً بألوانه الزاهية وتماسكه الشديد. وبعد أسبوع آخر صار عليه الحضور إلى المطبعة عصراً لأربعة أيام أو ثلاثة. يمضي ساعتين أو أكثر بقليل في المكتب المخصص له، يقرأ ويراقب سير العمل. في المرة الأولى، أعاق ضجيج الآلات اندماجه خصوصاً الأصوات الناشزة المفاجئة الصادرة عن أجهزة القص أو التغليف، فاستعان بسماعة أذن حتى يذعن تركيزه للقراءة. أما هذه الأجهزة الحديثة، فإنها أكثر بساطة من تلك القديمة المعقدة. لم

يدخر جهداً في معرفة آلية عملها. إنها تعتمد بصورة رئيسية على ما يرسله جهاز الكمبيوتر المرتبط بكل ماكينات الطباعة. أما الأشغال اليدوية، فتقتصر على تنظيف الأجزاء الداخلية للآلات كل يومين تقريباً، وتزويدها بالورق أو نقلها إذا امتلأ حاملها. في الحقيقة إن وجود المدقّق لا يضيف شيئاً في الإنتاج أو الإعلان أو جلب الزبائن؛ كان حضوره ليس إلا كونه صاحب العمل أو الشخص الذي استثمر مبلغاً طائلاً ليبعث الحياة من جديد في هذا المشروع، وعليه أن يطمئن إلى سير الأمور، لذا، بعد ثلاثة أشهر أخرى، صار يأتي يومين فقط في الأسبوع، ينجز ما في وسعه قراءته في أربع ساعات، بعد أن يتحقق من الفواتير والمدخولات والمصروفات، وبعض الإنتاجات الجديدة، ثم ينصرف. رغم شعوره بالحرج من تتبع المدير المشهود بالأمانة والثقة، فإنه لا يستطيع إلا أن يتأكد من قدرة المطبعة على سداد قيمة الماكينات في غضون سنة تقريباً. هو يتلمس انجذاب الزبائن إلى التعامل معهم وعودة العملاء الذين تسربوا في الأوقات الماضية، هذا يدعو إلى التفاؤل والثقة، كما أنه بخبرته التاريخية يمكنه معرفة مدى جودة المطبوعات المشغولة ونظافتها. ذات يوم أبدى المدقّق للمدير عن أمر قرأه: "أظن أن أجهزتنا هذه لا تترك علامات في كل نسخة من كتاب أو مجلة، تلك التي تعطي خصوصية لكل نسخة". لم يفهم المدير مقصده، فطلب منه إيضاح السؤال. قال: "قرأت معلومة تشي بأن ماكينات الطباعة تترك علامة لو صغيرة في كل نسخة من كتاب تميّزها عن الأخريات، علامة قد لا تُرى بالعين المجردة، لطخة حبر، نقطة متناهية الصغر، حرفاً باهتاً، طرفاً

مبعوجاً، بقصد أو دون قصد". تبَين أن المدير لا يعرف عن هذا الأمر رغم سنواته التي قضاها في تصحيح خلاصة الإنتاج. معلومة كهذه قد ترد في الكتب وأساطير الطباعة لكن ما يدركه على الأقل أن هذه الأشياء قد تحدث، لكن ليس بشكل متسق أبداً. قد تحدث على سبيل الأخطاء العارضة لكن عند طباعة ألف نسخة من كتاب يستحيل ألا نجد مئات متماثلة تماماً خصوصاً حين تكون الماكينات مزودة بكل طاقتها لتعمل بانسيابية وراحة. وعندما مضى المدير يتابع عمله، تناول نسخة من أحد الكتب وراح يتفحصها بعبثية لا تقود إلى نتيجة. قد يجد شيئاً مما يقوله المدقّق. عاد إليه المدير وقال: "الأكيد أن نسبة حدوث الاختلاف مع هذه الأجهزة لن تتجاوز خمسة في المئة". من الواضح أن معلومته تلك تفتقر أي شيء من الدقة.

اكتشف المدقّق في تلك المدة أنه بدأ يستمد معرفة جديدة بالملاحظة، وأخذ يرصد ظواهر مختلفة متعلقة بالكتب ما كان ليطلع عليها لولا تجربته، وأصبح يقارن ويضع فرضياته التي قرر أن يدوّنها في أوراق جانبية، فكتب: "التكنولوجيا تجعلنا أقل يقظة، وأكثر تهاوناً، وتضعف الانتباه والتركيز، وتخلق الكسل، وتضمر المهارة اليدوية التي نفاضل بها إنساناً عن آخر". بعد مرور وقت لاحظ تهافت عدد كبير من الزبائن يطلبون طباعة عدد محدود من الكتب لا تتجاوز خمسين نسخة، وكان يغلب عليها طابع شبيه بالخواطر الخاصة، أو مقالات متعلقة بأحداث سابقة، أو نصوص مسرحية ودرامية. سجل ملاحظته هذه المرة: "الإنسان يميل إلى نزعة الاحتفاظ بالأشياء حتى لو كانت عديمة الفائدة أو لا تؤدي غرضها، فإما للخصوصية ثمنها،

وإما لمثول الجهود الشخصية شعورها الدافئ". بعد حين وجد كُتباً تدّعي أغلفتها أنها تميل إلى أجناس أدبية عدة. متفاوتة الأحجام ومؤلّفوها من كل الأعمار. وعند محاولة قراءتها يشعر بالعجز عن هضمها أو مجانسة المحتوى بالغلاف، لكنها مطلوبة جداً ويُطبع منها الآلاف، وبعضها تعاد طباعتها أكثر من مرة، وفي هذا، سجّل المدقّق الآتي: "للثقة والاعتداد بالنفس طاقة هائلة لكنها غير منتظمة، وتقود أصحابها إلى العبث بالتاريخ وبمسيرتهم الشخصية، وهي تحصل على زادها من الشهرة والأضواء، وأحياناً أخرى من الأموال والمصالح". بعد مدة أيقن أنه يعمل على شيء جديد ومختلف عن كل ما تمنحه الكتب له، وقد تحصّل عليه بفضل الدقائق البسيطة التي يرفع فيها رأسه عن كتابه ويراقب العمال والزبائن أو يطل داخل أحد الصناديق وهو في طريقه إلى دورة المياه، أو يعد كوباً من القهوة. ومع تكرارها، عزم على الاستمرار في تسجيل تلك التأملات التي تخالجه عند الفراغ من ملاحظة حثيثة.

صار الوقت الذي يمضيه في المطبعة مسلياً خصوصاً بعدما اطمأن إلى جدوى خطة العمل التي راحت تأخذ سمتها الروتينية، وبعدما ذاع صيتها في مدة وجيزة وبدأت الانتشار واستقطبت زبائن آخرين مختلفين عن أولئك العملاء القدامى، بسبب جودة المنتجات، إضافة إلى قيمتها المنخفضة، بل المحطّمة للتكاليف الشائعة في السوق. هذا الأمر جعل بعضهم يشكّون في قدرتهم على الاستمرار مقابل هذه المبالغ الزهيدة من الربح – كما يظنون – وأنها خطة لجذب الزبائن فقط ستنكشف قريباً. في كل الأحوال، بدأت بعض دور النشر الناشئة

تتجه إلى خوض هذه التجربة، فإمكانية طباعة كميات محدودة جداً توفر مساحات من التخزين، ما يوفر تكاليف استئجار مساحات كبيرة مرهقة للميزانيات، وهذا إذا استمر، سيشكل طفرة ونقلة جديدة في مفهوم طباعة الكتب وآليتها.

ذات مرة لاحظ المدقّق أحد الزبائن يطبع نسختين لسبعة كتب، وجلس ينتظرها حتى فرغ العمال من إنجازها، وعاد بعد عشرة أيام يطلب طباعة خمسمئة نسخة من المجموعة نفسها؛ هذا قد لا يدل على شيء بعينه لكنه أمر لافت. أعاد الرجل كرّته أكثر من مرة، يطبع نسختين ويعود بعد عشرة أيام وهكذا. ترصده المدقّق جيداً. كانت قامته طويلة، أسمر البشرة، مقلتاه واسعتان، ينظر بانتباه وارتياب دوماً، يتبسم بفجائية محيرة إذا ما وقعت عيناه على عينيه. قرر أن يستفسر عن نشاطه. في يوم، وبينما ينتظر استلام مطبوعاته، نهض المدقّق من على كرسيه متجاهلاً وجود الآخر. تظاهر أنه يمارس دوره كصاحب شركة يتفقد سير العمل وأداء الموظفين وكفاءة الأجهزة، ويحاول تفحص الماكينات مثل خبير. يسأل عن كفاية الورق وهل هناك شفرة احتياطية لجهاز القص. يأمر أحد العمال بنقل التوالف من مكان إلى آخر، ثم راح يقترب من صندوق مفتوح ممتلئ بالكتب. تناول واحداً وأخذ يقلبه. لم يقرأ منه شيئاً ولا حتى العنوان. كان مشغولاً بالتظاهر أمام الرجل. يجهز لرد فعله وبدء حواره. رفع رأسه ونظر إليه فابتسم الآخر من فوره. بدا وديعاً هذه المرة على غير ما كان يظنه. سأله: "أهذه الكتب لك؟" نهض الرجل من مكانه واقترب يهز رأسه: "نعم". فقال: "كل هذه الكتب لك وحدك؟ ما شاء الله". فابتسم

الآخر ملء فمه: "ليست لي شخصياً". نظر إليه مستفهماً، فأردف: "أنا موظف لدى مؤسسة نشر". فأكمل المدقّق: "وماذا تعملون؟" قال: "نقدم خدمات الطباعة والنشر والتوزيع والتسويق إلى المؤلفين داخل البلاد وخارجها". رفع حاجبيه: "ألهذه التجارة أرباح جيدة؟" "نعم"، رد الرجل بنبرة غير متأكدة. عاد المدقّق يتفحص الكتاب في يده يقلّبه جيداً. هذه المرة قرأ العنوان "فتنة الشتاء". لم يكن اسم المؤلف ذا أهمية بالغة لكونه مبتدئاً على الأرجح. لا يعرفه ولم يسمع عنه في أي محفل ثقافي، لكنه انتبه إلى اسم "دار الخطوط للنشر والتوزيع". حاول استدراج المتواري في ذاكرته. الاسم ليس غريباً. يعرفه، يقول داخله: لقد قرأته من قبل، أو قد التبس الأمر بينها وبين "دار خطوات". لم يكن هناك متسع لمزيد من التفكير. رفع رأسه إليه مجدداً فقال: "لكن اعذرني على هذا التدخل، لماذا تطبعون نسختين من كل عنوان، ثم تعاودون طباعتها بكميات كبرى؟" قد لا يعرف هذا الرجل الكثير عن أسلوب العمل. ربما هو مجرد مندوب أو رسول يؤدي ما عليه فقط لكنه لم يكن يملك إجابة مباشرة بعد طرح سؤاله، فكان رده: "يجب علينا فعل ذلك". لم يفهم المدقّق، فرد بعفوية تامة: "لماذا عليكم فعل ذلك؟" بدا أن الرجل يفكر قليلاً، ثم قال: "حتى يتسنى للمؤلف رؤية كتابه في شكله النهائي قبل اعتماد الطباعة". تدارك المدقّق هذا الإجراء: "نعم. أتفهم هذا. ممتاز". ثم أنهى حوارهما: "بالتوفيق".

في الأسبوع التالي، بينما كان يمدد ساقيه في مكتبه بعدما فرغ من كتابة أحد التقارير، نظر من النافذة مطولاً مراقباً حمامة حطت

على الأرض تنبش بقايا رماد الكتب والدبابيس كما بدا له في بداية الصحراء القريبة من المبنى حيث يوضع مخروط المحرقة، ثم عاد بنظره إلى المكاتب من حوله. انتبه إلى أحد الزملاء. لفت نظره كتاب ضمن مجموعة مصفوفة بعضها فوق بعض. هذا كتاب يألفه. أمعن النظر في عنوانه المدوّن على كعبه "فتنة الشتاء". نهض من مكانه واقترب من زميله. تناول الكتاب: "كيف كانت هذه الرواية؟" رفع الآخر رأسه بعدما وضع إصبعه على جملة يقرؤها. نظر إلى الكتاب قبل أن يقول: "لا أعرف، لم أجد فيه شيئاً مميزاً". ثم أبدى ملحوظته: "هذا ثالث كتاب أقرؤه لهذه الدار ولا أجد ما يثير الانتباه". استأذنه المدقّق في استعارته. لم يُبد زميله أي اعتراض. استغرق في قراءته حتى الصفحة الثالثة والأربعين. شعر بالملل منذ البداية لكنه منح نفسه قليلاً من الصبر. توقف ليكمل عمله. أراد أن يتعرف إلى مضمون الكتب التي تنتجها مطبعته. ثمة علاقة مباشرة وخاصة تربطه بـ"دار الخطوط" الآن. لم يقل هذا ولم يفكر فيه لكنه شعر به دون أن يدركه، فقرر أن يكمله لو إلى منتصفه عندما يذهب إلى المطبعة.

في اليوم نفسه، راح يتفقد الصناديق لكنه لم يجده في مكانه. سأل المدير عن كتب الزبون الذي يأتي كل مرة يطبع نسختين ويعاود بعد مدة. "تم تسليمها"، أجاب المدير، وأكمل: "إننا لا نُبقي كميات الكتب الجاهزة أكثر من خمسة أيام". حار المدقّق في أمره، وأخبره أن هناك كتاباً كان يود أن يقرأه عنوانه "فتنة الشتاء". "أتحتفظون بنسخة من الأعمال التي نطبعها؟ لا". فكر المدير قليلاً: "في الحقيقة أنا لا أحفظ أسماء الأشياء، لكن يمكننا استخراج نسخة من الملف

المحفوظ على الكمبيوتر". "ممتاز". رد الآخر: "أود لو تطبع نسخة مسودة للاطلاع فقط". "فتنة ماذا؟" "الشتاء". أعادها المدقّق: "فتنة الشتاء". أرسل المدير نسخة من الرواية المعنية إلى المدقّق. هذه مطبوعة على ورق أكبر، وأرقام الصفحات صارت مختلفة عن تلك الأصلية. لم يعرف عند أي فصل توقف ولا أي فقرة، فجاهد ليمسك بجملة مألوفة مما قرأه. حار في أمره، وقرر أن يعيد استهلاله بدءاً من الفصل الثاني. بعد فقرة وأخرى بدأ يتذكر بعض الأشياء. نعم، لقد مررت من هنا، صفحة وأخرى. أخذته الرواية. لقد عَبَرَت أكثر من جملة أعجبته. لم يحدث هذا صباح اليوم. تساءل في نفسه: لربما قرأتها على عجالة؟ بعد عشر صفحات قال: لا يمكن... أعطى فرصة أخرى قبل أن يصدر قراره. تابع وأضاف خمس صفحات أخرى. حينئذ لم يجد مجالاً للشك: إنهما مختلفتان!

***

إن البهجة الوطنية العامة العارمة ليست من قبيل الاعتياد، بل حالة فريدة واستثناء. إنها التأريخ بذاته. في تلك الأحداث، تظهر أسماء على السطح تصير أيقونة وعلامة بارزة بين الأفراد، وقدوة شعبية أنجزت عملها بصمت حتى نالت شرفها الوطني المرموق، مثل عسكري أحبط خطة اغتيال الحاكم، أو عالِم أثبت فرضية عالقة منذ أزل، أو موسيقيّ مشهور بلحن نشيد خالد، أو لاعب كرة قدم سدد في دقيقة حاسمة فأحرز لقب كأس العالم.

فازت روائية بجائزة عالمية. وراحت كل صحيفة تنشر الخبر كأن محررها متابع مثابر ومتعقب دقيق لمسيرة المرء قبل تحقيقه إنجازه، ويظهر عكس هذا في عجزه عن إيجاد صورة حديثة للشخصية المعنية، وحشو الخبر بالمعلومات الهامشية التي ليست لها صلة مباشرة بالحدث الحاضر. تبدو الصحف نسخاً كربونية بعضها يشبه بعض عدا في العناوين العريضة التي باتت مساحتهم الوحيدة السانحة للإبداع، فإذا ما أذيع خبر مهم، تجد الصحافيين أرقين في مضاجعهم يبحثون في معاجم المترادفات ودواوين الشعراء عما يناسب رأس صفحتهم الأولى، وهكذا مع الروائية المُغامِرة. حتى أن رؤساء التحرير لا يعرفون يقيناً أهمية الجائزة التي فازت بها إلا من الوكالات العالمية التي تناقلت الخبر، فتلك دلالتهم الخالصة والوحيدة، والداعي لتخصيص مصور ومراسل لاستقبالها في المطار بعد عودتها من حفل تكريمها خارج البلاد، وسط استقبال أسرتها والقراء وبعض الجماعة المناهضة للحظر. وضعت والدتها طوقاً من الورود حول عنقها. في الأثناء، كانت ومضات كاميرات الصحافيين تحاول تثبيت اللقطة وتوثيق غيرها لكن المُغامِرة لم تقل غير كلمات الشكر لمن حضر من أجلها واعتذرت عن صعوبة الإدلاء بغير ذلك.

النشرات الإخبارية المحلية نقلت الحدث وجهّزت تقاريرها عن تاريخ الجائزة وأهميتها وعرضت صوراً ولقطات من أجواء عودتها وحاولت جاهدة الحصول على مداخلة مسجلة أو مباشرة عبر الهاتف لكنها امتنعت عن الإجابة، بالإضافة إلى عدد من الاتصالات والدعوات لبرامج تلفزيونية في قنوات خاصة تسعى للسبق والظفر

بفرصة احتفاء بالبطلة الجديدة، لكنها كانت تكرر اعتذارها بلباقة معللة باحتياجها فسحة للرد على الرسائل الواردة من وكالات الأنباء الإقليمية والعالمية، والتنسيق من أجل ظهور جيد ومناسب. لم تكذب الروائية في شيء من هذا؛ تهافُت الشبكات الإعلامية متدفق وجارف ولم تكن قد استوعبت الحدث بعد. أما المؤسسات الأخرى، فبقدر ما تنظر إليها بأهمية بالغة كونها شخصية ريادية، تجدها في الوقت نفسه سلعة تسويقية دعائية. هذا أمر طبيعي في المجتمعات العصرية. مع ذلك، هناك أولويات يجب أخذها بالاعتبار، فعندما تلقت الروائية برقية مبارِكة من رئيس البلاد، ورَدَها اتصال من المكتب الرئاسي يطمئن إلى استلامها التهنئة، ثم أوصاها بالرد عليها بأخرى تشكر اهتمامهم ورعايتهم لأبنائهم الأخيار، وتمررها عن طريق المراسل الإعلامي إلى قصره الكائن في أطراف العاصمة، فكان من واجبها أن تنجز هذا الأمر قبل أي شيء، ثم بدأ أعضاء البرلمان نشر أخبار تهانيهم بهذا الفوز العظيم الذي يدل على كفاءة المواطنين في جميع الأصعدة ورعاية الدولة لهم. أما على الصعيد المعارض، فكرروا نشر التصريح نفسه لكن بدلالة مختلفة في فقرته الأخيرة، إذ علقوا على معاناة الشعب من أجل إظهار البلد بصورة لامعة في ظل هذا التخلي والتهاون الحكومي.

استشعر المدقّق مغايرة الأحداث الحالية، ولَفت انتباه زملائه إلى توقع تطورات قريبة. ستعاود الجماعات هجومها على إدارتنا من جديد لا محالة. لكن إلى أي مدى سيصل صمودها هذه المرة؟ قال: "إنني متابع جيّد للروائية المُغامِرة. كانت نشطة في بداية ظهورها

الأدبي لكنها اختفت كلياً في ما بعد ولم يعد يُعرف عنها أي شيء عدا رواياتها التي تصدر كل سنتين أو أكثر. الغريب في الأمر أنه من بين كل أعمالها لم تفز بجائزة سوى الرواية الممنوعة". رد أحد الزملاء: "لا تتوقع أن هؤلاء هم من يقودون المشهد. رأيتم كيف جرت الأمور في المرة الماضية". وقال آخر: "كل الانفعالات تهيج بفعل فاعل، وتخمد بالتجاهل". وخلص أحدهم: "كل ما يجري في الخارج لا يعنينا".

نشرت شركة السينما إعلان سعادتها بالفوز المبجل وتعهدت صرف مكافأة مالية مجزية، ثم نشر أحد محلات بيع الساعات، ومعرض لبيع الأثاث، ومؤسسة للنقل الجماعي، وشركة للحديد المسلح إعلانات شبيهة، ثم تبعتهم جهات أخرى. طَرح النقاد رؤاهم وقراءاتهم وتحليلاتهم حول الرواية الفائزة: تقنياتها السردية، تعدد أصواتها، نسج الشخصيات، الحبكة الظاهرة والمتوارية، تمايز الزمن... والغالبية الساحقة أغدقتها بالمديح والثناء، واقترح بعضهم تطعيم المناهج المدرسية ببعض فصولها، وآخر قال إنها أعظم ما قرأ في الأدب الإنساني المعاصر، وآخرون أكدوا أنها تمثل تشريحاً فاضحاً ومتقناً للحالة المجتمعية، وأن إسقاطها الخاص الذي يدور في فلك المحلية يمكن تعميمه على الأحوال الخارجية، وارتباطها العاطفي بالقارئ ليس إلا دليلاً على ملامستها المشاعر العميقة، وأنها تمثل دعوة صريحة لدحض التحيز البشري، والالتفات إلى الكينونة الداخلية... وقد تحرضنا هذه الرواية على البكاء بكل الأحاسيس المخزونة إلى ما آل إليه الناس. لكن هذا السيل المدرار من المقالات

والمراجعات جعلت فئة أخرى قليلة تميل إلى البحث عما ينقص النص والتركيز والإسهاب في الكتابة عنه، إما لحاجة الرواية إلى من يشير إلى مواطن ضعفها، وإما لغاية داخل الناقد تميل إلى لفت الانتباه وتحويل الأضواء.

لم يسمع أحد صوت الروائية المُغامِرة بعد. كان صمتها غريباً إلى حد اليقين بأنها ركبت منطاد الغرور والكبرياء. بدأ بعضهم التذمر من موقفها في المجالس الخاصة، وآخرون ممن ليس لهم صفة رسمية أو علاقة مباشرة في الوسط الأدبي عابوا عليها هذا السلوك، وبات من الصعب على أحدهم في وقت كهذا أن يصرح سلبياً حيالها. حتى جماعة "حرية بلا حدود" طلبت من أفرادها القريبين منها أن يحثوها على التحدث للإعلام. طال وقتها وانتظر القراء بما فيه الكفاية أيّ: كلمة، فقرة مقتضبة، جملة مكثفة، بيت شعر، حرف واحد، صرخة... لكنها استمرت غير عابئة بما يقال حتى مضى وقت كافٍ، فاستعادت همتها ولملمت أفكارها ونشرت مقالتها على موقع إلكتروني. كتبت في مطلعها: "لقد عبّرتُ أمام اللجنة التي رجحت فوز الرواية عن عظيم الشكر، وللقراء عن وافر الامتنان، وتناولت عشاء ذلك المساء في سهرة محفوفة بالسعادة، واستطعت أن أنام ليلتها وفي رأسي أقل هموم امرأة على الوجود، خفيفة، محلّقة، ملقية على تعاسة الكون لحاف الأجل، وفي الصباح اللاحق، أجريت مقابلة صحافية واحدة، وركبت الطائرة عائدة، وعندما حطت على هذه الأرض، لم أعرف نفسي، ولم أجد صفحاتي التي كتبت. كل ما جرى في المطار لا يعدو أكثر من استقبال فتاة عادت إلى حضن أمها.

لم أجد موضوعاً مهماً للتحدث فيه إلى وسائل الإعلام. إن الشيء الذي معي تم إعدامه قبل قليل. إن هذا الذي تهللون به غير موجود. لقد مات على عتبة البلاد". ثم كَتَبَت في موضع آخر: "الحصول على ورقة تصريح بتداول الكتاب مرهون بالارتباطات الشخصية. ليست لقيمة المادة أثر في القرارات، فالفهم السائد أن ليس للأدب أهمية عظيمة، والتاريخ عبر العصور تمت صناعته عن طريق العلاقات التي مهدت الفرص لأولئك الذين بنوا والذين هدموا على حد سواء".

كان المدقّق على يقين صرف بأنهم لا يعملون وفق عشوائية وفوضى كما يشاع عند المؤلفين والكتاب، بل إن بعضهم لديهم الكفاءة العلمية اللغوية التي تفوق الجميع وتقارع أعتى الأدباء، لكن المسألة الفارقة تكمن في تفاوت الاقتناع بضرورة الالتزام بقوانين المنع. وبعد تقصيه السالف، وتأمله البسيط وراء إمكانية تمرير بعض الكتب، صار لا يستبعد حدوث أمر مشابه لما ورد في الفقرة السابقة من مقالة المُغامِرة إذا ما كانت هناك أمور تدار وفق هذا المعنى، وإذا ما كان المسؤول يمرر بعض الأعمال، أو قد لا تصل بعض الكتب إلى الموظفين، وربما هناك مسالك مختصرة يتبعها بعضهم لتجاوز قسم التدقيق كلّه.

انتبه الوسط الإعلامي إلى أسباب الروائية عقب مقالتها. كانت الساحة الثقافية تعي أمر منع الرواية من قبل، وتناول بعضهم الموقف بسخرية. لم يكن لأحدهم أن يستمع لتلك الأصوات مع أن كل النسخ التي بيعت كانت تصل من خارج البلاد عن طريق الطرود البريدية السريعة أو تهريب كميات أكبر من المنافذ البرّية، وتباع بالسر في

أماكن محددة. وقدّم بعضهم خدمات التوصيل إلى المنازل ودخول الرواية ضمن سلع السوق السوداء بسبب تزايد الطلب وضعف العرض. أعادت الصحافة نشر المقالة. البلاد تحتفل برواية تحظرها! عناوين مختلفة ملأت الصحف. أحدها كُتب بخط كبير: "خطأ إجرائي"، وتحتها بخط أصغر: "مَنَع الرواية من عرضها منذ عام". قدّم عضو في البرلمان معروف بصدامه المستمر مع الحكومة سؤالاً برلمانياً إلى الوزير المعني، وتمت إحالته إلى الإدارة وإجابته مع إرفاق الأوراق المطلوبة والمستندات التي تدعم القرار، لكن المسؤول لم يكن مطمئناً إلى ما يجري رغم اقتناعه التام بصحة إجراءاته القانونية. طلب الظهور في واحد من البرامج التلفزيونية الشهيرة لكي يوضح ملابسات الأمور والأحداث، وليسبق اتهامات الآخرين. تحدث بثقته التامة ونبرته المتوازنة الثقيلة وصوته الهادئ المدعم بالأدلة والمراجع. أبدى فخره الكبير لما حققته الروائية وإعجابه بأسلوبها ومهارتها في السرد والكتابة الوصفية الرفيعة، وذكر أعمالها الماضية خصوصاً تلك المسموح بتداولها في المكتبات، لكنه استدرك موضحاً أنه لا علاقة بين فوز الرواية وقانون المنشور والمطبوع، الذي يعدّ أساس وظيفتهم وخط مسيرهم. قال إن النص يدعي وجود فوارق طبقية مجتمعية، ويتحدث عن فئة بكونها مضطهدة، وأخرى لها نصيب أكبر من الحقوق والثروات، ويتنبأ بحدوث اصطدام دموي داخلي لا محالة، وأن النظام متسبب في ذلك، إضافة إلى بعض المفردات التي لا تليق بذوق القارئ، فالكلمات مثل الرداء لها مقامها ومقالها. حاول المذيع آنذاك أن ينقل أسئلة الجمهور

التي تسعى إلى إحراج المسؤول، لكنه كان قد شمل في إجاباته كل الاستفسارات المتوقعة، حتى تلك التي لم تُسأل.

شعر المسؤول بارتياح غامر بعدما أنهى لقاءه على هذا النحو، واستطاع أن ينام مطمئن البال ليلتها. تلقى تهنئة صباحية من مدير إدارة المدونات المنشورة، وزيارة تشجيعية من زميله في قسم المداهمات، لكن ما حدث بعد ذلك أن الجماعة المناهضة للحظر تناولت حيثيات اللقاء كموضوع لإعادة تنشيط حركة الصد والردع لهذه الممارسات المرفوضة، وهذا التقييد المخزي. وعرضت "حرية بلا حدود" مشروعها هذه المرة القائم على افتراءات المسؤول حول ما تناولته الرواية على النقابات المهنية ومراكز النفع العام والاتحادات الأهلية، وشركات النشر والمكتبات، ونزعت حينذاك الروائية المُغامِرة نقاب الانزواء والفردية، وكشفت عن شخصيتها الصادمة وغضبها الهائل المكبوت، وانخرطت ضمن خطة الجماعة وعادت التنديدات والمطالبات برفع التدقيق. ولأن الرواية قرأتها فئة واسعة وانتشرت في مدة قياسية، كَتبَت جموع الناس عن كذب الإدارة وتزويرها حقيقة ما يتناوله النص، وأنه خلاف ما اتهم به، وبدت الدهشة العامة هذه المرة فريدة من نوعها كأنه أول كتاب يُمنع لأسباب لا تمت إلى موضوعه بصلة. اشتعلت الصحافة على غير خطها السالف، وشرعت بعضها صفحاتها الأولى بصورة ضخمة لغلاف الرواية، وأخرى عرضت المسير السابق للجماعة المناهضة على أنه الحدث الآني. القضية صارت وطنية ومعارضتها انتحار على جميع الأصعدة. ألقت المُغامِرة خطبة نوعية في ندوة عامة أقيمت

بجوار مبنى البرلمان جاء في صلبها: "نحن هنا لنزعجكم، لنؤرق ممارساتكم، لنكسر حواجزكم، لنسأل ما لم يُسأل عنه، ولنقلق كل السلطات على حد سواء... أنا والشاعر والرسام والمصور والقصاص والنحات كلنا هنا لننطق عن الصمت لا لنغدو آلة تصفيق. نحن على هذا الكون لنحرككم، ولنبحث عن العلل والثغرات ولنُكسب المجتمع مناعة صلدة رصينة، ولنحسن بصيرة الدولة، نحن رئة الناس. وشرطُنا..."، ثم بدت رجفة خفيفة في صوتها، "شرطُنا الحرية. المبدع ليس مخيراً في ألا يكون حراً، وأي عمل فنيّ يجري ترويضه ليوافق معايير المجتمع يتخلى عن صميمه الأصيل. الحرية هي المحرك لوجودنا، فإما أن تتركونا وكياننا وإما أن نلجأ إلى القضاء الدولي". وبدأت الجماهير الهتاف والتأييد.

ثم قالت: "لكنكم لن تستطيعوا التخلص منّا، وأن تجعلونا لا نكتب، لا نرسم، لا نمثل، لا نغني أو نفكر. ولو تم إدراجنا في قوائم الكفر وأجندات القتل ومرصاد السجن. أنا أتحدث إلى الشعب، فماذا فعل برلمانه الذي اختاره للحرية والثقافة؟ إن هؤلاء لا يتحركون وفقاً للمبادئ، بل لمطالب الغالبية فقط، فها نحن أقليّة مسحوقة الحقوق. لقد مُنعت الروايات بتهم التفرقة بين أفراد المجتمع، وإثارة الفتن، وتأجيج الناس، وخدش الذوق العام... لقد أصدروا حكمهم القاضي، دون قاضٍ، ولا دفاع، ولا جريمة".

من تلك اللحظة، بالتحديد بدأت مسيرات الاحتجاج تنطلق يومياً من إدارة التدقيق إلى مبنى البرلمان، بمشاركة عدد من الروائيين والشعراء والدراميين والمسرحيين والممثلين. هذه المرة بدت

قوى ثقافية حقيقية، والتحق بهم بعض المتسلقين والمنافقين أسوة بآخرين مؤمنين بتلك المطالب، وعموم الناس والقراء والناشطين في المجالات الفنية والثقافية من صحافيين ومتابعين، وانضم إليهم حقوقيون ومحامون وآخرون. استمر الضغط على مدى سبعة عشر يوماً: مسيرات متسلحة بالغناء والخطب والمحاضرات. كان صاحبنا المدقّق يشهد المسير عبر جسر مشاة يقطع الشارع الرئيسي الذي تقتاده الجموع للوصول إلى نقطة النهاية. يجلب كرسيه ويجلس يقرأ في كتابه ريثما تهل أساريرهم، فيتوقف ليتأمل الحدث. يحشد مشاعره ويحدد موقفه، ولا ينصرف إلا بعد تلاشي آخرهم. يوماً بعد آخر اكتشف أنه يردد وراءهم ويغني أغانيهم.

في تلك الأثناء، ظهرت مسيرات أخرى مضادة ومقاومة، من تلك التي تحَدّث عنها المسؤول إلى موظفيه الذين يطالبون بوجود الإدارة ويؤيدون دورها الفعال، ويقولون: يجب على الروايات إيصال أفكار حميدة وإلا فهي مضيعة للوقت، والفنون فيها من المفاسد أكثر من المنافع. في يومهم الأول، نفذوا مسيرة مشابهة محاذية للأخرى، ينشدون كلماتهم، ويحاولون استدراج الآخر للوقوع في سلوك مشين. رجل من هنا وآخر من هناك كادا يتشابكان بالأيدي لولا تدخل العقلاء خصوصاً من الطرف الأول الذي لم يشأ أن يشوّه مطالبه بتلك التصرفات المتهورة. ولعل المسيرة الثانية أرادت لهم أن يَظهروا بصورة المخرب الذي يريد تدمير أمن واستقرار الأوضاع. بعض القنوات التلفزيونية استغلت وجود طرفين متخاصمين، وأجروا مناظرات تلفزيونية، وبدا جلياً أن بعض الصحف تميل إلى طرف

على آخر، كما أن أعضاء البرلمان أيضاً انقسموا: بعضهم انضموا إلى مسيرة المعارضين وآخرون إلى جماعة المؤيدين. أخذ كلاهما حصته في طرح أفكاره وأسبابه، وأخذت الحكومة موقفها المراقب لمجريات الأحداث، ولم تحدد قرارها حتى بعد كل تلك الأيام التي مضت بأحداثها وضجتها، لكن الأمر الذي فصل في المسألة وجود وكالات إعلامية إقليمية وعالمية جعلت من الروائية المُغامِرة بطلة لأسباب ما يحدث وما تتجه إليه البلاد، وهي الفائزة بالجائزة البارزة المحتفى بها، وأن حظر رواية غدت قِبلة للقراء في مختلف أنحاء الإقليم فضيحة لبلد المؤلف، خصوصاً أنها منعزلة ومنزوية مثل أقرانها، وليس لها ممارسات سياسية، ولا تميل إلى قوة حزبية، بل على عكس هذا، الروائي الفارس على سبيل المثال طالب أعضاء البرلمان الذين يناصرونهم ألا يكونوا معهم في المسيرة، فإن كانوا صادقين، فليؤدوا دورهم النيابي كما كلفهم الشعب وكفل لهم الدستور، وهذا أحرجهم جداً ودفعهم إلى تقديم طلب لمناقشة موضوع إدارة التدقيق بصفة عاجلة.

بعدما أخذت الأخبار بالاتساع على نطاق عالمي، أحس رئيس الحكومة أن هناك ضغطاً إعلامياً دوليّاً، كما أسرّ له أحد معاونيه بأن استمرار صمتهم يضعف موقفهم وقوتهم، فبادر باستدعاء الروائية المُغامِرة ومن معها ممن تصدروا المشهد والمطالبات، واستمع لهم جيداً، وكان يطلب من شخص بجواره تدوين كل الملحوظات التي تطرقوا إليها، وأبدى لهم موضحاً أن دستور البلاد يخضع لنظام يسن القوانين عبر الشعب في البرلمان، وأنهم لا يستطيعون التفرّد

بالقرارات. وعلى العكس مما هو قائم، هم بصفتهم جهة تنفيذية يرغبون في إزالة كل ما يقف عقبة في طريق الحريات. وشدد في كلمة أبوية على حسن اختيار من يمثلهم. ثم طلب منهم أن يكفوا نشاطاتهم بعدما وعدهم بالاهتمام بالأمر، ولينتظروا ما سيحدث في الأيام المقبلة. لم يناقش أحد الحضور رئيس الحكومة ما دام يميل إليهم رغم حرصه على دس فكرة أنه لا يملك الصلاحية المطلقة في إزالة أو إقامة أي شيء دون الرجوع إلى الجهة التشريعية.

في الأسبوع التالي، دعا رئيس البرلمان لجلسة طارئة من أجل مناقشة مشروع قانون لإلغاء تدقيق المنشورات المطبوعة، وبعد مداولتين من التصويت أجمع الأعضاء على إنهاء حقبة حظر الكتب.

٦

مكتبة
t.me/t_pdf

سَجل المدقّق ملاحظته: "الأهداف إذا لم تُعِقها عوائق، لا تغدو أهدافاً بالمعنى الدقيق".

بعد إلغاء حظر الكتب، غاب المسؤول عن العمل بحجة اجتماعات طارئة ومتواصلة مع مديري الوزارة وقياداتها لمناقشة الأحداث الماضية وما لها من ترتيبات لاحقة، الأمر الذي أسفر بطبيعة الحال عن تعليق العمل. انكب المراجعون على الإدارة بعضهم يودون معرفة مصير الكتب التي أودعت أخيراً ولم يصدر حيالها قرار، والآخرون يستفسرون عن مآل تلك التي مُنعت في السنوات الماضية. لم يحصلوا على رد. هذا متوقع وسط أحوال عارضة وجديدة، ولا تتوفر حتى اللحظة أي إجابات يقينية. بفعل الصدمة، لم يثق أحد بجديّة تنفيذ القرار. كل الكتب وضِعت في خزانات خاصة وجُمعت التقارير الحديثة في صناديق لإرسالها إلى محرقة النفايات.

لسبب ما، تذكر المدقّق رواية الولد الذي ماتت أمه مباشرة بعدما أنجبته تحت عربة بيع سمك، ثم غدا أشهر عطار في التاريخ بعدما

أتقن صنعته بفطنة سريعة، وبزغت مهارته النابغة التي قادته إلى التركيبة العطرية الأسمى والمستخلصة من عبق الفتيات اليافعات. هلّت الراحة على وجوه الموظفين، وصاروا أكثر سكوناً، وشاعت أجواء مطمّئنة تنم عن انقضاء مرحلة عصيبة، والانتقال إلى أخرى غائمة غامضة. انتهت الحرب، ودسّ كل مدقق سلاحه في خزانته، وفرغوا لشرب القهوة وتعاقب إشعال السجائر، وتبادل الحكايات الكامنة طوال سنوات عمل صامت في قراءة الكتب أو الأحاديث المقتضبة. وجد صاحبنا صعوبة في تقبل الوضع، وبدأ يشعر باختلال داخلي رغم الاستراحة الجبرية للجميع. بدا وحده يفتح الكتب التي يجلبها كل يوم من بيته، ويواصل نشاطه المعتاد غير مبالٍ بالتحولات المستجدة. ألقى بعضهم تعليقاً متهكماً عليه، فيما لم يحاول الآخرون إيضاح طبيعته وسبب الإصرار على مواصلته القراءة. في الأثناء، يصارع المدقّق للمحافظة على تركيزه وسط ضوضاء الأحاديث والحركة المستمرة في الإدارة، إذ ما عادت لتلك الخصوصية أيّ أهمية؛ اختلط موظفو الأقسام وصارت المكاتب عرضة لكل شخص يرغب في مجالسة الآخر بسبب أو دون سبب، بعدما كان على الموظف أن يهمس ليتحدث إلى زميله دون أن يتنصت عليه أشخاص الغرفة المجاورة. صار لزاماً على الفرد أن يزعق كي يتسنى للآخر سماعه. وفي مرة، حين كان المدقّق يكابد للانسجام في القراءة، أغلق أحدهم كتابه بحركة مفاجئة: "منظرُك يجلب الكآبة والإحباط". تضايق جداً لكنه تدارك نفسه واحتوى غضبه. لم يعر لذلك التصرف أيّ اهتمام. واصل المطالعة، لكنه بدأ

يتعمد ترك الكتاب بين حين وآخر، فيتحدث إلى هذا وذاك لتحقيق نوع من التوازن حتى يحافظ على مزاجه.

بعد مضي أكثر من أسبوع، عاد المسؤول، وعقد اجتماعاً عاماً لموظفيه كافة. كان منهزماً وضعيفاً، وشعيرات لحيته نمت بإهمال، وبرزت هالتان سوداوان أسفل جفنيه. كان يتحدث ببطء وفوضوية. بدا حزنه موغلاً وطافياً في آن. لقد أمضى أهم سنوات عمره في هذه الوظيفة، وها قد جاء اليوم الذي يعلن خسارته ورهانه الدائم على هيمنة تدقيق الكتب وحظوتها. أبلغ الجميع باقتضاب بالغ أن يجمعوا ممتلكاتهم الشخصية للانتقال إلى مبنى الوزارة الغربي اعتباراً من الغد. ثبّت أحدهم ورقة تحوي فرزاً خاصاً لكل قسم عند مدخل المبنى. وجد المدقّق اسمه وقد نُقل إلى إدارة "الرد على الخطابات الرسمية". لم يحرك هذا أي عاطفة داخله. إنه لا يعرف أي شيء عن طبيعة عمله الجديد لكنه بالتزامن مع كل ما يجري شَعَر بفراغ قاحل يجتاح قلبه وتشتّت جامح، كأنه انتهى من قراءة آخر كتاب في الوجود. شعر بأنه ينزوي ويختفي. لم يكن متأكداً تماماً من مصدر هذه الأحاسيس. قد تكون بسبب زملائه والقراءة أو الوظيفة نفسها التي كانت تمنحه الوجود، وربما المبنى الذي سينتهي به الأمر إلى الهدم.

في ذلك الأسبوع، رأى نفسه في أحد مناماته داخل شقة تخصّ الروائية المُغامِرة. كانا يجلسان وحدهما وأخذت تشده من ذراعه وترجوه بغنج كي يأتي إلى غرفة متوارية عن المشهد. أدرك أن الحلم يخبره عن علاقة حميمة تجمعهما. بدت ليلتها سعيدة فاتنة ومتفتحة

مثل زهرة، ثم مضت إلى غرفتها واختفت عن الصورة إلا صوتها الذي ينادي: "تعال! تعال!" نهض من مكانه ليلحق بها لكن رجليه تجمدتا في مكانهما. "تعال! تعال!" واستيقظ حينئذ متأثراً مما رآه كأنه لا يزال يسمع صوتها. أحس بحالة إعجاب حقيقية حيالها، في حين استغرب جداً مما يحدث له، فالمُغامِرة لم تكن في نظره سوى روائية رصينة لكنه بعد ساعة نفض كل مشاعره الواهمة وبدأ يستعيد ما رآه متوغلاً في حلمه الزهري، ولسبب وجيه، رأى وجه محبوبته. أسرَّ لنفسه متسائلاً: "هكذا يخون الرجال؟" في مساء اليوم التالي، أفضى لأخته بتردد وخجل: "حلمت بها البارحة". تساءلت بتعجب عمن يقصد، فاستنكر تساؤلها، ثم أضاف: "زينة". هزّت رأسها آسفة دون أن ترد. في المقابل، لم يعلق المدقّق حيال رد فعلها، واكتفى بتنهيدة حزينة متألمة. كانت أخته ترتب خزانتها لتبديد الملل، فقالت: "صدقني! هذه الفتاة لا تناسبك". حدّق فيها منتظراً إضافة أخرى: "هناك أُخريات أفضل منها". كان مستاءً إثر إصرارها وثقتها، وقال بما يشبه التوبيخ أن تكف عن أحكامها الجازمة. التفتت إليه: "أعرفك وأعرفها". ردّ بغضب: "لكنك لست أنا ولا هي". ضحكت وقالت: "أنت تحب الفتيات ذوات الشعر القصير". ثم تعالت ضحكتها. وبعد ثوانٍ استدركت فعلها عندما وجدته لم يبادلها الأمر. استعادت توازنها وأردفت: "إنك لم تلتقِ بغير زينة. لو خرجت، وتسكعت هنا وهناك، لوجدت غيرها". لم يقل المدقّق إنه على علاقة بمئات الفتيات منذ صغره حتى الآن. يعرف أنه سيبدو أبلهَ لو أخبرها أن في الكتب نساءً أكثر من الرجال

لكنه لم يجد نفسه مرتبطاً بغيرها.

القراءة حجة المدقّق وحاجته. منذ الصغر، حين كان لشعور الحب مرادفات الانتصار وسمات الأبطال، لا يحق للضعاف والأشرار أن يظفروا بفتيات جميلات ورقيقات. زينة بنت هادئة نحيفة شعرها قصير ملامحها دقيقة. تزور أخته نهاية كل أسبوع. "ناعمة"، هكذا وصفها حين رآها أول مرة. لم تفهم أخته مفاد وصفه ذاك. "ماذا تقصد؟" لم يعلّق في ذلك الوقت، وبسبب ارتباكه وتوتره من جرّاء السؤال، آثر أن يخفي إعجابه بها، واحتفظ بكل مشاعره التي تجيش وتهيج كل مرة يراها. زينة الوحيدة التي تمكنت من هزيمة القراءة. تجعله يمسك بكتابه طوال الوقت دون أن يطالع منه حرفاً واحداً. لقد عطّلت آلته وأخلّت بحساباته وزعزعت حياته. كان في الرابعة عشرة عندما مسّته تلك المشاعر أول مرة. أما هي، فكانت تصغره تقريباً بثلاث سنوات، ومنذ ذلك الحين أصبحت كل فتيات الروايات الجميلات زينة، وليس في مقدور مخيلته أن ترسم غيرها. مع أنها صديقة أخته، وفُرص التقرب منها سانحة وكثيرة، فإنه يجدها صعبة، عسيرة الوصل، بل شَعر في لحظة أن من المستحيل بلوغها.

قالت لي: "تعال إلى غرفتنا". كانت الشقة تبدو مثل مكتبة. أما هي، فلَم تَظهر في الحلم بشكلها الذي أعرفه. ارتدت ملامح الروائية المُغامِرة. لكنها احتفظت بشعرها القصير. بدت فَرِحَة وزاهية مثل جناح فراشة. لكن من هي المُغامِرة؟ ألقت أخته سؤالها الذي لم تنتظر إجابته: "قد تكون المعنيّة بالحب؛ راجع كتب تفسير الأحلام". لم يرد المدقّق. الصمت مرادف للإصرار في بعض الأحيان لكنه لا

يستطيع إنكار افتعاله هذا السكوت اليائس. في هذه المسألة بالذات، يجد نفسه مترنحاً في قراراته. يقول: "لا أريد أن أبدو لحوحاً، هذا يعيدني إلى الصفر، إلى السلوكات الغبية الضعيفة". إن الأشياء لا تُستَدرج من تلقاء نفسها، كل ما يدور في رأس المدقّق هذه الأيام سببه افتقاده وظيفته، وإن أنكر ذلك بنفسه، وقد تعمقت هذه المشاعر أكثر بعدما انتقل إلى مقر العمل الآخر. مبنى الوزارة الغربي حديث الإنشاء. المكاتب والكراسي ما زالت مغطاة بالنايلون، والأرضية من الموكيت السميك الذي يمتص وقع الأقدام، والحواجز من الألمنيوم والجبس، وأجهزة الكمبيوتر جديدة. أما مضمون عمله، فيقتصر على كتابة الرسائل الرسمية لمخاطبة الدول الأخرى أو الرد عليها، ومن الوارد جداً أن يتخلل هذا العمل ساعات كثيرة من الفراغ لكن المدقّق لم يعد بإمكانه استغلالها في القراءة، ولأسباب كثيرة، ربما في استطاعته تجاهلها أو تجاوزها، خصوصاً أنه أبدى قدرته الفائقة في صياغة الرسائل والخطابات الرسمية التي لم يواجه أيّ عقبة كبيرة في إتقانها، لكنه قرر أن يتوقف عن ذلك منذ عَلم بأن سلوكه لم يعد مقبولاً عند بعضهم. راح يدوّن ملاحظاته التي ابتدعها منذ مدة، وشغل الأوقات السانحة بالكتابة، ولاحظ تدريجياً أن عمله بدأ يتحوّل من القراءة إلى الكتابة. بعد مضي وقت وجد نفسه محاطاً بالكلمات الجامدة الثقيلة وبدأت صيغة الجَمع في حواراته تتغلب على شخصيته، حتى صار حين يتحدث إلى أمه تفلت منه بضع عبارات بيانية، فيقول لها: "حان موعد عشاء سيادتكم. أرجو من المولى أن يمدكم بالعافية. تقبلوا أسفنا وتقديرنا". بعد مدة شعرت والدته

أنه يعاني من ضغوط نفسية واقترحت عليه أن يتقدم بطلب إجازة طويلة. لا يُخفي المدقّق تأثير انغماسه الشديد في صياغة العبارات المُفخّمة ومبالغات الوصف الخالية من العاطفة التي بدأت تصيبه بصداع عارض يشق عرض رأسه من مقدمته حتى قمته، خصوصاً بعدما فشلت فحوصه الطبية في الكشف عن سبب عضوي لهذا الألم المزمن. المهدئات والمسكنات أفضل الحلول المتوفرة، ولم يتناول منها قرصاً واحداً. كتب ملاحظته في هذا الجانب: "يفضّل الإنسان أن يعيش في وهم على أن يواجه الحقيقة". أما الذي قاله لأمه ولم يكتبه: "هذه الأدوية تسبب لي الخدر والخمول والنوم وهدراً للوقت الذي سينتج عنه شعور بالإحباط والاكتئاب". ثم ألقى مباشرة كل وصفات الطبيب في سلة المهملات.

المدقّق مقتنع تماماً بأن مرض الكلمات علاجه الكلمات. ومنذ مدة طويلة تراوده فكرة كتابة رواية؛ الحكايات التي يشاهدها في أحلامه كفيلة بخلق أجواء سُريالية سحرية. مخزون المفردات وثروة المعلومات في إمكانها أن تسفر عن عمل جيد لكنه أيضاً على وعي تام بأن هذا المزيج ليس بالسلاح الكفيل صناعةَ متن أدبي عظيم. ولا يمكن لشخص مثله أن يتجاهل الكتب التي تناولت الأساليب السردية، أو الكتابة عن الكتابة، وتلك بطبيعة الحال تزعزع ثقة الأفراد، حتى أولئك الذين خاضوا هذه التجربة من قبل. كل يوم، وبعد أن يرخي رقبته على الوسادة في الفراش، يتخيّل مطلع رواية من الممكن خوضها. تحضره طفولته، وبضعة أحداث منسية، أو جملة عالقة منذ زمن طويل، أو حدث غريب جرى له. تغزوه حيرة

البدء: كيف يتحقق الروائي من نقطة انطلاقه؟ يتساءل عن لحظة تجلٍّ عفوية خالصة. أحياناً يقفز من سريره ويتوجه إلى مكتبته. يفتح رواياته المفضلة. يستعيد مطلع عمل يصوّر فيه البطل، وهو شخص ميّت، مشهد مقتله، بعدما ألقاه القاتل في بئر وتفتت رأسه في قاعه، وقد مضى أربعة أيام على غيابه، وما زالت زوجته وأولاده يبحثون عنه. يغلق الكتاب ويلجأ إلى آخر يعرض مشهدين ممزوجين في البداية ما بين ابتهال أهل قرية فقيرة تطلب الماء من السماء، وشخص ألقى بدلو في بئره، فارتطم بجسم صلب أثار غرابته، وبعدما نزل ليستطلع الأمر وجد جسد فتاة مراهقة. يستغرق المدقّق دقائق قليلة مع كل كتاب يريد تذكر بدايته، لكن سحر المفردات المنتخبة بعناية فائقة تجعله يكمل القراءة حتى يدرك أن عليه الانتقال إلى آخر، لكن الرواية التي تصف في مطلعها لوحاً معدنياً كُتب عليه اسم إدارة حكومية خاصة بسجل المعلومات المدنية لجميع الأفراد، الأحياء والأموات، حفّزت خياله على نحو غير معتاد. منذ مدة بعيدة جداً كان يراوده مشهد نافذة كبيرة مسيّجة بقضبان. تنطلق القصة من هنا، نافذة وقضبان، الشمس ساطعة ومائلة لجهة الغروب. نخلة رفيعة مخضرة. ماذا بعد ذلك؟ يجلس في عمله أمام جهاز الكمبيوتر ينظر إلى صفحة صماء ساعات. يتراءى لبقية الموظفين أنه يستعد لكتابة خطاب تهنئة أو رد جزيل لرسالة واردة، لكنها، على نحو أسبوع كامل، ظلّت مراوحة ما بين جملة يكتبها ويشطبها.

المدقّق حكواتي جيّد، وهذا ليس من قبيل المجاملة بتاتاً، بل على عكس ذلك، ربما يجدر القول إنه بارع، فخياله خصب، وهو قادر

على خلق مناخ ممتاز ليفرغ مخزونه الكامن. في مطلع المراهقة، حكى لصديق جديد في المدرسة عن صفات أخيه الأصغر. قال إن قامته أقصر من عمره، ووجهه مستدير أبيض، وشعره أجعد، وهو عنيد شقيّ يجلب المتاعب إلى نفسه والعائلة، وراح يتحدث عن مواقفه التي لا تنسى مثل صعوده سطح منزل قيد البناء بوساطة سطل نقل الإسمنت من الأسفل إلى الأعلى، وجرأته في دخول المنازل والمرافق المهجورة، وضربه كلباً تهجّم عليه بقبضة يده العارية، وعن الليلة التي اختفى فيها تماماً دون أن يخبر أحداً وانشغل الجميع في البحث عنه حتى الفجر، وبعدما دبّ الخوف في قلب أمه وبكت بحرقة وجدوه نائماً في غرفة صديق يسكن على بُعد ثلاثة منازل منهم. لم يكن في مقدور صديق المدقّق أن يشك في حقيقة قصصه، فهو يحبكها وينسجها بطريقة منظمة، ويعيش لحظة قصها، حتى أبدى الصديق تشوّقه للقاء أخيه، ولم يشكّل هذا مأزقاً للمدقق، إذ قال له بعد يومين إن أخاه يتلكأ كل مرة يدعوه للتعرف إلى أصدقائه، لكنه في إحدى المرّات بعد انقضاء اليوم الدراسي، وبينما كان يسير برفقة صديقه قبل أن يفترق كل منهما إلى منزله، قال له: "انظر! هناك يقف أخي عند المنعطف البعيد". ولمّا أمعن في المكان المقصود، أخبره بأنه هرب من فوره عندما لمحهما، وراحا يهرولان بغيّة اللحاق به، لكنهما قبل أن يصلا توقف صديقه لبُعد المسافة، ولأنه تعب ويحتاج أن يعود إلى البيت. لم يعر المدقّق أيّ اهتمام لو شك صديقه في مصداقية حكايته، أو اكتشف كذبته بعد حين، ولم يكن هذا الأمر شاغِله إطلاقاً. هو لم يكذب بتاتاً، وهذه الأشياء حدثت،

وإن لم تكن كذلك، فستحدث يوماً ما.

إنه يملك الجرأة في خوض تجربة جديدة، ويثق بقدراته الخاصة، لكنه قلق بشأن الخطوات الأولى، ومتوتر بسبب تقلّص أوقات القراءة بالتزامن مع قرار الكتابة، وتساءل مراراً هل توهج الكتابة داخله الآن يعود إلى إحساسه الخاص بالفراغ، وهل ممارسة مغايرة ستشعره بالامتلاء، أو لكونها المهرب الوحيد من تبلّد وظيفته الجديدة. لعلها الفرصة الملائمة التي انتظرها منذ زمن بعيد، وهذا التحوّل سيدفع به نحو عالم آخر، فهو لم يعد مدققاً بعد الآن، وليست هناك أي تحفظات على مفردات وأفكار، وبإمكانه كتابة ما يريد دون حرج. ربما يحتاج الكاتب المبتدئ مشورة مؤلفين مخضرمين ونصائحهم. فَكّر أن يحضر ندوات متخصصة، أو دورة في فن كتابة الرواية. وقد دوّن في هذا الشأن ملاحظة مهمة: "على الإنسان التوقف عن ممارسة أي عمل حتى تخمد عواصف رأسه". ويخلص إلى هذه الأفكار غالباً في المطبعة التي صارت تعمل على مدار اليوم منذ قرار رفع حظر الكتب. كل الأشياء من حول المدقّق تدلّ على أن هناك تغيّرات كبيرة مقبلة. الأحداث الماضية ونتائجها روّجت لسوق تأليف الكتب، وأحدثت طفرة غير مسبوقة لأرباح المطابع، ونشرت صحيفة إحصائية تشير إلى زيادة ملحوظة في نسبة إنتاج المطبوعات الأدبية والعلمية خلال ستة شهور تجاوزت ثمانين في المئة من الناتج السنوي العام، وطرحت أسماء إعلامية وسياسية واقتصادية كتبها الخاصة، كما انتشرت ورشات العمل والمحاضرات والحصص التعليمية، وشهد السوق افتتاح عدد كبير من المكتبات، وراح بعضهم يدشّنون أفرعاً

جديدة في مناطق مختلفة. لا يستطيع المدقّق التوقف عن مراقبة كل ما يجري، ويحاول قدر الإمكان أن يسيطر على أفكاره وحالته النفسية التي افتقدت استقرارها منذ حين حتى صار يستهلك عدداً كبيراً من أقراص المعدة جرّاء هجوم الأحداث المتوالية المتسارعة.

بعد عام عاد بعضهم ليؤكدوا خطأ الحكومة في تجاوبها مع الإعلام الغربي واتخاذها ذاك القرار الذي سينعكس سلباً على أفكار الأجيال اللاحقة، فالعناوين ذات الإيحاءات الجنسية بدأت تتصدر رفوف المكتبات، والكتب التي تسيء إلى الدين وثوابت المجتمع صارت في متناول الجميع، وقصص الأطفال صارت مبنية على أسس تجارية صرفه وتخلّت عن أدوارها التربوية. هذه قنابل موقوتة، وسيأتي الوقت الذي نعض فيه أصابع الندم على ما اقترفناه. ولأن الخُطب الجماهيرية غالباً ما تكون مليئة بالعبارات التقليدية المملة، لا يستطيع المدقّق أن ينصت إليها حتى النهاية. ربما تكون هذه ردود فعل متوقعة حيال السعادة العارمة عقب انتهاء معرض الكتاب الدولي الذي حصل على ثناء كبير وشهد توافداً عظيماً من الزوار، كما أقبل عليه الناس من الدول المجاورة والقريبة. هكذا، تتوالى الظواهر الجديدة بكل ما تتسم به من نظام وفوضى دون أن تعير أيّ اهتمام بما تخلّفه في نفس المدقّق الذي يفشل غالباً في إخفاء تأثيرها فيه خصوصاً عند أمه التي تُغرقه بأسئلتها القلقة، والتي تدفعه إلى التركيز على عمله في المطبعة لكونها الحالة الماثلة بالنشاط والازدهار من كل ما يجري. "انظر كيف يساندك الله ويعينك، تأمل في خطاك الموفقة، لعل هذه الأحزان مدعاة أفراح لاحقة". لم يقل لوالدته:

ما من أحزان في قلبه، كما لم يؤكد لها مذهبها، لكن شعوراً متغلغلاً داخله ينمو ويتسع ويمدد جذوره ويشي بأن الأمور ليست كظاهرها. لعله الشك الأزلي لدى المدقّق حول جواز ثبات الاستقرار، وجزعه الغالب من الطوارئ والاستثناءات التي تزعزع سلامه الداخلي. لعل اعتقاداً راسخاً داخله يقول إن أي تصاعد خاطف يلحقه تدهور مدوٍّ، وما من دليل مؤكد على أنه دوّن ذلك ضمن ملاحظاته.

كل ما يعرفه الآن أن سنة كهذه محفّزة للكتابة لكنها لا تصلح للنشر، فالاستعانة بالصبر واجبة، والتأني صفة مرابطة ومعينة على إنجاز مشروع حقيقي، خصوصاً عند بدء تكوين الفكرة، لكنه بعد التسلح بالخيال والخبرات أنهى شهراً كاملاً ليخلص إلى سطر واحد في صفحته الصماء.

***

I

"من الخارج، في الإمكان مشاهدة النافذة المستطيلة والمسيّجة بقضبان من الألمنيوم في الطابق العلوي. الشمس في ذروتها من العصر، قبل بدء انصرافها التدريجي. فتحتُ النافذة ممسكاً بحذائي في يد، وبالأخرى أزيح أحد القضبان الذي انسحق السائل المثبت لقاعدته السفلية بفعل حرارة الطقس ومحاولاتي المتكررة. بحذر شديد، استطعت أن أعبُر برأسي، وتبعه جسدي الذي انزلق بانسيابية إلى الخارج. هناك حافة بارزة بامتداد عرض البيت يتسنى لي الثبات

عليها. أغلقت النافذة ببطء، ثم ألقيت بحذائي في المحيط الطيني حول النخلة التي تحرس الحديقة حتى لا يصدر عن ارتطامهما صوت مسموع. تمكنت من الاقتراب إلى الزاوية المخالفة للنافذة بمساعدة القضبان الأخرى المتماسكة والممتدة باتساعها. صار من السهل عليّ القفز فوق مظلّة السيارات القريبة، ومنها إلى الأسفل. ألتقطُ أنفاسي قبل أن أنفض التراب عن ملابسي، وبحركة آلية، نظرت إلى النافذة مرة أخرى، وإلى البيوت المجاورة. أرهفت سمعي. كل الأشياء مستغرقة في قيلولتها.

ارتديت الحذاء كيفما اتفق، ثم قطعت الشارع إلى الجهة المقابلة، ومضيت محاذياً سوراً عالياً لمبنى ممتد إلى نحو أكثر من مئة متر. بين كل عشر خطوات وأخرى أنظر إلى الخلف باتجاه البيت، تجتاحني مشاعر التوتر والارتباك، في شارع مكشوف على مرأى الجميع، القريب والبعيد، من وقت نهار ساكن يُسمع فيه وقع خطوات العابر. لهيب الداخل والخارج يسيّل العرق من رأسي حتى أسفل ظهري. لم يكن قيظ النهار أكثر قسوة من القلق والتشويش اللذين يشغلاني. أُسرع الخطى محاولاً التخفي عن أنظار محتملة من أحد قاطني المنطقة. أسابق حلول الظلام ويقظة أعمدة الإنارة. أَصِلُ إلى ساحة ترابية مترامية، تلك التي تفصل المنطقة بين ضفتها السكنية إلى الأخرى التجارية، ومن جهة سكن العائلات، إلى شقق العمالة والعمارات الاستثمارية. بدأت أشعر بالاطمئنان. لم أعد أنظر إلى الوراء من جديد، واختفى تَوقّد القلق في قلبي. وقفت قرب محطة الحافلات أنتظر لحظة عبور سانحة. الشارع الفاصل بين الضفتين هائج دوماً. تمكنت من الانتقال إلى الجهة الأخرى بعد انتظار دقيقتين على الأقل. هناك حيث الأرصفة المهشمة، والسيارات المتكدسة تحت البنايات العديدة المتجاورة. يصعب السير بانتظام. لا بدَّ من مراقبة موقع الأقدام، ما يضطرني

وبمشيئة الطريق أن أصعد وأنزل أدراج المحلات المحاذية للشارع، وأتفادى عقبات أخرى. حجر كبير ملقىً، أكياس إسمنت مصفوفة لمبنى قيد الإنشاء، إضافة إلى عوادم الحافلات الخانقة. أصلُ إلى فاصل رملي يشقّه سيل مياه يخرج من مكان ما، يُشّكل معبراً وَحِلاً يضطرني أن أنزل عن الرصيف إلى الشارع الأسفلتي لتفاديه، حذِراً من تدفق السيارات المجنونة الآتية من الخلف. وبعد تجاوز محلات أدوات الكهرباء ومكتب السفريات ومعدات البناء، وقبل أن أصل إلى الصيدلية ومحل الأدوات الصحية وكراج الميكانيكي، هناك زقاق ممتد بين بنايات سكن العمال يختصر المسافة.

أخوض في طريقي بحذر. المعبر ترابيّ، وعلى بعض الجوانب القريبة من جدران البنايات حشائش. لا بد أنها نبتت من جرّاء تفريغ مياه غسالات الملابس التي توضع عند أبواب الخروج، التي يستخدمها قاطنو المبنى بالتناوب. وبعد أن أمضي إلى منتصف الزقاق، تنبعث من الشبابيك رائحة طهي طعام غير جيدة إطلاقاً، خصوصاً أنها تختلط وروائح الصرف الصحي ومكبات النفايات القريبة، ما يجعلها مثيرة للغثيان. أسعى يائساً أن أصرفها بكل الطرق. أُغلق أنفي وأغطي فمي حتى ينفرج الطريق المفضي إلى شارع البنايات الخلفي. أيّ شخص بإمكانه ملاحظة الاختلاف بين الأوضاع في الواجهة ومن خلفها. الطريق مستوية، والضوضاء أقل، والروائح مقبولة جداً. أمضي في الطريق حتى أصل إلى مدرسة قريبة. أنعطف إلى اليمين محاذياً سورها إلى نهايته بعد أن ينكشف المكان، وأصل إلى ساحة كبيرة تظهر من ورائها المجمعات التجارية الضخمة. في مكان قريب، قبل خوض الأسواق المتكدسة والمنتشرة على أفق النظر، وفي مبنى يمكن ملاحظة تواضعه، بعد الجزّار ومطعم الفطائر، والعطّار، تأتي مكتبة صغيرة تبيع القرطاسية والدوريات. ها هنا مقصدي.

المكتبة التي لا يزيد طولها عن أربعة أمتار، بعرض مماثل، هادئة جداً رغم ضجيج الخارج. البائع مثلها تماماً، غاية في اللطف والنظافة والسكينة. يعرفني جيّداً، ويدرك أنني سأزوره في مثل هذا الوقت من الأربعاء. تنتابني رعشة بعد ثوانٍ من دخول المكتبة. ربما بسبب برودة المكان بعد ما نالت مني حرارة الشمس، أو من فرط الحماسة، وممكن جداً لأنني وصلت في الوقت المناسب دون عقبات مُفاجئة. أحب رائحة القرطاسية. أستنشق عبقها قبل أن أبتسم للبائع وأحييه. وهو بدوره يلتقط من مكان قريب على الأرض نسخة عن مجلة مغلّفة بكيس نايلون. يقص شريط رزمتها ويمدها إليّ قائلاً: "أول واحد". فوراً أدس يدي في جيبي وأدفع له قيمتها، ثم أعود مرة أخرى من الطريق نفسها بكل ما فيه من مراحل ومحطات، لكن بحال ومزاج مختلفين. فبعد كل عشر خطوات وأخرى ألقي نظرة على غلاف مجلة الأطفال الشهيرة. أقرأ عناوينها والمختصرات المشوّقة لقصصها بشخصياتها المعروفة. لم أحاول يوماً نزع غلاف النايلون عن المجلة أثناء الطريق، بل لا أفعل هذا حتى عندما أقرأ القصة المطبوعة على ظهر الغلاف، التي غالباً ما تكون قصيرة وحواراتها قليلة، لكنها تضطرني أن أتوقف بضع ثوانٍ بسبب الاهتزاز الناتج عن خطواتي السريعة. أتأخر من أجل قراءة الجُمل بشكلها الصحيح لكنني أعيد قراءتها من جديد عند الوصول إلى البيت. أحب أن أطالعها بتمهّل ومزاج حسن. أمعن النظر في الرسومات وألاحظ خطوط الرسم والكتابة. لا أترك مشهداً من القصة قبل أن أمتلئ منه.

تخالجني مشاعر مضطربة طوال طريق العودة. شيء ما يتصارع داخلي. أرغب في مباشرة المجلة الآن، ويقلقني بدء انسحاب الشمس من وجه السماء، وتبزغ العوائق في كل خطوة. أصطدم بأحد المارة. تزل قدمي من على درجة. أدهس بقعة طينية وسط طريق جاف. كل

تلك العثرات لا تزعجني، فكل حواسي موجهة على نحو آلي باتجاه البيت. ولأسباب عدة، أشعر باطمئنان بعد اجتياز الشارع الفاصل بين ضفتي المنطقة، وعلى قدر الراحة يتسلل إليّ قلق الأمتار الأخيرة والمحطة المتممة لرحلتي. عندما أصل إلى السور العالي، أُخفي المجلة في ملابسي خشية أن يراها أحدهم، الأمر الذي قد يجعلني عرضة للسخرية، وهذا وارد وطبيعي جداً. يرى الآخرون أن هذه المجلة لا تناسب عمري. إنها مجلة أطفال. لكنني أرفض هذا بتاتاً؛ إن هذه المجلة بالذات لا يمكن أن تكون للأطفال فقط، ولو كانت كذلك، تحمل قصصها ومواضيعها مغزى أعمق وأبعد مما يظنه الناس ومدلولات قد يستعصي استيعابها على بعض العقول، خاصة أولئك الذين لا يقرؤون. إنهم لا يستطيعون تهجئة كلمات أكثر من تلك التي على أغلفة الأشياء مستعينين بالمثل الشعبي المعروف. لا يمكن أن أتخلى عن مغامراتي واكتشافاتي من أجل الملل الذي يعاني منه الآخرون.

أبطئ حركتي عند الاقتراب من البيت. أتحسس الأجواء. أتخفى وراء سياج من شجيرات. أعرف أن الخادمة ستخرج في هذا التوقيت بالذات لتفتح الأضواء الخارجية. وبالتزامن مع اشتعال أعمدة إنارة الشارع، أجد فرصة للتسلل إلى الداخل. أسرع نحو غرفتي. أدير مفتاح القفل مرتين، ثم ألقي بنفسي مع المجلة على السرير بعد أن أنزع عنها غلاف النايلون.»

***

استطاع المدقّق أن يعثر على رقم زينة في أجندة أسماء هاتف أخته. كانت خطوة جريئة جداً وفق قياساته الشخصية لكن الرقم ظل

بحوزته لأسبوعين على الأقل قبل أن يُقدم على خطوته التالية. لم يعرف كيف يخوض في الأمر. كان يخشى من رد فعل صادم. أنا معجب بكِ. أحبكِ. هل من الممكن أن نتحدث قليلاً؟ منذ زمن تغتالني حاجة التقرب إليك. أحبكِ. حين التقت عينانا. أرجوكِ امنحيني فرصة كافية. رعشة تستشري في أطرافي. أحبكِ... لم يكن متأكداً أي الكلمات ستكون مناسبة للشروع في علاقته معها؛ كان لا يزال مراهقاً غريباً على نفسه، رهيف الحواس، متطلع الأماني، مبعثر الغايات. خلص في لحظة حاسمة إلى أن يبعث رسالة نصية بيضاء خالية الحس: "مساء الخير". زينة الغامضة لا تفصح عما داخلها. بعد ساعة أجابته: "من؟" رد كهذا لا ينقل أي انطباع، لكن المدقّق شعر بأنها معبأة بالتعجب والحيرة. تردد كثيراً، وفكّر أن يتراجع، واستغرق في اتخاذ قراره. هي رميَة واحدة ونتيجتها مقدّرة بكل الطرق. كتب لها: "أنا...". لم يصدر عن الطرف الآخر أي رد. بعد نصف ساعة بعث مرة أخرى: "أود لو نتكلم عبر الهاتف". واصلت صمتها، ولما انقضت ساعتان، أدرك أنها اختفت. لم يجرؤ على الاستمرار. لم يكن يريد أن يشعرها بضغط وإلحاح. هل يفهم من هذا أنه رفض صريح؟ الحالة التي يعيشها، الأمل الذي يمتطيه، الخيالات التي تجول في رأسه، الحب الجيّاش في قلبه... كانت كلمة واحدة لا يملكها كائن في الدنيا سوى زينة، لتحلّق به في السماء أو تدفنه في بطن الأرض، لكنّها لم تطلقها، وتركته في عراء الأفكار تبتلعه الحيرة. كانت الليالي ثقيلة باردة بطيئة يزحزحها بكل ما يملك من طاقة. بدأ الأرق يرتاد سريره، وفي مرّات، لا يطبق جفنيه قبل طلوع

الشمس. عندئذ، استعان بأقراص المعدة أول مرة. مضى وقت حتى استعاد القليل من اتزانه، وفي أحد الأيام، كان يبحث عن هدية لأخته من أجل عيد ميلادها، فاشترى محفظتين من أحد المحلات الفخمة. أهدى أخته، وفي آخر اليوم، أعطاها الأخرى: "هذه لزينة".

لم تفهم في بادئ الأمر. "هدية باهظة الثمن، لماذا؟" "لأنك أختي الوحيدة، وهي صديقتك الوحيدة". لم تقبل حجته لكنها أدركت جدية مبتغاه، فقررت التظاهر بأنها لا تستنكر الأمر، لكنها حارت في ما تقول لزينة. بطريقة ما، وجدت أخته ذريعتها عندما أوصلت الهدية إلى صديقتها، في حين كان المدقّق ينتظر بترقب معرفة رد فعلها إزاء فعلته. بعد أيام قليلة أعادت أخته إليه هديته: "رفضت أن تتسلمها". كان شعوره بالإحباط هذه المرة أقل من سابقته. قالت له: "خذها! محفظة مناسبة للرجال أيضاً". وفي محاولته المكشوفة للتظاهر بأن الأمر لا يشكل له أهمية بالغة، قال: "أنت تستحقين بدل الهدية اثنتين". هذه المرة تيقنت أخته مدى عمق مشاعره وصدقها تجاه زينة. قالت لنفسها: "ليست بذاك الزهو والجمال. لا أعرف لماذا أُعجب بها". في تلك المدة تحديداً، كان المدقّق يقرأ رواية تحكي عن قصة رجل قرر بصفة عاجلة أن يغيّر حياته كلياً ويغادر مدينته إلى أخرى بعد حادثة مروعة كادت أن تودي بحياته، وتمثلت في سقوط تمثال ضخم يعتلي أحد المباني الشاهقة وتحطم على بعد سنتيمترات منه حين خطى استعداداً لقطع أحد الشوارع. وقبل أن ينهي الفصل الثالث فاجأته رسالة نصية: "شكراً على الهدية".

يحاول المدقّق أن يستعيد الكيفية التي جرت بها الأحداث بعدئذ

لكنه يشعر كأنها أجزاء فُقدت من ذاكرته. كل ما يعرفه أن تلك الرسالة كانت بوابة لحوارات مديدة، وانفراج على عالم أحلامه وسعادته التي لن تكون بغير اقترانه بزينة. علاقتهما آنذاك لم تتجاوز المكالمات الهاتفية بعد، التي تستغرق ساعات طويلة من لياليه، وأحياناً تمتد حتى ساعات الصباح الأولى. كان في جعبته أحاديث كثيرة، قصص لا تنتهي. أطلع زينة على كل ما أسعفته به ذاكرته: الوقائع والخيالات، الحقائق والأكاذيب... الحاضرة والعتيقة، المضحكة والحزينة، وكانت الأخرى متفاجئة من مخزونه الذي لا ينضب. لم تكن أخته تعرف كل تلك الأحداث بعد رغم أنها لاحظت تحسناً ملحوظاً على حالة أخيها، لكنها حاولت أن تعمل بدورها لتقرّب الطرفين. أرسلته في إحدى المرّات ليحمل كيساً ثقيلاً عن زينة من أمام باب منزلهم في واحدة من زياراتها، وحدث أثناء تسلّمه للغرض أن تلامست أصابعهما، ورآها تبتسم له بدلال يعرف مرماه جيداً. عيناها كانتا مضيئتين في مشهد دُمغ برأسه، إذ لا يمكنه نسيان المشاعر التي أحاطته في ذلك الوقت، لذتها التي تداعب مخيلته كلما أغلق عينيه وأعاد الحدث.

عندما فكّر المدقّق في تضمين علاقة حبه العذرية وتجنيدها لأحداث الرواية التي يكتبها، أحيا داخله كل تلك المشاعر الدفينة التي تبيّن أنها تتمتع بمزية الأصالة والتجدد. لم يتبدد منها شيء مما ظنّه في مرحلة ما قد اختفى، الأمر الذي جعله يلحّ على أخته ويكرر اسمها. هذه فرضية ممكنة جداً، ومن المحتمل أيضاً أن يكون هذا بسبب الفراغ الذي لا يزال يعانيه. في كل الأحوال إنها

حالة جفاف عميقة وضياع جليّ يحاول أن يتحكم فيهما بوساطة الكتابة التي تولت بدورها أمر قيادة المسألة بدلاً من المدقّق. لا يزال في طور البحث عن أساليب تشويق وجذب يمسك بها قارئه من بداية الحدث. يجد أن الأعمال الأكثر إثارة تبدأ من واقعة تطرح أسئلة على متلقيها: جريمة قتل، واقعة مبهمة التفاصيل، مبتورة عند حدث مشوق، أو باستخدام تقنيات غير تقليدية، بدء العمل من النهاية وإتمامه عند البداية، منح الشخصيات ميزات خارجة عن المألوف، الطيران، الاختفاء، الاختراق، الرجوع عبر الزمن، اختلاق المستقبل، أو اختيار شخصيات رئيسية صعبة التمثيل، كطفل في الثامنة أو امرأة مسنة.

تذكر المدقّق في الأثناء فيلماً يتحدث عن كاتب يعيش وحيداً في منزله الريفي، ويواجه أياماً سيئة بعدما استغلقت عليه الأفكار ولم يعد قادراً على الإتيان بجديد. يتعرّض في أحد الأيام لمضايقة من رجل في المقهى الأقرب من مسكنه. فيما يحاول الكاتب تهدئة الأمر، يضربه الآخر فيتدخل شخص ثالث يتولى أمر الرجل الفظ. وبدافع الامتنان والشكر، اصطحب الكاتب الرجل الذي أنقذه بسيارته حين عَلِم أنه رحّال يسعى على قدميه، فدعاه إلى العشاء في منزله وطلب منه المبيت عنده تلك الليلة. أثناء ذلك دار حوار بينهما بعدما عرض عليه كتبه وأخبره عن معاناته وحاجز الأفكار الذي يلازمه منذ مدة. وبدافع من تفكير مشترك، اقترح الرجل أن يكتب قصتهما، ما حدث نهار اليوم كمدخل للرواية، ثم تولى صياغة أحداث مذهلة، ما جعل الكاتب يشك في أمره. على هذا النحو، ينشغل المدقّق

بأفكار وأسئلة زاخرة حول الأساليب المتعددة لكتابة الحكايات، فرغم الفوائد الوفيرة جرّاء قراءاته الغزيرة، فإن امتصاصها وامتزاجها يشكّلان عبئاً على الوعي والاختيار.

بعد مدة طويلة من العراك الذهني المتواصل مع العبارات الحكومية التي بدأت تحاصره من كل صوب، خصوصاً بعدما أُسند إليه كتابة بعض النشرات الإخبارية الخاصة بالمراسيم الرئاسية، استطاع أن يخلص إلى فصل أول من روايته. كان يشعر بقبول وراحة حيال مدخل النص: متماسك وموسيقي لكنه محكم ومتقن مثل قصة قصيرة، وهذا ما يجعل الأمر يعود إلى نقطة البداية، كأنه لم يكتب شيئاً. مجدداً تتعدد الاحتمالات فتتضاعف الشكوك. الانتقال إلى الفصل التالي يتطلب مجهوداً شبيهاً بذلك الذي بذله في الأول. أسبوع وآخر تتكالب أحمال العمل وقد أضافت إليه الإدارة مسؤولية مراجعة بعض الخطابات الإذاعية أو التلفزيونية وتحريرها. وكلما مضت الأيام، ينحسر وقته ويتبدد مزاجه، حتى عندما تضيق في ذهنه الأفكار. ما من أفق مترامٍ لنظره كصحراء إدارة التدقيق الشاسعة. بجانب مكتبه الجديد نافذةٌ تطل على ممر حرج، فاصل لمبنى مجاور. بالأحرى، تطل على جدار يبعد مسافة ثلاثة أمتار تقريباً، جدار يحبس الرؤية. حتى لو رفع رأسه إلى السماء، فستتبدى له زرقة تطل من فجوة. كان ما يؤنسه في تلك النافذة حمامة تبني عشها كل شهرين أو ثلاثة. تضع بيضها وتجلس عليه لأيام غير عابئة باقتراب المدقّق منها كلّما أحس بالملل. في المرة الأولى، اعتنت بفرخها جيداً، وظلّت ترعاه حتى تَمكن من الطيران. في الثانية، غابت عن بيضتين لأيام حتى أزاحتهما

الريح وسقطتا في الممر السحيق، ولما وجدت الحمامة عشها خالياً، هجرته شهراً وعادت لتضع بيضتين أُخريين ولزمت مكانها حتى فقست وتمكن الفرخان من تحريك ضلعي جناحيهما. غابت مجدداً لأيام، وأثناء ذلك سقطا عند محاولتهما الوثب والاعتماد على نفسهما. منذ ذلك الوقت والحمامة تكرر فعلها وتهجر بيضها. المدقّق لم يكن بدوره قادراً على المساعدة والتدخل طوال تلك المدة لأن النافذة لا تحوي ذراعاً تسمح بفتحها وإغلاقها.

مضت سنتان منذ صدور القرار بإنهاء وظيفة التدقيق وانتقال الجميع إلى المبنى الغربي الجديد، لكن إحساساً يتملك بعضهم أنهم قضوا مدة طويلة جداً في هذا المكان حتى بدأت مظاهر الاستهلاك على الأثاث والسجاد والمكاتب. صارت الإدارة قديمة في مدة قصيرة. الأشياء تفقد زهوها عند اعتيادها. حتى الأخبار باتت مكررة ومملة. لا يزال بعضهم يطرحون احتجاجاتهم حيال رداءة الكتب وغياب الشعور بالمسؤولية والأذى الذي تلحقه المطابع بالأشجار والطبيعة دون جدوى وفائدة، وتغلغل كتب الإباحة بين المراهقين، والفوضى العارمة... ما عادت للأشياء أصولها؛ ازدياد عبثي في عدد المؤلفين، المكتبات ودور النشر تتكاثر دون انعكاس فعّال على وعي الأفراد، وهذه الأوضاع لا تخدم سوى الفاسدين والتجار الجشعين. هذا يعني أن المطبعة أيضاً لا تزال تعمل على مدار اليوم لضخامة الطلبات ونشاط القطاع الذي جعل المدير يراوح بتفكيره ما بين البدء بعمليات التوسعة والتطوير أو التريّث قليلاً للمحافظة على الزبائن وتوفير عائدات أكبر. رغم ذلك، اشترت المطبعة أجهزة

إضافية صغيرة تسهل وتلملم احتياجات العملاء كمكابس الذهب والنقش والتلميع، الأمر الذي أدى إلى تزاحم صناديق الطلبات التي راحت تزحف إلى المكتب المخصص للمدقق، وتتكدس بمحاذاة المدخل، في الزوايا وحول خزانات الملفات والفواتير، وأسفل الأدراج وأعلى الطاولات. ما من ملاذ لصاحبنا؛ الصخب مستمر وتعاقب الزبائن لا يتوقف. لا مكان يصلح للكتابة. باتت الظروف غير معتادة أبداً. هذا إسراف للوقت وتبذير للمزاج، وبدا هذا جلياً في سلوكه وردود أفعاله. صار من الواضح عليه سرعة الانفعال والتوتر والحساسية المفرطة من أي عارض يفسد خططه. لقد تنازل نوعاً ما عن وقت القراءة المخصص في العمل، واستبدله راضياً أو مستسلماً الكتابة به، وصار الآن لزاماً عليه التنازل عن أحدهما، أو أن يقسط ما تبقى من وقت في اليوم بينهما. تواردت إليه فكرة التخلي عن العمل والانسحاب الحتمي إذا ما وجد نفسه يتوه أكثر فأكثر في دهليز لا منفذ له. تذكر رواية الولد الذي توفّي والده في حادثة إثر عاصفة هوجاء حين كان طفلاً وتبناه رجل من دين وبلد آخرين وعاش مراوحاً ما بين هنا وهناك. أصله وحاضره يذوبان في المعنى، في المقاصد، في المبتغى. كَتب المدقّق ملاحظته: "الحياة ليست سوى الأشياء التي نحب ممارستها".

بعد أيام قليلة لمح المسؤول في إدارتهم الجديدة وهو يدخل إلى غرفة رئيس قسم "الرد على الخطابات الرسمية". كان قد امتلأ قليلاً وتغيّرت ملامحه بعض الشيء. منذ اجتماعهم الأخير، منذ افترقا، لم يلتقيا قطّ. طوال هذه المدة لم يسمع أي أخبار تخصه، وبمجرد

رؤيته، شعر بشيء من حنين، بذاكرة تخصه، بمجد داخلي، وعندما خرج من الغرفة، نظر إليه مطولاً. رأى في قسماته أشياء يحبها وبدأ لهيب مشاعره بالتصاعد. تنامت وهاجت. كان المسؤول يطوف بنظره على المكان، وعندما وقعت عيناه على صاحبنا، ابتسم، وأشرق وجهه. إنه لا يشبه ذاك الرجل الذي وجد في وداعه الأخير انكساراً وهزيمة. كان مفعماً بالحماسة والنشاط. أقبل نحوه بهمّة. كان من الواضح أنه أتى إلى هذا المكان بحثاً عنه. راح يندفع إليه بقوة، يقترب... ويقترب.

٧

يقال، والعهدة على القائل، أن خلافاً كبيراً نشب مع دولة مجاورة حول ملكية منطقة حدودية يدار حلّها بعيداً من ضجيج أجهزة الإعلام، استناداً إلى كِتاب أحد المؤرخين الذي صدر قبل مدة ويؤكد فيه بالأدلة القاطعة أن هناك خطأ فادحاً في ترسيم الحدود. أورد المؤلف جملته في صفحة الختام بهذه الصيغة: "ينبغي لنا السعي إلى منح الآخر حقوقه كما نلهث دائماً وراء مطالبنا، فنحن بلد ليس من شيمه الاعتداء على الغير". تراوحت الأخبار ما بين النفي والتأكيد، ولم يتناول الموضوع أيّ مصدر إعلامي موثوق، واقتصر الأمر على أحاديث الناس التي تتناقلها المجالس والرسائل. وارد جداً أن تختلف الدول المتجاورة حول قطعة أرض أو مساحات ساحلية لكن الجديد والمقلق أن يكون الادعاء بفضل كتاب أحد الباحثين، وهذا الأمر مرفوض لدى فئة كبيرة من المتتبعين والسياسيين على وجه الخصوص. في كل الأحوال سرعان ما طوى الناس ملف هذه القصة الغريبة، لكن بعد مدة قصيرة أُذيعت أخبار جديدة زعزعت البلاد: قضت المحكمة بعقوبة مخففة لمتهم في قضية اغتصاب تناولت

حيثياتها تفاصيل إدمانه على الكتب التي تصف المشاهد الإباحية.

في فاتحة عادية ليوم نهاية الأسبوع، بعد صحو كسول، وأصوات طيور تشحذ النشاط، وزحام معتاد لحركة المرور، تسلّم مديرو المطابع، وأمناء المكتبات، ووزيرا الأمن والمنشورات، وقوى منافذ الدخول والخروج من البلاد، البرية والبحرية والجوية، ومحطات شحن البضائع، ومراقبو تقنيات الاتصال... جميعهم، من دون سابق تمهيد، تعميماً وفق تخصص كل منهم، بالتوقف عن طباعة أو نشر وعرض أو السماح بدخول البلاد أي كتاب جديد، وقطع الصلة الإلكترونية بكل الجهات التي تسمح للناس بالبحث واقتناء الكتب بأشكالها كافة. هذا حتى إشعار آخر. كان المدقّق يحدس بأن شيئاً كهذا قد يحدث منذ حين لكن الأيام تمادت دون أن تُحدث أي تغيير. كنتُ أعلم، قال لنفسه أول مرة. كانت الكتب تقول ذلك. ثم راح يكرر هذا في نفسه. يكرره إزاء دهشة عظيمة. يكرره كأن الدنيا باتت دليلاً على حجته التي لم يُفصح عنها. يكرره مثل رجل في الثمانين يأوي إلى خلاصه. يكرره في تكليفه الأخير لكتابة بيان ومرسوم رئاسي في آن:

أيها المواطنون الكرام،

إن بلادنا لا تحيد عن إيمانها المطلق بالديموقراطية والمشاركة الجماعية في اتخاذ القرارات، وإننا اعتدنا طرح الآراء وتنوعها منذ أزل نشأتنا وتطورنا، وهذا ما جُبلنا عليه وهكذا كبرنا، ولعل تميّز تجربتنا العريقة جعل منها مثالاً دائماً ومطروحاً على طاولات النماذج التي

يحتذى بها، وقد مررنا طوال العقود الماضية بعقبات كثيرة وعراقيل عظمى لم تؤثر في مواقفنا ولم تزعزع أساس نظامنا بل زادت من لحمة وحدتنا والتفاف بعضنا على بعض، فشعبنا الأبيّ هو رهاننا الدائم وبرهاننا الثاقب.

أيها المواطنون الكرام،

إن العالم يتزعزع من حولنا، وظروف منطقتنا على وجه الخصوص تتقهقر ويقع عليها التأثير الأكبر، وإن هناك ترويجاً لأطروحات جديدة يجري إعدادها في أروقة بعيدة تكنّ لنا السوء والأذى. وبصفتنا المباشرة في تولي شؤون البلاد التي هي خلاصنا وخلودنا، والتي تحتوينا وترعانا، هذه الأرض التي صارعنا لبقائها ونمائها، ولكي نحفظها ونؤمّنها، ولا نقع في أخطاء سالفة، ونمنع عنها أي عثرات متوقعة لاحقة، ونعزز من مكانتها الدولية وكيانها العميق، نبغي لنا اتخاذ إجراءات وقائية عدة لعل بعضها يُنقص من مزايا أصيلة لدى شعبنا العزيز، وقد نضطر إلى المبالغة في الحيطة مما يضيّق سبلاً كانت واسعة.

أيها المواطنون الكرام،

لقد تابعنا طوال المرحلة الماضية ورصدنا تصاعد استغلال الحريات المكفولة من كثب، وبات ملاحظاً أن هناك أناساً تدنست أنفسهم سَعوا إلى إحداث خلل جلل في مقدرات البلاد وسيادتها، رغم التنبيهات الكثيرة

التي وجهتها الحكومة إلى البرلمان، وعرضتها كمعضلة متغلغلة وعظيمة. ولأننا لا نود الخوض في حروب محتملة قد تؤدي إلى عواقب وخيمة، وخسارات جمة في الأرواح والممتلكات، ولأننا نتطلع إلى مستقبل باهر مشرق لأطفالنا وشبابنا، ونحافظ على سلامة الأجيال المقبلة وكرامتهم، نوجه من هذا المنبر إلى إعلان حالة الضرورة، بما يشرّعه القانون من واجبات وفروض.

أيها المواطنون الكرام،

إن أجدادنا اتسموا بالحكمة والحنكة لما وضعوه من لوائح احترازية لكل الفرضيات الممكنة، التي حافظت على تنظيم العلاقة بين السلطة والشعب، فإن الحياة لا تستقر على حال، والإنسان في تبدل مستمر لما يتلاءم مع الظروف وما يعينه على المقاومة، ورغم الثقة الراسخة بالديموقراطية كما أسلفنا، فإن للواقعية أيضاً ما تفرضه علينا من إجراءات وسلوك، ولهذا كان لزاماً على كل فرد من أبناء هذا الوطن التعاون والالتزام بالتعاليم السائدة والنظم العامة، ما يسهل على الجميع أن يؤدوا أدوارهم على أكمل وجه.

أيها الشعب العظيم،

إن التحديات المقبلة كبيرة، وعلينا التحلي بالتأني والصبر، وأن نتمتع بالبصيرة ونستمر في مراقبة الأوضاع إلى حين عودة الأمور إلى سابق عهدها.

كان في الحلم طفلٌ يقف في صف من الأولاد الذين ينتظرون مذيعاً تلفزيونياً أو ربما إذاعياً يسألهم عن الوظيفة التي يحلمون بها. المدقّق الصغير يقف آخر الصف تحت شمس الضحى الحارقة. يتراءى المذيع من بعيد وهو يطوف عليهم تباعاً وفي يده الممدودة ميكروفون يلاحظه وهو يقترب ببطء. في الحلم، كان متأكداً أنه لم يشهد هذا الحدث في حياته. كان المراسل يقترب، أكان مراسلاً أم مذيعاً. بدأ يسمع إجابات زملائه الذين لم يشاهد وجوههم من قبل: شرطي، طبيب، ضابط، مهندس، إطفائي، شرطي، طبيب... إجابات عجولة جاهزة ومكررة، لكن حين وصل الميكروفون الذي تضخم رأسه الإسفنجي والتصق بفمه حتى ما استطاع التفوه بكلمة، أعاد رأسه إلى الوراء بصعوبة بالغة وأجاب مسرعاً: قارئاً. كعادة المدقّق، ينتهز الأسئلة الجماعية ليبدي إجابة غير تقليدية. توقف المذيع وقال له: "قارئ ماذا؟" وقبل أن يجيب، وجد رأس الميكروفون يسد فمه.

هذا المبنى لم يُهدم بعد رغم إخلائه بالكامل منذ أكثر من سنتين. لم تعد الدولة بحاجة إليه، ولا الوظيفة التي يشغلها. خالٍ مهجور. وربما كانت تهاجر إليه الأفاعي والعقارب والخنافس والقطط التي تسكن صحراء الإدارة في فصل الشتاء. أسرّ موظف إلى زميله: "في رأيك، هل هذا الفعل عن عمد؟" "لست أنا ولا أنت من يملك مثل هذه الإجابات. كل الزملاء القدامى عادوا من جديد، ليس في مقدور أحدهم الاعتراض أو الرفض، هل تعرف أننا خلال المرحلة الماضية لم تتغيّر صفتنا الوظيفية في السجلات الرسمية؟ مدقق!

ولهذا عدنا إلى مكاننا السابق دون تخيير أو استشارة". كانت مدة التحضير لبدء ممارسة العمل من جديد تشوبها أسئلة كثيرة يمكن حصرها في استفسار بارز وعام: ماذا يحدث؟ حتى المدقّق الذي شعر بانشراح داخلي حين سمع الخبر ودَّ لو يشرح أحدهم الأسباب العظيمة التي أعادت كل الأشياء إلى وضعها السالف. لكن لا أحد يكترث. بأوامر حاسمة، وبحجة الأخطار المحدقة. لم يكن هذا سؤالاً خاصاً بالموظفين فقط، بل حكاية الشعب كلّه. المبنى لم يهدم، ولم يتغيّر إطلاقاً: الأسلاك الشائكة على الأسوار، لوحة إدارة المدونات المنشورة بعد تجاوز النقطة الأمنية، الشبابيك على شكل عيون ناعسة، النتوءات البارزة في الصب الخرساني، الشارع الذي يلتف حول المبنى... كما التفاصيل من الداخل أيضاً: المصاعد الضيقة والبطيئة، الأبواب الخشبية الثقيلة، قسم المداهمات الذي يقابل قسم التدقيق، الممرات والحواجز... لكن تجدر الإشارة إلى بضع إصلاحات داخلية بسيطة: دهان الحوائط، إصلاح الأرضيات، تغيير الإضاءات... ولا يُذكر سواها.

في أول اجتماع بعد عودة الإدارة، كان الصخب يعم المكان، وما توقف الحضور عن مواصلة النقاش وإثارة الأخبار المستجدة وتحليل بيان الحكومة حتى وصل المسؤول. كان يتحدث إلى زميل يسايره حتى مقعده ويضم بذراعه ملفاً متخماً بالأوراق وضعه على الطاولة ثم أزاحه جانباً، وقال بسعادة واضحة بالميكروفون أمامه: "صباح الخير". خفتت الأصوات حتى اختفت، فأضاف: "كل عام وأنتم بخير". فورد تساؤل في نفس المدقّق عن أسباب الفرحة الكبيرة التي

ينتشي بها المسؤول. منذ لقائهما الأخير في قسم الرد على الخطابات الرسمية ومعنوياته تزداد ألقاً.

لو أخذنا لقطة علوية لغرفة الاجتماع، سنرى الطاولة البيضاوية في صدر الصورة، وعلى جانب منها المسؤول وحده، والجانب الآخر يتكدس عدد هائل من الموظفين المتحفزين للإصغاء إلى الأنباء الجديدة التي قد تجيب كل أسئلتهم وتشفي فضولهم، لكنه بدأ يخوض في حديثه على نحو عادي جداً: مقدمة وترحيب وإبلاغ بعودة كل موظف إلى قسمه السابق، ثم لاحظ ملامح الخيبة على بعضهم واختفاء حماستهم وتوهجهم. لم يرغب في تقديم مسوغات عن الأسباب الحقيقية لما يدور وراء أبواب السلطات العليا، وأقسم بذلك وكرره مراراً، بل تخلل هذا ضحك واستهزاء بما اعتقد وذهب إليه بعضهم، وأكد أنه موظف بسيط لا يختلف إطلاقاً عنهم، لكنه في منعرج واضح لنبرة صوته، قال إنه عَلِمَ – من مصادر خارج الوزارة – أن هذا النهج في طريقه أن يصير عالمياً. "هناك أقاويل تؤكد أن منظّري السياسات الدولية يرون أن الفكر الديموقراطي بما يتضمنه من ممارسات كاملة أخذ فرصته التامة عبر التاريخ المنصرم، وقد أثبت في وقتنا، ووفق ما توصل إليه الإنسان من حالة انفتاح، أنه بات وسيلة للفساد الجمعي، وأصبح يعطي الحق في تأصيل البذاءة والجهل ونشرها كقاعدة متساوية مع العلم والأخلاق". المسؤول لديه قدرة خارقة في تنضيد العبارات والأفكار دون تأتأة وارتباك. "في السابق، كان يقول المفكرون إن إصلاح ثغرات الديموقراطية تتم بمنح المجتمعات المزيد من الديموقراطية، لكنها مقولة ساقطة

وسط استغلال الحريات المتاحة بالتخفي والتوجيه والتغرير بالنشء والضحك على البسيطين والقيادة عبر الإيهام وبث المعلومات المغلوطة الكاذبة وتشويه الأفكار والأفراد الأسوياء والمساس بسمعتهم وضرب المجتمع عبر تمزيق رموزه والإعلاء من شأن السفهاء". كان يتكئ على كلماته ويشدّد الأحرف أو يسكّنها ليأخذ وقته في البحث والاختيار بين المفردات الدقيقة التي تصف الأحوال الراهنة. "لم يعد في استطاعة العالم السيطرة على كل هذا. صار لكل إنسان مقوده الخاص الذي يسيّر فيه الدولة وفق رؤيته الخاصة، وإذا ما تراخت قبضتنا، سينتج الإنسان وسائل أكثر حداثة تعطي إمكانات أكبر وفساداً أوفر". قهقه المسؤول ثم سعل مرتين وقال: "أنا أتفق مع هذه الفكرة إن كانت صحيحة. تخيلوا إلى أين نحن ذاهبون. في كل الأحوال تقنين الأشياء وضبطها من الأمور الحميدة، لكن..."، وأشار إلى أحد الزملاء ليناوله ورقة تتضمن تعليمات النظام الجديدة، "ما يهمنا في هذه العودة أننا نمارس وظيفتنا وفق رغبة داخلية قوية وإيمان خالص بدورنا، ما يعني أن وجود جهاز التدقيق ضرورة حتمية خلاف ما كنّا عليه في السابق رهن صراعات الأهواء البرلمانية".

لم تكن الأوضاع في الجانب المخالف هادئة أو خانعة كما تصوّرها البعض. مهما كانت الأسباب الداعية للتغيير، فلا بد من مشورة الشعب والعودة إلى أصل النظام، فإعلان "حالة الضرورة" دون خطر داهم مباشر لم يكن مقنعاً البتة، ما آل إلى رواج مشاعر الشك في نيّات الحكومة، بل أخذ بعضهم يرون بوضوح أن السلطة خضعت لمطالب أحزاب مخالفة بغرض تسويات أو مفاوضات

خارجية لها ما لها وعليها ما عليها. شهدت البلاد آنذاك حالة من الحراك والتوتر الداخلي: ندوات واجتماعات وبيانات حزبية... وعلقت الروائية المغامِرة في تصريح مقتضب: "علينا التحقق من الإجراءات الحكومية قبل إبداء رد الفعل". وبين عدد من التعليقات القريبة والمتشابهة قال الروائي الفارس بلهجة حاسمة: "هذه خطوة أولى وواضحة للعودة إلى الوراء". لم يكن في وسع المدقّق أن يحدد موقفه القاطع رغم حالة النشاط التي يعيشها هذه الأيام واستقراره النفسي. لاحَظَت أخته توقفَ أسئلته اللحوحة حول زينة، وشعرت والدته أنه استعاد نضارة بشرته وحيويته ومزاجه العام لكنه ليس مطمئناً كفاية. ولكونه يملك القدرة على استقراء ما يجري، لو بمشاعره وحدها دون الرجوع إلى الأسلوب المنهجي أو المنطقي، بدأ فعلياً استهلاك أقراص المعدة، وكتب ملاحظته آنذاك: "حالة الفساد الرائجة طبيعية. مقاومتها حالة افتعال استثنائية". وبدأت أحلام غرائبية تدهمه كل ليلة، وكان بعضها سهل التأويل وأخرى ليس لها ركائز واقعية. رأى في أحدها أن مدير المطبعة جلب ماكينة جديدة ثم كشف غطاءها بحركة سينمائية تقليدية لإعلان مفاجأة، وكانت تلك التي قال إن في استطاعتها طباعة أوراق نقدية، لكنها في المنام كانت تطبع نقوداً حقيقية. راح المدير يبرهن له مدى دقتها وإمكانيتها في طباعة التفاصيل المائية واللامعة والصور الخفية. لم يكن يعي مدى صحة المصطلحات التي يستخدمها، لكنها جاءت في الحلم كما هي، وقررا الاستعانة بطابعة الأموال التي ستغنيهم عن متاعب الزبائن أو بذل أي مجهودات، لكنهما واجها مشكلة معقدة

متمثلة في تسلسل أرقام العملات النقدية.

ربما يعكس هذا الحلم حالة المطبعة المزرية، فبعد أسبوع من صدور البيان الحكومي زارهم موظف وزاري ليتحقق من توقفهم عن طباعة الكتب والدوريات والمنشورات، وقد نشطت المداهمات المفاجئة حينئذ لضبط مخالفي القرار، فاقتصر العمل حينئذ على دفاتر الفواتير والإعلانات التجارية والبطاقات الشخصية وطلبات بسيطة أخرى. كانت فرصة جيدة للمدقق أن يعاود ممارسة الكتابة أثناء زياراته الأسبوعية بعد سكون الطحن المتواصل للمكائن وندرة توافد الزبائن، لكنه كان يشعر بحاجز أفكار يمنعه عن مواصلة ما بدأه، وربما انشغال أفكاره بالمجهول المقبل أدى إلى ذهن مشوش غير قادر على تركيب الأحداث وصياغتها جيداً. وعلى النقيض من ذلك، حالة المطبعة التي صارت يوماً بعد آخر توغل في الخسائر لا تقلقه البتة، خصوصاً بعد ضمان استعادة المصروفات التي أنفقت في تطويرها، لكن توتر المدير واتصالاته المتكررة للحصول على أخبار مطمئنة أو فرصة تسمح لهم بممارسة نشاطهم السابق أو جزء منه بدأت تزعجه وتدخله في أجواء من الكآبة والإحباط.

في الحين الذي فضلت وسائل الإعلام تجنب الخوض في الأحداث ما دامت الرؤية غير واضحة، بدأت قناة تلفزيونية تفاعلاً أولياً عند استضافتها محللاً سياسياً معروفاً لمناقشة مؤشرات القرارات ونتائجها المتوقعة، ولكون الناس متعطشة لسماع مبررات أو تفسيرات لهذه التغييرات الفجائية، حظي اللقاء بمشاهدة عالية واهتمام كبير، خصوصاً أن للضيف ثقلاً وأهمية بالغة في الوسط

السياسي. في معرض التمهيد للخوض في حيثيات الأمر، وبعد مقدمة ألقاها المحاور تلخص مجريات الأيام الماضية، قال المحلل في دراسته وبحثه الخاص حول ما يسمى الممارسات الديموقراطية، عبر التاريخ، وفي مجمل الأمم التي تضمن هذا الحق المزعوم لشعبها، فإن واقعها يتمثل في التعريف الآتي: "هي فن إيهام الشعب بالمشاركة في الحكم عبر تهميش قيمة الاختيار، وإتاحة المنصات الإعلامية لرؤوس الأموال بقصد السيطرة على الجماهير". وهنا قال المحاور: "إذاً، هي إيهام الشعب بالحكم". وأكد الآخر: "أجل، إيهامهم". ثم أكمل: "هذا ليس حكماً عاماً، فالديموقراطية كنظرية للعدالة رائعة ومميزة، لكن تطبيقها يشوبه كثير من الثغرات التي تستغلها الغالبية الساحقة في السلطات، وهذه مشكلة في حدّ ذاتها. إن نظاماً سياسياً غير قادر على تولي زمام أموره من تلقاء نفسه يغدو مثل لعبة سهلة سخيفة في يد منفذيه، ويمكن الالتفاف حوله وتطويعه، يجدر إيقافه وإعادة النظر في الاعتماد عليه". رد المحاور بنبرة معترضة: "ألا تعتقد أن هذا الكلام غير مقبول من الطرفين، الشعب والسلطة؟" "لا"، انتفض المحلل، "الدولة بدأت تتخذ سياسات صريحة وأنا أشجعها عليها؛ إن السلطات التي لا تزال تدعي وتفاخر بالديموقراطية تعرف مدى المساحة التي يوفرها هذا النظام لممارسة الفساد والديكتاتورية؛ إنهم يسلبون شعوبهم حرياتها دون أن يشعروهم بذلك تحت ذريعة الانتخابات وصناديق الاقتراع، وإذا ما تأملنا حال الدول المحترمة التي تطبق الديموقراطية بأمانة – هي قليلة جداً بالمناسبة –، تجدها غارقة في تحريات مستمرة للكشف

عن الفساد، ومشغولة بتأسيس أجهزة لحماية المال العام والنزاهة ومكافحة التجاوزات، وهذا يعيق تقدم الأمم".

كان المدقّق قد توقف عن قراءة قصة تتناول يوميات صبيّين تركتهما أمهما يعيشان عند جدتهما الحانقة في أحداث حرب قائمة بعدما نفد الزاد وعادت الحياة إلى بدائيتها. قرر أن يتابع اللقاء بحماسة على غير عادته، لكنه شعر بالملل منذ الدقائق الأولى. كان يُنتظر من الضيف أن يدلي بأخبار حصرية. أولئك الذين يتحدثون بهذه الثقة المطلقة يملكون مصادر معلومات ذات مستوى رفيع. بدأت تراوده فكرة العودة إلى مكتبه حيث ترك قصته مقلوبة ومنفرجة على الصفحة السابعة والسبعين، ولديه فرصة في ما تبقى من وقت اليوم لينهيها ويرقد مطمئناً. تداخلت كلمة الضيف الأخيرة مع سؤال المحاور: "ألا ترى أن البديل الذي تلمّح إليه السلطة أقرب إلى الفكر الشمولي؟" استنكر الآخر: "قطعاً؛ علينا أن نكون أكثر دقة في انتقاء مصطلحاتنا؛ تقنين الحرية وضبطها ليست مرادفاً للقمع والكبت. هناك ضرر لحق بالدولة جراء انفلات الفترة الماضية". انتفض المحاور: "انفلات! هل تسمي حرية التعبير انفلاتاً؟" أكمل: "بالطبع، عندما تستغل قوانين البلاد ضد البلاد، لا أجد صفة أخرى مناسبة للتعبير عن الحالة، خصوصاً أن هناك أموراً لا يجب ذكرها في العلن. ما نراه على السطح أقل بكثير مما في غور الأعماق". لم يتوقف المحاور عن مناكفة الضيف، وبدا رافضاً أفكاره التي فوجئ بها، وسؤال بعد آخر. "أرى أننا بدأنا نعتمد المسار الصحيح". إجابة

وأخرى. "لا تخدعك وسائل التكنولوجيا بوصفها صادقة ومباشرة". تفنيد وتأكيد. "التعامل الصريح المباشر أجدى". تركيب وتفكيك. "كل الأشياء قابلة للتجنيد". رفض وتأييد. "ستظهر فوائد التقنين على المدى البعيد". "الأجيال المقبلة ستقود الدولة وفق مفاهيم حميدة".

أما الصحف، فتوارت عن المشهد كأنها غير معنية بالأمر، واستمرت في نشر أخبار الزيارات السيادية، وخطط التعليم والصحة، والتنبوءات الاقتصادية... ساد ظن عام بأنهم اتفقوا في واحدة من ندوات اتحاد الصحافيين، أو نقابة الكتاب، وربما في اجتماع رؤساء تحرير الصحف على أن يتخذوا موقفاً محايداً، أو يتأنوا في إعلان موقفهم من باب تقديم المصلحة العامة، وهذا التفسير من أجل إبداء حسن النية، فالصمت في أجواء كهذه لا يدعو لغير الشك. لكنهم، لأسباب خاصة، تكتموا عن خبر توافد مبعوثين من إدارة التدقيق لمباشرة عملهم داخل الصحيفة، فيتسلمون المواد النهائية ويدققونها قبل إعطاء موافقة النشر. هذا حتى إشعار آخر. لكنهم، بعد اللقاء التلفزيوني على وجه التحديد، بدؤوا تغطيات ندوات عدة تطالب بالإيضاح والشفافية لما يحدث، فالبلاد مقبلة على تغييرات طارئة، وقد مضت عشرة أيام منذ صدور البيان الرئاسي، بينما تعطلت المصالح ذات الصلة بالنشر والطباعة كافة، وخيمت أجواء قلقة تصاعدت معها حدة الخطاب الموجه من المعترضين إلى الحكومة. في أجواء كهذه، فضّل المدقّق أن يبقى بعيداً رغم قلقه وفضوله الجامح. يفرغ في جوفه فناجين القهوة المتعاقبة. ينتظر الأخبار التي تأتي بها الأيام. يقرأ الكتب ويطوف صفحات دون

إدراك. يتناول أقراصه بانتظام أرهق معدته.

بعد مبارحة أسبوعين من المرسوم المعلن دون تجاوب أو رد على التساؤلات الغامرة، شوهد في أحد الشوارع الرئيسية لوحات أغلفة كتب ممنوعة مشنوقة تحت جسر مشاة!

٨

أربعة مكاتب متقابلة. تساوي ثمانية. مكتب المدقّق في أقصى جهة اليسار. يحاذي النافذة المطلة على الصحراء. مداهُ الشاسع يطلق الأبصار. ذُهل عند دخوله القسم. ما هذا! لم يكن أي من الموظفين على دراية بهذه المفاجأة. كان على كل مكتب آلة غريبة تحتل ثلث المساحة تقريباً. اقترب المدقّق يتفحصها: معدن مطليّ بلون بنفسجي داكن، لها قاعدة مستطيلة، مسطحة ونحيفة، مقسمة بخطوط طولية وعرضية متقاربة مثل كراسة تمارين المسائل الحسابية، وعلى جوانبها ملاقط معدنية. رائحة من تلك الكهربائيات الجديدة تعم الغرفة. تنبت من القاعدة ذراع ترتفع إلى الأعلى وتتقوس إلى الأسفل، ويثبت في نهايتها جزء يشبه كشافاً ضوئياً كبيراً. لا أحد يدرك حاجة هذه الآلة الغريبة. قال أحدهم: "تشبه إلى حد ما جهازاً قديماً لعرض الصور على الحائط". رد المدقّق: "صحيح". قال الزميل المجاور: "وظيفتنا تتطلب جهداً عقلياً خالصاً، لسنا بحاجة إلى مثل هذه الآلات". ساد سخط عام، وشعر الجميع بأن هناك إجراءات جديدة ستعقد مهمات عملهم. لم يسبق لأحدهم أن شاهد آلة شبيهة بها. تبدو متطورة ولها

استخدامات خاصة. تكنولوجيا متقدمة لا تنسجم مع غرفة أثاثها متآكل من سبعينيات القرن الماضي في مبنى قابل للانهيار في أيّ لحظة. تطوّع أحدهم ليذهب إلى المسؤول ويستفسر عما يحدث. اعترت المدقّق ضحكة بعد دقيقة. تذكر رواية تتحدث عن مستقبل يخبئ روايات مكتوبة بواسطة رجل آلي يعمل عبر شريحة صغيرة داخله تحوي كل الأعمال الإبداعية منذ أزل التاريخ، ثم يعالجها بطريقة ما وينتج نصوصاً روائية وشعرية وقصصية أكثر دقة وتماسكاً ومتعة، في زمن أقل بكثير من السنوات التي يستنزفها المؤلفون لإنتاج نصّ واحد قد تغيّبه المكتبات في أرففها، ويغفلها ذلك القارئ الذي قد يمجدها.

عاد الزميل بعد نصف ساعة: "سيأتي مهندس متخصص ليطلعنا على طريقة استخدامها". ودون أن يستفسر الآخرون، أكمل باختزال: "يقول المسؤول إنها ستسهل جهودنا وتختصرها". لوى شفتيه بعد أن أتم جملته. "ننتظر ونرى". يتدلى من خلف الآلة سلكَان سميكان، وتبرز شاشة طولية في لوح نابت من القاعدة المستطيلة. صاح أحدهم باستياء: "كل الأشياء غدت مبهمة ومتكتمة". عندما قدِم المهندس، ألقى تحية واحدة بلهجة عجولة وباشر عمله بصمت. كان معه مجموعة من الفنيين الذين شرعوا يبسطون توصيلات كهربائية على الأرض كي يتسنى لهم تشغيل الآلات الثماني. عمت فوضى في المكان: تمديدات تعيق الحركة، علب فارغة وأكياس صغيرة. تسرّب بعض الموظفين من الغرفة بعد أن شعروا بالضيق لكن المدقّق ظل يراقب عملهم في حين ينظر إلى ساعته باستمرار.

راوده قلق حيال هدر مزيد من الوقت والأيام دون استغلالها بانتظام لمعاودة بدء تاريخ القراءة المجيد. صحيح أنّه يجعل الأشياء صعبة ومعقدة لكنه دائماً يتذكر عهده الذي قطعه لنفسه وأمام زينة حين قال بصوت حاسم: "سنتزوج إذا قرأتُ عشرة آلاف كتاب". إضافة إلى أنه ربط هذا القرار بكثير من الأهداف المهمة في حياته. لم يكن يقصد أيَّ كتاب، وإنما تلك القراءات المعتبرة التي يقررها بنفسه. ورغم أن هذا الكلام تسبب في نفور زينة واستيائها، واصل إحصاء الكتب التي يلتهمها ويخصص لها ركناً كبيراً من مكتبته لتسهّل عليه متابعة إنجازه بدقة. حتى عندما شعر في لحظة ما أن الرقم ضخم جداً، خصوصاً أنه لن يحسب الكتب التي قرأها أصلاً، قرر أن يمضي مستعيناً بالفرج والفتح الذي سيأتي ويسيّر الظروف وفقاً للخطة. وإذا ما فاضت مكتبته وضاقت، سيجد مكاناً أو طريقة أخرى يركن إليها.

دعا المهندس الجميع للدخول إلى الغرفة بعدما شغّل إحدى الآلات وأوصلها بجهاز كمبيوتر أدار واجهته ناحية الموظفين حتى يتسنى للجميع مشاهدة الشاشة، ثم انتصب مثل محاضر أكاديمي يراقب سكون طلابه واستعدادهم لسماع شرحه. اعتذر في البدء عن مخلفات عمله وزملائه ووعدهم بترتيب المكان لاحقاً. ثم عبّر بجملة قاطعة: "كل الأشياء جرى ترتيبها سريعاً. ينبغي التركيز على الآتي. هذه الآلة سهلة الاستخدام، خطوات بسيطة فقط نحافظ على تنفيذها بالترتيب". وجّه انتباه الموظفين إلى شاشة الكمبيوتر، وقال مشيراً بإصبعه: "هذا البرنامج الخاص بالآلة الماثلة أمامكم ينبغي الدخول إليه وإدخال اسم مستخدم ورقم سريّ خاص بكل موظف،

ثم ننتقل إلى النافذة الداخلية". أجرى بضعة تعديلات على خصائص البرنامج قبل أن يكمل حديثه، ثم شغّل الآلة التي أضيئت شاشتها الصغيرة الموصلة بالقاعدة المسطحة النحيفة، والكشاف العلوي المسلط على القاعدة بوساطة الذراع المقوّسة. قال المهندس: "أود لو استعير منكم كتاباً". ناوله الزميل المجاور أحد الكتب القريبة منه. فتح المهندس الصفحة الأولى، وأخذ نظرة شاملة، ثم راح ينقل شيئاً من الكتاب إلى الكمبيوتر. عاد يتحدث إلى المجموعة: "كان عملكم يقتضي قراءة الكتب من أولها إلى آخرها، أليس كذلك؟" أومأ بعضهم وأجاب آخرون بالإيجاب. ابتسم بثقة، ثم أردف: "من الآن سينتهي هذا العهد دون رجعة". أفرد الكتاب على قاعدة الآلة. جعل وجه الصفحة ينظر إلى الأعلى، وثبتها بالملاقط الجانبية، ثم ضغط على زر في الشاشة. أومض الكشّاف العلوي مثل كاميرا احترافية. ظهرت الصفحة من فورها في الشاشة. أبدى بعض الموظّفين اندهاشهم، وعبّر أحدهم بصوت مرتفع: "عجيب!" قال المهندس: "نلاحظ هنا كيف ظلل البرنامج هاتين الكلمتين باللون الأحمر". كانتا كلمتَي غارسيا، وكاراكاس. أكمل: "لقد ظللهما البرنامج لأنني أدخلتهما في قائمة الكلمات المطلوبة. لقد اخترتهما عشوائياً من أجل عرض نموذج لكنكم ستحصرون كل المفردات التي تريدونها في ما بعد، وتضيفونها مرة واحدة لتطبقوها على ملايين الكتب". قلّب صفحة الكتاب وضغط الزر مجدداً فأومضت الآلة. "لاحظوا الملاقط الجانبية كيف هي قوية ومرنة في آن". نظر إلى الشاشة التي عرضت الصفحة التالية. لم تكن هناك كلمة مظللة، فأردف: "هذا

يعني أن الصفحة لا تحوي تينك الكلمتَين".

سأل أحد الزملاء: "من يوفر أجهزة الكمبيوتر؟" استدرك المهندس: "نحن بالتأكيد. كل موظف سيحصل على واحد مزوّد ببرنامجه الخاص". عمّ شعور بالراحة لدى بعضهم. لكن المدقّق ألقى تعليقاً تهكمياً: "تكنولوجيا يمكنها قراءة الصفحة في ثانية ولا تستطيع أن تقلبها من تلقاء نفسها". لم يرد المهندس مباشرة على المدقّق وإنما أوضح: "هذه الآلة صُنعت بالأصل لاستخدامات مختلفة تماماً لكنها أيضاً تخدم بكفاءة في مجال وظيفتكم، وستلاحظون كيف ستغدو إنتاجية العمل أسرع وأسهل". أسئلة كثيرة لا تزال تحوم في قسم التدقيق، ولم يتيقنوا بعد من إمكانية اختزال وظيفتهم في آلة، وخُيّل إلى المدقق كيف سيصير هو الآخر آلة متممة لعمل آلة، يضغط زراً ويقلب الصفحة، وهكذا. انتبه وقتئذ إلى ما سينتهي به الأمر، وبدأ يشعر أنه يهوي في جحيم جديد. لم يكن ينصت إلى شرح المهندس الذي أخذ يعيد العملية ويوضح التفاصيل الدقيقة ويجيب عن الأسئلة التي انكبت عليه، لكن الزميل المقابل خلص إلى مداخلة يشوبها اعتراض: "المؤلفون أكثر دهاءً ومكراً ولن يحاصرهم سياج من المفردات المحظورة، ثم إن للكلمات دلالات هائلة، متوافقة ومختلفة، وللعبارات دهاليز تُساق بألف شكل ورسم". رد الآخر رافعاً كتفيه: "لست مؤهلاً للإجابة عن كل الأسئلة. عليكم التوجه إلى المسؤول، فهو على اطّلاع تام على آلية العمل الجديدة والمعتمدة". بدأ الموظفون يتجادلون بينهم حول أرجحية الاعتماد على هذه الطريقة أو أنها ستقودهم في النهاية إلى

الشكل التقليدي للتدقيق. كان المسؤول قد طلب اجتماعاً خاصاً للموظفين في نهاية الأسبوع، وكانت أقراص المعدة قد نفدت من درج مكتب المدقّق. في ذلك اليوم، لم يكد يتحمّل التقلصات التي باغتته حتى عاد إلى البيت. بدأ القلق ينهشه، وهيمن عليه الأرق، وتحوّلت مناماته إلى هاويات وظلام وهرب وضيق، ويرى فيها الأفاعي والسحالي والصراصير والسيوف التي توقظه فزعاً مراراً في ليل طويل لا يكاد يشرق. يسمع تكتكات الأشياء في سكون الفجر، ودبيب أقدام بشرية مستحيلة على السطح.

حتى اليوم الموعود، كان قد استنفد أعصابه تماماً. اجتمع المسؤول بالموظفين الثمانية وحدهم في مكتبه. كانت مرحلة يتحدّر فيها فصل الشتاء إلى الصيف متجاوزاً مرحلة ربيعية منسية. الشمس على غير طبيعتها هذه الأيام: كثيفة الاصفرار، سليطة، شديدة السطوع... ونافذة الغرفة الواسعة تتسبب في اصطدام حتمي للنهار ووجه المسؤول. كان يرتدي نظارته وبدت ملامحه أكثر جدية من الأيام الماضية. انشغل المدقّق جزئياً في تساؤل لحوح: كيف لأحدهم تحمّل ضوء خارق لجوج يهاجمه طوال خمس ساعات على الأقل! انحنى المسؤول إلى أدراج مكتبه، وأخرج ملفاً ممتلئاً بالأوراق ووضعه أمامه، وطلب من أحد الزملاء التأكد من إحكام غلق باب الغرفة، ثم انبرى في موضوعه مؤكداً حجم العمل المنوط بهم وخطورته، ما يلزم الجميع أن يصغوا إليه جيّداً. قال: "أتتنا توجيهات عليا لإعادة النظر في كل الكتب بلا استثناء". لم يُبدِ أيّهم رد فعل أو تجاوب. فأكمل: "سنعيد كل ما أنجزناه من جديد، ويجب على

الجميع إرسال كتبه إلينا لتدقيقها مرة أخرى". تجهمت ملامح الزميل المجاور الذي استفسر بامتعاض واضح عن مدعاة هذا: "سيتطلب منّا جهداً هائلاً بالإمكان اختصاره". طمأنهم المسؤول: "بوجود صائدة الكلمات، سيغدو الأمر أسهل". ثم أوضح: "الآلة التي على مكاتبكم، أطلقت عليها هذا الاسم". لم يرغب المدقّق في بالتفوه بأيّ كلمة؛ كان يشعر بالعرق يسيل وراء أذنيه وزغللة مستفزة لا تبرح عينيه وحرارة تهيج في جسده أعيت رئتيه، في الوقت الذي يرى المسؤول يفرك كفيه مستعيناً بدفء أشعة الشمس. "الخطة تنطلق من خطوة أولى متمثلة في إدراج كل الكلمات التي ورد ذكرها في كراسة المدقّقين ضمن البرنامج الملحق بالآلة"، قال جملته وهو يلوّح بكراسة التدقيق، "ثم الكشف عن الكتب بالطريقة التي شرحها المهندس في الأيام الماضية. الكتاب الواحد لن يستغرق أكثر من ربع ساعة أو أقل. في حال ظهرت كلمة مظللة، سيُحظر الكتاب فوراً دون الحاجة إلى كتابة تقارير، ففي إمكان البرنامج إحصاء الكلمات المحظورة كافة وطباعتها. لن نقرأ الكتب". عاد وكرر: "لن نقرأها... إلا في حال عبور الكتاب من الجهاز دون التوصل إلى كلمة واحدة مخالفة".

استأذن المدقّق للخروج قليلاً بغية أمر مهمّ. نهض من مكانه بحذر كأن خدراً أصاب إحدى قدميه. لاحظ المسؤول ذلك بين الزملاء لكنه لم يسأله عن السبب. تركه يخرج حتى يستأنف الشرح والنقاش مجدداً. حاول الآخر أن يسرع خطاه في الممر المؤدي إلى الحمام. شعر في لحظة بأنه بالون معبأ بالهواء. واصلوا الحوار من

جانبهم. "عند قراءة الكتاب، نحتاج إلى إحصاء كامل لكل الكلمات التي تحتمل دلالات ورموزاً مشبوهة، حتى العبارات التي تشير إلى معانٍ وكنايات خاصة، والمركبة من كلمتين أو أكثر، والمعلومات المشكوك في صحتها، واستنطاق الحيوانات والجمادات، والإيحاءات، واللمز وما شابه. عموماً سنصدر لائحة خلال يومين بكل ما عليكم التوجس منه". علّق أحدهم: "نحتاج أن نرتب العملية على نحو منظم وواضح. ماذا تقترحون؟" "أرى أن نترك الكتب التي سبق حظرها جانباً ونبدأ بتلك التي أجازتها الإدارة من قبل". "جيّد، لكن التقارير السابقة حُرقت بالكامل، وليس هناك أيّ مرجعية إلكترونية لها". قال آخر: "نهاية كل أسبوع نجتمع ساعتين مثلاً ونعرض المفردات الجديدة التي نقترح إضافتها". "لا بأس. ننتهي من جميع الكتب التي تحوي كلمات واردة في كراسة التدقيق، ثم نفرغ لقراءة تلك التي تَجاوَزَتها". أخذ المسؤول يدوّن الترتيبات ويناقشها. كان بعضهم متحمسين للفكرة والآخرون يحاولون أداء عملهم دون أن يظهروا ضجرهم. عاد المدقّق بعد دقائق، وبدا وجهه محمراً. جلس دون أن يشارك البقية. أوضح المسؤول نقطة عارضة: "وجوب إدخال الكلمات بأشكالها كافّة: المصدر والملحقة بفاعل ومفعول به، المفرد والمثنى والجمع، المذكر والمؤنث، المضارع والماضي والمستقبل، المعرفة والنكرة... البرنامج لا يدعم اصطياد كلمة تختلف لو بحرف". نظر إلى صفحة عشوائية في الكراسة، ثم قال: "لو افترضنا أننا أردنا إدخال كلمة مضاجعة، فعلينا كتابة: ضجع، ضاجعه، ضاجعها، ضاجع، يضاجع، يضاجعون، يضاجعان،

سيضاجعها... وهكذا. يمكن قياس هذا على الأسماء أيضاً: نهد، نهدها، نهديها، نهود، ناهد، ناهدات، نواهد، نهدت...". قاطع أحدهم: "ماذا عن علامات الحروف؟ التشكيل رسم وليس حرفاً". "لا تأثير لها في البرنامج".

شيء ما أثار المدقّق فجعله يتدخل. قال: "لكن كل الكلمات قد تدخل ضمن سياقات بعيدة من المحظورات. في السابق، كنّا نعالج الأمر كما يصلنا من النص، وإن ارتبك، نرجع إليك. ماذا عن حالات كتلك الآن". "امنع! لا تعطِ للأمر دقة أكبر". رغم نبرة المسؤول الحاسمة، فإنه عرج: "على الأقل في المدة الأولى. ومن يتضرر، فعليه اللجوء إلى لجنة التظلم، وسننظر في الأمر لاحقاً". بدا واضحاً أن هناك اتفاقات نافذة عُقدت في الأيام الماضية، وهذا التنسيق الداخلي لن يغيّر شيئاً. سيُعلن استقبال الإدارة للكتب أثناء عطلة نهاية الأسبوع. انفض الاجتماع لكن المسؤول طلب من المدقّق البقاء. قال له محققاً: "ما بك؟"

***

II

"كنتُ أشيّد أبراجاً من مجلات الأطفال بالقرب من سريري، وأخبئ المميز منها في أدراج خاصة؛ أخشى عليها من نظرات أبي الذي يزدريها ويراها أزمة مأسوية تتصاعد طردياً كلما كبرتُ وتكاثر عددها. يقول بتململ: "ما عادت تناسبك". وبحزم: "لا تكدس المزيد منها".

أحياناً يكتفي بالإشارة إليها بكفه فيومئ بذراعه ويميل بشفتيه ويهز رأسه. أفهم المعنى جيداً لكنني أتجاهله. أخاف أن يأخذها يوماً في غفلة مني ويحرقها. أتنصت أحياناً على حديثه مع أمي. يعرب عن قلقه وأساه: "مأزق عظيم، عليكِ إقناعه ليلتحق بنادٍ رياضي، جماعة دينية أو أي أنشطة مختلفة. أنتِ السبب". كان يتهمها غالباً عند نهاية الحوار. في طفولتي فقط، كانت تأخذني إلى مبنى مجلة ملحقة بصحيفة شهيرة. كلما تذكرت ذلك المكتب بسجادته البنية النظيفة، ولوحات أبطال القصص المحاطة ببراويز بيضاء على الحيطان، أشعر بدفء حميم. أُقدم ورقة مشاركتي في صفحة المسابقات وأحصل على أعداد خاصة، قديمة أو حديثة، قبل توزيعها. كل مرة أستحضر الصناديق المتراصة التي تزيّن واجهة جدار البيت، تلك التي تخفي داخلها هدايا شهرية من الأعداد الجديدة. أشعر بمتعة لا يضاهيها مثيل. حتى وجد أبي حجته واقتلعها.

لا أحد يعرف بهذا الولع خارج أسوار البيت. حتى عليوي الذي لاحظ أنني الوحيد المهتم بمطالعة قصص "سلسلة الفسائل" التي كانت تُوزع علينا في حصة المكتبة. لا يدري بأنها شغفي الأكبر. في الأسابيع الأولى من بداية السنة الدراسية الثالثة في المرحلة الثانوية، كنّا نلتقي عند بقالة تتوسط المسافة بيننا. من يصل أولاً، ينتظر الآخر، ثم نمضي إلى محطة الحافلات التي تفصل ضفّتَي المنطقة. كانت أجواء انطلاق العام الدراسي بغيضة مُغيظة وتكسوها أخبار ونصائح ومشاهد متكررة سخيفة. قررنا معاملة كل يوم مثل عطلة نهاية الأسبوع. أتشارك وعليوي اهتمامات عدة رغم الاختلافات الجوهرية والأصيلة، وفرادة الأفكار العامة والآراء الخاصة. مع اقتراب فصل الشتاء، يبدأ الليل اكتساحَ النهار تدريجياً، وتعجل الشمس في انسحابها من صفحة السماء يوماً بعد آخر. نشتري غالباً علبة سجائر، علكة، قنينة ماء،

مشروباً غازياً أحياناً... قبل أن نذهب لنلتحق بالحافلة التي تقلنا جنوباً باتجاه منطقة تجارية قريبة من ساحل البحر. السائقون لا يتوقفون لأولاد في مثل عمرنا؛ يتوقعون منّا المتاعب والعبث والتخريب، ما يدعونا للجوء إلى حيلة بسيطة: نحاول إقناع أحد مرتادي المحطة أن يساعدنا كي يقوم بالمهمة عنّا، ونكون حينئذ قد توارينا في الجوار، وبمجرد أن يُفتح باب الحافلة، نقفز سريعاً إلى الداخل.

عليوي لا يجيد الحوار مع الآخرين. لا بد أن يبدأ حديثه أو ينهيه بكلمة بذيئة. لا يجيد العناية بثوبه الذي أهلكته ثقوب جمر السجائر، ولا تدبير المال والوقت، لكنه يجيد النكات والرفقة. كانت غوايتنا آنذاك لعبة البلياردو التي انتشرت صالاتها مثل عدوى. محاولة بائسة لخلق أجواء حانات رديئة، لكنها تلبي حاجات أشخاص يرجون الهرب وتبديد الوقت مثلنا. نقضي ساعة على الأقل أو ما تقدره مدخراتنا المالية. مهاراتنا في تطوّر ملحوظ. نُصيب كرة متوارية خلف أخرى، أو نضربها من قاعدتها، فتقفز وترتطم بالمقصودة. أخرى تحتاج ملامسة خفيفة كي تَسقُط في جحرها. نذهب إلى مطعم قريب للوجبات السريعة في ما بعد، ونخلص إلى جلسة خارجية في مقهى شعبي. نشاهد الأفلام ومباريات كرة القدم من خلال شاشة تلفاز عملاقة تتصدر الواجهة. ذات مرة، في سكون المقهى المعتاد، بعد أن تنفد الحكايات والنكت والمشاجرات، حين نتمدد على الكرسي ونسرح في تعاقب لا يتوقف لأعقاب السجائر، نشعلها ونطفئها إلى أن نقتل آخر ساعة في اليوم، نهض عليوي فجأة من مكانه مرحباً بأحدهم. ليست عادته. بكسل واضح، عدلت جلستي وقمت مصافحاً. كانت طلعة الشاب تنم عن أسرة راقية وتربية مهذبة. انعكاس أضواء الكشافات العليا يفشي لوناً يميل إلى الشقرة بشعره المرتب والمصفف إلى اليمين بتموّج مميز. نحيل وطويل نسبياً. ملابسه

مثل تلك التي يرتديها تان تان في مغامراته الشهيرة. نغمة صوته ثابتة ومتصلة. يستخدم مفردات غير مألوفة. من المستحيل لهذا أن يكون صديقاً لعليوي الذي دعاه للجلوس. حاول الآخر أن يعتذر متعللاً بأنه على موعد مُفترض. أخذ يجول بنظره على المكان يبحث عن شريكه. ثم سأل هل هناك مقهى آخر بالقرب. أجبته من فوري: "لا". نظر إلى ساعته بقلق. وأردف: "لا أعرف، ربما سيأتي الآن". عليوي أصرّ أن يجلس ريثما يصل الآخر. لا مفر. أطفأ سيجارته فور جلوسه، وابتسم مجاملاً وقال: "أعرفك، لا تحب الدخان". رد الآخر مؤيداً وممتناً: "جداً، لولا الموعد، ما جئت إلى هنا". ثم أمسك بأطراف ثيابه: "هذه الروائح تعلق بسرعة وتفوح، لا أعرف كيف سأبرر لوالدي إذا ما...". قطع جملته وراح يقرب قميصه من أنفه. لم أُطفئ سيجارتي حتى حينذاك، ولم أنوِ الاستجابة. رد عليوي مخففاً الأمر: "أي كذبة تفي بالغرض". بدا الاثنان يعرفان بعضيهما جيداً.

عليوي بطيء الكلام. يمط المفردات ويستخدم تعبيرات معقدة ليوصل فكرة بسيطة. لكنه استطرد في حواره آنذاك وراح يطرح أسئلة كثيرة، وبدأ يستذكر بعض المواقف والأشخاص، قبل أن يخبرني – لسبب خاص ضمن واحد من أحاديثه التي ظن أنني أنصت إليها – أن لصديقه أرشيفاً خاصّاً لكل أفلام الرسوم المتحركة القديمة، ومتحفاً لمقتنيات تخصها. ابتسم الآخر بخجل، وأعرب عن مبالغته عند وصف "متحف"، كما أبدى تحفظاً ظاهراً. كنتُ أتابع فيلماً يحكي عن قصة رجل نبيل مهووس بعلاقات نسائية متعددة، بينما استغرق عليوي وصاحبه في أحاديث حول أناس لا أعرفهم. كنتُ قد استعدت وضعيتي على الكرسي من جديد. لم أكن لأعيرهما أي اهتمام حتى أبدى الآخر رد فعل ضجر ومهذب في آن: "إنك مثل الملك زنكار". ثم ابتسم خجلاً. أثارت جملته غرابتي. شدني الأمر ورحت أنظر

إلى الاثنين. تساءلتُ هل ذلك التعبير رائج. لقد فهمتُ أن الفتى يريد قول ما معناه: إنك تدس أنفك في ما لا يعنيك؛ خالجني شعور عارم بالاستنكار، فقال عليوي متململاً: "ألم تكف عن الاستعانة بمثل هذه الأسماء الغريبة بعد؟" شيء ما دفعني إلى الانخراط في حديثهما. قلت دون مقدمات: "الملك زنكار وضوء النهار؟" ذاع ضحك عليوي في المكان. أعرف ردود أفعاله التي يُظهرها بمبالغة أحياناً. لقد ظن أن ما قلته نكتة لكنني شعرت حينئذ بأن صديقه غاية في العفوية. لقد بدا لي مثل طفل لا يُقدر احتمالات أفعاله. رأيت الدهشة في عينيه حين قلت الاسم كاملاً لكنه توقف عن الحديث مثلما ابتلعت لساني حتى لا أفرغ ما أعرفه عن قصص الأطفال. استعاد عليوي رشده. ربما شعر بأنه جرح مشاعر صاحبه. استدرك موقفه حين قال: "أعتذر ولن أكررها، أعدكما". يبدو أن الجميع يوبخونه حيال تصرفاته المندفعة. قلت بغرض كسر جمود الموقف: "أبي مهووس بالكتب منذ صغره، حتى أنه ما زال يحتفظ بأعداد كثيرة من مجلات الأطفال". شعّت عينا صاحبنا، وأبدى إيماءة إعجاب لما يسمع. أضفت: "في استطاعته مشاركتك في متحف المقتنيات النادرة". ضحك لكنه رد فعل زائف ومفتعل. في الحقيقة إن القصة التي استخدَمَها ليفرغ غضبه في عليوي ليست فريدة ولا غابرة أو شهيرة، وأظن أنّني الوحيد الذي أحفظها منذ حين. إن القصص التي تعود إلى عقدين ماضيين كانت طويلة وتحوي تفاصيل عدة وتستغرق ساعات وربما أياماً لقراءتها. عكس ما يُنشر هذه الأيام: شحيحة الكلمات وقليلة الصفحات وممتلئة بالرسومات، ولذلك كانت القصة تأخذ حظاً وفيراً من الذاكرة. أنا متأكد أن هذا الفتى المهذب يشاركني الولع والاهتمام نفسيهما.

حين العودة نلجأ دائماً إلى سيارة تاكسي حتى نضمن الوصول في الوقت المناسب. عند مغادرتنا المقهى أخبرني عليوي بأن الشاب

المسكين لم يبرح طفولته بعد، ولا يتحدث إلّا عن أفلام الكارتون وبلا توقف. يحتفظ بكل التذكارات والأشرطة والصور والمجلات ويبحث دائماً عن مقتنيات شبيهة. لا يمانع أن يسافر من أجل هذه الأشياء؛ "مجنون! يقطع أميالاً قد تستغرق أكثر من عشر ساعات لحضور مؤتمرات أو معارض عن الرسوم المتحركة القديمة أو مؤلفي تلك القصص. إنه يصدقها. يعتقد أنه من الممكن أن يلتقي يوماً بشخصية كارتونية يشاطرها ذكريات الأمجاد التي مضت والأيام الجميلة". قهقهة عليوي الساخرة تتخلل كل كلمة وأخرى. كنت طوال الطريق أفكر في احتمالات التصريح لو بجزء مما أحبه وأخفيه. أبحث عن فاتحة للموضوع. منذ أمد وأنا أتطلع إلى مكاشفة أحدهم. ربما لو أخبرته بأنني كنت شغوفاً بالرسم في صغري أقلد الأشياء والمناظر، وأحاول تصوير أي موقف أو حدث على الورق، وأرسم غرفتي، أو لوحة إعلانية، أو طبق الغداء، أو طاولة طعام يجلس في واجهتها أبي وعلى مقربة منه أمي، وأفعل هذا بانطلاق وفرح... كنت أستعين بالقصص المصورة لأنسخ رسوماتها في كراستي: حصان "الملك زنكار" الذي تاه به في الغابة حين قصد رحلة الصيد الموسمية، مركب حارس النهر الذي استعان به "ضوء النهار" ليشق طريقه نحو أميرة الجبل، الضفدع العملاق الذي يسد بئر أهل القرية المسمّاة عين الحياة، الأفعى الضخمة التي تأكل جذور شجرة الخلود... صور متوالية تومض في خيالي بلا انقطاع. تشع وتختفي وتعاود، وتظهر وتعبر وتراوح. لقطات. لقطات. لا أظن أن الفتى المهذب يشعر براحة تامة وهو يكشف كل ما يداعب خلجاته، ولست أنا كذلك الصامت الغارق في أفعال لا تشبهني من الداخل. جاءتني فكرة قبل دقائق من وصول السيارة إلى نقطة توقف يكمل منها أحدنا بالتناوب طريقه إلى منزله مشياً حتى لا نتكبد عناء قيمة مضافة من سائق التاكسي. فكرتُ

لو أذكّرَه بقصص "سلسلة الفسائل"، حصة المكتبة، حبي الأول، سبيل أو فجوة أستغلها حتى أصل تدريجياً إلى بوح كامل، ذلك سيجعل عليوي مؤهلاً لأستعين به لو أردت يوماً مشاركة أو معونة. كل الأشياء التي نضمرها في علاقاتنا مدعاة ضيق وأبواب مواربة نأمل أن نغلقها أو نشرعها. فشلتُ هذه المرة. ترجل عليوي ولم أجد حجتي لمفاتحته الأمر. كنت بحاجة إلى دفقة جرأة تقودني إلى المنفذ الذي أتطلع إليه.

في تلك الليلة، فكرت كثيراً في الفتى المهذب. كان فرصة سانحة للتخلص من العار الذي يطل به أبي كل يوم من نظراته وكلماته، البعبع الذي يعدني به المجتمع لو كشف أحدهم أنني أقرأ قصص الأطفال والمجلات والرسومات، والسخرية التي قد تلاحقني بقية حياتي، والطابع الذي سيُحفر في أذهان الناس وذاكرتهم حين تذهب السنوات وتبقى الفكرة سجينة اللحظة التي لا تغادر الدنيا حتى إن غادرَتها. كانت ليلة مؤرقة متقلبة الإصرار والندم والأمل. مشاعر متناوبة معجونة بجملة لازمة تتردد منذ الطفولة: إنها أكثر عمقاً وبعداً مما يظنون. بعد يومين، وردني اتصال من رقم غريب. بدا إشارة جلية من السماء، الوعد العادل المُنتظر، ذلك الفتى المهذب."

٩

هذه البلاد ليست بحاجة إلى وكالات الأنباء. لا أحد يكترث للجواسيس الذين ينقلون ما يُكتب في محافظ الاجتماعات. لا أحد يثق بوعود الكتمان. المعلومات تنتشر مثل وباء فتاك، ولا موسم للحصانة. بات من اليقين أن إدارة المدونات المنشورة تعتزم إعادة تدقيق كل الكتب من جديد، في خطوة غير مسبوقة. لا عجب، لكن الدهشة نابعة من الخطة المتقنة التي جرى التجهيز لها منذ مدة طويلة على ما يبدو. هذه ليست إجراءات عجولة أو تحضيرات مؤقتة إطلاقاً.

هذه الأيام ثقيلة. عندما يستيقظ المدقّق يعتريه كرب قاسٍ ومشاعر غربة تأخذ بالتصاعد في كل خطوة تقود إلى العمل. لم يتعرف إلى نفسه آنذاك. كان سؤاله يلح بلا توقف: ما بك؟ قبل يومين حين كان يعدل قميصه أمام المرآة سالت دمعة من عينه اليمنى جرفت معها سيلاً منهمراً من العينين. ما بك؟ ليس سؤالاً فحسب. إنها حَيرة معجونة بالخوف. ما عاد يدرك طريقه المعتاد. باتت مَظاهر الاعتراض جلية ومتجددة عبر اللوحات الإعلانية والإرشادية المحاذية للشوارع.

عبارة متكررة باللون الأحمر: "لا مساومة على الحرية". في كل الجدران والمساحات الشاغرة أصباغ وقناني رش ويافطات. الشكوك تمكنت منه. أفكاره ومبادئه. الحرية! لا مساومة. ما بك؟ سيارات شرطة وبضع آليات عسكرية مرابطة في نقاط محددة طوال اليوم. الشعور بالخطر الداهم. عدو الداخل الذي قد يستيقظ في أيّ لحظة تظن فيها الشعوب أنّ الأمن أزلي يعززه الاستقرار. التوجس بالخراب المفاجئ. ما بك؟ في الأمس، لاحَظَ في صحيفة ملقاة على طاولة قريبة منه مساحات فارغة كُتب فيها بخط مائل كلمة "تدقيق". شدت انتباهه. أخذ يقلب صفحاتها، فلاحظ تكرار الفعل. الأخبار الفنية لها النصيب الأكبر. "تدقيق". صورة مطربة أجنبية. "تدقيق". بضع كلمات محررة في خبر. "تدقيق". صفحة المقالات، إحداها كُتب في أعلاها العنوان، ثم فراغ كبير تتوسطه "تدقيق"، ومذيلة في قاعها باسم الكاتب. ما بك؟ حين وجه المسؤول سؤاله ذاك، ارتبك المدقّق وحار. قال بشيء من الصراحة: "أخشى مآل نظام العمل الجديد". ظن الآخر أن مخاوفه نابعة من حرص. في ذلك الوقت، تأكد المسؤول من انصراف آخر موظف بعد انقضاء الاجتماع لكنه أيضاً خفض صوته حين قال: "أعرف أنك أدق مدقق في الإدارة". كان يوجه سبابته إلى صدر صاحبنا حين أفضى بجملته، ثم أعاد إصبعه قبل أن يضيف: "وأعرف أنك لا تمارس القراءة فقط من أجل متطلبات الوظيفة". كان المدقّق يشعر بأثر وخز إصبعه في صدره. "هذا توتر المرحلة الأولى فقط، لا تقلق، بعدئذ ستغدو الأمور اعتيادية، ثلاثة أشهر أو أربعة ثم سترى كيف ستنهي عملك

في مدة وجيزة، وبأفضل من قبل، وسيتوفر لك وقت كافٍ لممارسة نشاطك". هزَّ رأسه وانصرف.

التشاؤم طبيعة خالصة للمدقق، ومشاعره الحالية تحتاج أكثر من محاولة طمأنة وتهدئة. حالة الهلع العارمة التي تفتك به من الداخل لن تنطفئ بسهولة، خصوصاً بعد أخبار الاعتقالات الأخيرة. أحدهم تسلّق عمود لوحة إعلانية ضخمة في أحد الشوارع العامة لواحدة من الشركات الداعمة لقرارات الحكومة وشوّه صورة الرئيس التي تحتل نصف الإعلان، وكتب بجانبها كلمات بذيئة، الأمر الذي أدّى إلى استنفار عام لدى أجهزة الأمن. يتساءل المدقّق عن مدى إصرار المسؤول وبرود أعصابه الذي يدفع إلى حظر الكتب بأدنى حُجّة ممكنة، وخطواته المتشربة بالثقة واليقين... ألا يشعر بالتهديد! إنه شخص معروف على الأقل لدى الجهات المتضررة. هذه مرحلة عديمة النقاش. إعلان حالة الضرورة يعني التنفيذ دون تفكير. بات لا يُسمع في غرفة الموظفين سوى الصوت المتعاقب لضغطة زر صائدة الكلمات: تيت... تيت... تيت لا نهائية، وفي الداخل، لا تُرى وجوه الزملاء بفعل ومضات متناوبة لا تهدأ. ثمانية أجهزة تعمل بلا كلل. ثمانية مدققين مكبلين بأصفاد الآلة.

إذا أمعن النظر من نافذته، وإذا حاول أن يجتاز ببصره صحراء الإدارة إلى ما بعد السور، وإذا تبدى له طيف مركبات كبيرة، أو رَجُل يرتدي لباساً أسود يعتلي شيئاً ما، أو يطلق شيئاً ما، يعرف أنها أحداث مظاهرات عنيفة، وسيلاحظ بعد انقضاء العمل أثر الشعارات المرمية والحجارة والأرض المبللة من جراء مدافع الماء الخارقة والقنابل

المُسيّلة للدموع، وحذاء ملقى على الرصيف وملابس ممزقة وسط الشارع، وسيرى أكثر من ذلك حين يقفل عائداً بسيارته إلى البيت. حتى اللحظة انقضى أكثر من شهرين على عودتهم إلى مواقعهم القديمة لكن زمن مشاعرهم وفق الفيزياء التي نعرفها مضاعف عشرات المرات: خوف الخطيئة أو ضريبة الثبات. كل شخص يملك أسبابه الخاصة التي تعكس الهدوء العام في أرجاء المكان، وما عاد يُسمع همس زميلين، أو ضحكة فتاة في مكتب مجاور. لا صوت سوى جلبة خروج الموظفين إلى الاجتماعات التي أضحت مزعجة ومملة ومربكة. القرارات المتناقضة تصف مدى العشوائية والتخبط عند بعض الإدارات، وما عاد هناك مراجعون يدخلون للاستفسار عن كتبهم أو معاملاتهم. لقد خصصوا يومين متفرقين في الأسبوع لاستلام نتائج التدقيق. يأخذها المعني من البوابة الرئيسية خارج الإدارة. الاختناق بلغ أوجَه في هذه المدة القصيرة جداً، وأرفف المكتبات فقيرة ومثيرة للشفقة، ومواقع بيع الكتب من الخارج محجوبة، والحقائب تُفتش في المطارات، وأيّ شخص يسعى لتوزيع أو تداول كتب محظورة يعرّض نفسه للملاحقة القانونية وإجراءات الضرورة القاسية. برامج التلفاز صارت بائسة: حوارات، لقاءات، تحليلات، تنبوءات، خطط الحكومة وإنجازاتها، أغنيات قومية، إعادة خطابات الرئيس الأخيرة، إشادة المواطنين الصالحين، سعادة الأفراد المقيمين، آراء معارضة مزيفة... في معرض مديح أحد الضيوف، قال إن إجراءات البلاد تراعي مصالح المواطن وحقوق الإنسان وشفافية التعبير، وإن القيادة حتى اللحظة لم تُكشّر عن أنيابها ضد المتمردين.

المدقّق انشغل بالتعبير: كناية سخيفة لكنها مخيفة، إنها صورة لذئب لا يألف التعايش بالتفاهم المشترك. إنه ينهش ويرفض المقاومة. إنه يقتل ويأكل.

بدأت أمه تقلق بشأنه، ولم تسأله آنذاك. كانت تحاول فقط أن تتقصى أمره. إذا ما سمِعَتهُ وراء باب غرفته يتحدث إلى أحد، تحاول أن تسترق السمع لعلّها تدرك مشكلته، في حين كان المدقّق يهذي في مناماته، ويتفوه بجُمل غير مترابطة. يصرخ تارة ويقول: "أوقفوا أنين الأزرار"، ثم يكرر عبارة شهيرة لأحد الروائيين: "لا حرية لأعداء الحرية". لم تفهم شيئاً. دفعت بابنتها لتسأله هل هناك فتاة يود الزواج بها. هذه مرحلة عسيرة على شاب في مثل عمره. لم تفصح أخته عن شيء يخص زينة. صرفت والدتها عن هذه الفكرة. إنه متعب من الأوضاع الحالية والتغيّرات. لم تفهم الأخرى. "ألم يكن سعيداً بعودة عمله السابق؟" "بلى، لكن عمله لم يعد كما كان. يا أمي، ألا ترين كيف أحوال البلد؟ نعيش نكسة قاسية ويقال أننا نتعرض لهجوم من الخارج والداخل. إنها حالة مختلفة. المسائل الطارئة لا تناسب أخي". هل أفضى بما يعانيه؟ حيرة الأم دفعتها إلى مداهمته ذات ليلة حين سمعته ينادي باسم أحدهم. كان يحلم بأن النيران تأكل المطبعة وتبطش بالأجهزة والمطبوعات وصندوق التحصيل بالذات كان ينصهر بتسارع لا منطقي. اتصل بالمدير الذي جاء صوته عبر الهاتف متماسكاً وخالياً من الانفعالات لكنه وفق منطق الأحلام انتبه إلى أن حالته لا تواكب الحدث فانهار وانهزم وبان في نبرته الألم والحزن، وعندما بدأ يشعر بلسعات النيران، استيقظ. كان أول

ما طرأ في ذهنه كتاب "فتنة الشتاء". همس لنفسه: "دار خطوات".

شعر آنذاك بانفراج جزئي. هناك مَنفَذ لكنه في الوقت نفسه أدرك ضرورة التأني واختيار الطريقة المناسبة لإمكانية تطبيق ما يجول في رأسه. كان يقرأ في ذلك الوقت رواية صغيرة تتحدث عن شخص هارب إبان ثورة في بلاده ويريد عبور الحدود إلى الدولة المجاورة بطريقة غير شرعية، فيعلق في مكان ما مع ضابط مصاب على وشك الموت، فيضطر لتزجية الوقت أن يحكي له عن مغامراته الغرامية. تبدى له تشابه محدود مع إحدى الشخصيتين؛ هو عالق أيضاً مع نفسه، ويشعر بانغلاق من كل الاتجاهات. هو ضابط وهارب في آن. كان يشعر بازدواجية رهيبة يعجز عن تفكيكها. تراب يدثر بصره وصحراء خاوية في رأسه. تحدَّثَ إلى مدير المطبعة في ذلك اليوم وطلب اجتماعاً عاجلاً لتحديد مصيرهم. كانت زيارة المدقّق بمكانة أمل تَجلى في عيون العمال الذين بدوا خاملين متباطئين ومتململين إثر النكبة التي حلّت بهم. أزاح بعض الأوراق المنسية المتناثرة ومسح الغبار الراقد على مكتبه الذي أهمله ولم يعد يقضي فيه بضع ساعات خلال الأسبوع. يمارس فيه الكتابة أو القراءة ويتابع سير العمل. لم يكن قد جهّز كلماته للخوض في الموضوع. أخذ يطالع الفواتير والحسابات، ويطرح الأسئلة ويعيدها بصيغة أخرى، حتى استفسر المدير هل هناك أخبار مطمئنة. لم تكن ملامحه أو انفعالاته تنم عن شيء جيد. فَرَدَ المدقّق ذراعيه وقال كلاماً لم يزنه، وخلاصته أن الأمور تسوء والقادم لا يبشر بالفرج، ثم أضاف على ما بدأه: "إننا نوشك على القضاء على كميات ضخمة من الكتب في

مدة قصيرة جداً. لم يعد هناك تعاون متبادل بين المؤلف والإدارة. تسود أجواء من العداوة الصريحة بيننا. إننا نبحث عن ذرائع المنع فقط". أطلق زفرة قبل أن يقول: "إذا استمرت الحال على هذا المنوال، سنبيد المكتبات لا محالة. لكن لدي فكرة". كانت نبرته مترقبة وحذرة، وعندئذ بدأت رعشة تسري في قلبه، ورجفة تدب في أطرافه. لاحظ المدير ذلك فقرّب ناحيته قنينة ماء. "أرى أن في إمكاننا المساهمة في حل جزء من هذه المعضلة". كان حديثه متقطعاً مثل أحجية، والطرف الآخر لا يدفعه إلى البوح بسهولة. ثم أفضى بصعوبة: "الحل فيه مغامرة كبيرة، أو بالأحرى مخاطرة". هزّ الآخر رأسه ليحثه على الاسترسال. "سنعرض على بعض المؤلفين الثقات طباعة نسخ محدودة من كتبهم المنقحة والمصفاة من التجاوزات التي تفرضها إدارة التدقيق". ثم؟ "بعد أخذ الموافقة سنطبع النسخة التي اعتمدها المؤلّف". تغيرت ملامح المدير، وبدت خليطاً من السعادة والاستغراب: "وما الضرر الذي قد يلحق بنا؟" عبّ المدقّق صدره بالهواء قبل أن يقول بنبرة منقبضة: "لا أعرف". ثم كررها: "لا أعرف". وبعدئذ تغيّر صوته: "في كلّ الأحوال، ستكون هذه خدمة نبيلة، وستعود بالفائدة على المطبعة أيضاً". لم يعلق المدير، وترك الأمر مفتوحاً على احتمالاته، فإما أن يخسر ويعلن إفلاسه، وإما أن يمضي بكل الوسائل المتاحة.

كان المدقّق لا يفكر في غير الروائي الفارس كبوابة لتنفيذ الفكرة. لم ينسَ شيئاً مما دار بينهما في مقهى "برج الناصية". كان لقاءً وحيداً لكنه لم يكن عابراً إطلاقاً. لا يزال يتذكر، وسط هذه الفوضى،

حجته التي دائماً ما يحتمي بها عند مواجهة سؤال ينم عن السبب في بقاء قارئ واعٍ في مهنة تذل الكتاب كهذه: الوطنية، البرلمان، الديموقراطية، الإيمان. كانت إجابة مدرَسية خاوية من الأحاسيس. يشعر بالخجل عندما يربط هذا بذاك لكنه أيضاً يشعر بضيق كبير حين يتذكر صورته السخيفة إثر الكلمة الوحيدة التي ما استطاع تجاوزها، كلمة كراسة التدقيق. سعيه وخطته ومحاولته ليبدو نبيلاً أمام كاتب مفضل يعي أهمية كسب احترامه تهاوت وتدمرت وانسحقت عند كلمة ضعيفة من ثلاثة أحرف لها دلالة حقيرة. صارت لصيقة بالمدقّق في ذهن الفارس. وساوس وأفكار تذرع رأسه ذهاباً وجيئة على مدار اليوم خصوصاً في الوقت الذي يقضيه ليقلب الصفحات ويضغط زر الصائدة بلا توقف. هذه خلاصة سيئة أحاطت به بعد لقائهم الوحيد، وها قد جاءت الفرصة التي من شأنها تعيد اعتباره. لا يزال يحتفظ برقم هاتفه لكنه لم يتخلَّ أيضاً عن تردده وحذره. كانت الفكرة مربكة؛ الأوضاع العامة مزعجة وغير مأمونة العواقب، وإصدار القرارات الجديدة أو تعديلها مستمر ومتسارع. لكن ما إن يستغرق في تفكيره، حتى ينتهي إلى نتيجة حتمية: لا مناص من المخاطرة، ولا حيلة أخرى. عندما أجابه الفارس هذه المرة جاء صوته غليظاً ومتعباً لكنه لم يعرف محدثه بعد. حاول المدقّق ألا يَذكُرَ له صفته الوظيفية أولاً. قال ما معناه إنهما التقيا مرة واحدة بشأن روايته الممنوعة. "أنا الشخص الذي أخبرك عن الكلمة التي... عفواً. المفردة تلك التي حُظرت الرواية بسببها". عنَّ صوت الآخر عن انفراج: "نعم أتذكر". تلقائياً قال: "أنت موظف إدارة التدقيق، أليس كذلك؟" شعر المدقّق

بارتياح. "بلى. في الحقيقة، أتابع الأوضاع التعيسة من كثب". قاطعه الفارس: "أما زلت في الإدارة؟" "نعم"، ثم كررها إضافة إلى جملته، "نعم وأنا أود أن نلتقي للتحدث في هذا الشأن". كان في صوت الروائي شيء من اللامبالاة والسخط، صوت معبأ باللاجدوى. قال: "لم أعد بحاجة إلى المساعدة". ألقى جوابه ببرود أشعل الآخر: "أستاذ!" رد بحزم غير مألوف: "الأمر لا يقتصر على شخصكم. لدي طريقة نواجه فيها الممارسات الجديدة". عم صمت لبضع ثوانٍ قبل أن يمنحه الفارس فرصة أخرى: "لا بأس! نلتقي". هذا الاقتناع السريع في أعماقه يقول: "لا شيء نخسره". ثم أردف: "هل يناسبك غداً بعد التاسعة مساء؟" وافق المدقّق. فأضاف الآخر: "هناك بناية تجارية قريبة من البحر بجوار فندق الأمانة الدولي. سيكون اللقاء في مكتب خاص". أيّده صاحبنا: "رائع! كنت سأفضل أيضاً الابتعاد عن الأماكن العامة".

في ذلك اليوم، أفرغ علبة أقراص المعدة كاملة في أقل من أربع وعشرين ساعة، منذ أنهى المكالمة حتى عصر اليوم التالي، كما أن أظفاره استحالت مناشير صغيرة، ولم ينم أكثر من ثلاث ساعات حتى وقت وصوله إلى المبنى المقصود. قال له الروائي: "المدخل بجوار المقهى الجديد، اضغط زر الطابق الخامس". كان في انتظاره عندما فُتح باب المصعد. صافحه بحفاوة، وأدخله فوراً إلى المكتب. هناك شخص آخر يرتدي ملابس رسمية، لم تكن ملامحه تعبر عن فرح أو سخط. رغم انزعاج المدقّق جراء وجود هذا الرجل لكنّ المكان بدا له مريحاً وبسيطاً بألوانه وأثاثه وترتيبه. يحوي مكتبة صغيرة في

أحد الأركان. جلس في كرسي أشار إليه رجل الملابس الرسمية. "قهوة أم شاي؟" تطلع إليه هذه المرة وقال: "قهوة". نادى الفارس عامل المكان، وقال له: "اثنان شاي وقهوة، ثم يمكنك الانصراف". عاد ليسأله عن الأحوال والأخبار. كان الفارس يقوم بحركة آلية بين حين وآخر: يمسح بكفه العارية صفحة المكتب الذي يجلس وراءه الخالية من أيّ أغراض أو معدات. حساسية الملاحظة عند المدقّق عالية جداً. يشعر بتحفز تام لأي كلمة قد تصدر منه أو سلوك يُعنى به. انتابته مخاوف فشل إثر جزئية لم يدرسها جيداً قبل طرح موضوعه. قال: "سمعت أنهم وفروا عليكم عناء قراءة الكتب". ابتسم الآخر: "لكن القراءة بالنسبة إلي ليست مرهونة بالعمل". اتسعت حدقتاه: "هذا رائع". ثم سعل. "عموماً، ما الموضوع الذي وددت التحدث فيه". تردد المدقّق، وعمل ذهنه بضع ثوانٍ قبل أن يقول بنبرة حذرة: "هو خاص جداً، وقد يعرضني لمساءلة قانونية أو ضرر". ثم سكت. أمعن الفارس في وجه محدّثه لحظة: "هذا صديقي وشريكي – مشيراً إلى رجل الملابس الرسمية – ليس غريباً أبداً. هذه المؤسسة تخصّنا نحن الاثنين منذ أكثر من عشرين سنة. تجارة في استيراد البضائع الخارجية وتوزيعها على الأسواق الشعبية. يمكنك الخوض في موضوعك دون خوف. لا بأس". أعاد ترتيب أفكاره مجدداً، وقال في نفسه: "المخاطرة المحتملة أكبر من بوح ما يجول في رأسك أمام رجل لا تعرفه". ثم قال: "لقد ورثت عن أبي مطبعة صغيرة تحتل مساحة مئتي متر تقريباً في المنطقة الصناعية الشمالية"، ثم أطرق لحظة، "وهي قد عملت جيداً قبل الأزمة". كان قد ارتجل اسم الحالة

التي تعيشها البلاد. "الأزمة"... "في طريقها لتدمير هذا النشاط، لا الكتب ولا الدوريات، ولا حتى الصحف، ما عادت تطبع أعداداً ورقية كثيرة. انصرف الناس عن الاهتمام بقراءة الأخبار وما عادت تشعر بتنوع الآراء". كان الروائي الفارس يهز رأسه خلاف زميله الجامد. "نملك أجهزة في مقدورها طباعة الكتب بالتجزئة: نسخة واحدة بثمنها، أو حسب الطلب، وهذه ميزة فريدة من نوعها، ولا تُكَبد الطرفين أي خسائر". أحضر العامل كوبَي شاي وفنجان قهوة وضعها مع كؤوس الماء وانصرف. "قبل أكثر من سنتين، تحديداً قبل مظاهرات رفع الحظر عن الكتب مباشرة، لاحظتُ أحد زبائننا الناشرين يطبع أعداداً قليلة من كتبه، ثم يعود بعد أسبوعين ليطبع كمياته الكبيرة. دار خطوات. أظنك تعرفها. خطوات. شعارها صورة سُريالية لشارع ممتد". مال الروائي برأسه قليلاً: "لست متابعاً جيداً لدور النشر الحديثة". تابع دون أن يتوقف عند إجابته: "كانت تردُنا كتبهم إلى إدارة التدقيق، ولأنني شعرت بمسؤولية وفضول حيال ما ينشرون، اضطررت ذات مرة أن أقرأ كتاباً يخصهم في العمل، وأكملته من النسخة النهائية الواردة للمطبعة، فاكتشفت أن الاثنتين ليستا متطابقتين". لاحت ابتسامة صغيرة من فم الفارس: "تقصد أنه يرسل نسخاً مشوّهة إلى الإدارة وينشر أخرى بشكلها الصحيح". ما لفت انتباه المدقّق حينذاك أن الروائي استخدم لفظ مشوّهة بدلاً من معدلة أو مختلفة. فأجابه: "هذا صحيح".

سعل الروائي مرتين. كان صاحبه يربت على الطاولة بأطراف أصابعه لا أكثر. أما الأول، فخفض أنظاره في محاولة لموازنة

الأمر ومراجعته، ثم عاد ورفع رأسه مجدداً. لاحت لمعة خاطفة في عينيه: "وأنت مستعد لتقديم هذه الخدمة؟" "نعم"، قالها دون تردد، وأضاف: "لا أخفيك، إنني على يقين أننا إن لم نحاول فعل شيء، فستنهار الهوية والثقافة كلّها، ولن يكتب الكاتب ولن تعمل المطابع، ولهذا وددت مساعدة الجانبين". عنّت تنهيدة من أعماقه: "المطبعة تأتي أولاً، ثم يأتي الكتاب". لم يبادله صاحبنا الكلام. أخذ رشفة من فنجانه، ووزع أنظاره بين رجل الملابس الرسمية والروائي في حالة رغبة لإشراك الآخر في الحديث: "لقد شعرت بالإهانة بعدما أخفقت في إعطاء روايتك التصريح اللازم، وشعرتُ بأنني خسرت احترامك". هز الروائي رأسه بتفهم قبل أن يضرب المكتب بكفه. "اسمع!" كانت نظراته حادة هذه المرة. "الأوضاع القائمة تُنبئنا باصطدام حتمي قادم، ما يجعلنا لا نثق بأحد". تساءل المدقّق في نفسه عن سبب استخدامه صيغة الجمع. "إذا صَدَقت نياتك، سيكون لك دور مهم في معالجة الأزمة". كان من الملاحظ جداً أن الروائي استخدم المسمى نفسه: الأزمة. في تلك الليلة، عاد متأخراً إلى منزله منتشياً بمشاعر النصر. وجد والدته تنتظره في غرفة المعيشة، فقبّلها وحضنها واستلقى بالقرب منها. أخذت رأسه إلى حجرها، وراحت تتحدث إليه وتعبث في شعره. كانت تتلمس سعادته رغم الإرهاق الظاهر في عينيه، الأمر الذي جعلها تتخلى عن محاولة طرح الأسئلة ونبش ما يجول في رأسه وقلبه. باغته النوم في مكانه دون أن يشعر. أتاه صوت أجش في حلمه لشخص يقف فوق رأسه يقول: "أيها المتتبع، أيها الوصي النذير مصحح الذنوب والأخطاء، أيها المُراقب

المُلاحق، أيها الكاشف حامي التقاليد والأعراف، أيها الوصي النذير، أيها المُراقب المُلاحق". أخذت الكلمات تتكرر وتتصاعد وترن وتزن وتعاود طوال الليل. لم يكن في استطاعته أن يرى الشخص الذي يتلو عليه جملته لكنه فهم أنه والده. تمكن بطرف عينه فقط من رؤية خصلة من شعره الأجعد. استيقظ في اليوم التالي وأحس بغم جاثم على صدره. انتبه بعد قليل أنه نام في فراشه بثياب البارحة.

لم يبدأ يومه بعد حتى واتته أخبار اعتقال الروائية المُغامِرة! شعر بالغثيان وحرقة في معدته. تساءل في غمرة تقصيه عن الأسباب: هل الحكومة عامدة في هذا الإجراء. تشير الأخبار إلى أن الكاتبة المشهورة وجهت تهديداً مباشراً إلى القيادة في واحدة من خطاباتها الكثيرة في المرحلة الماضية. "محتَجَزة على ذمة التحقيق بعد أن قالت إنها أول من سيقود ثورة جديدة لاستعادة الحرية والقوانين الشرعية". "متهمة بالإساءة الصريحة إلى الحكومة وخرقها النظام العام". "على المرء تحمل عواقب أقواله". "مدانة بمعاداة سيادة الدولة". ما استطاع المدقّق الذهاب إلى عمله. تقيأ في أول ساعة من صباح ذلك اليوم. كان الخبر حديثاً عاماً ومتداولاً في جميع المحطات الإخبارية التلفزيونية والإذاعية. نشرته الصحف جميعاً مرفقة معها صورة التُقطت لها داخل الإدارة الأمنية. كانت تجلس على كرسي بالقرب من غرفة التحقيق. يبدو أنهم ألقوا القبض عليها ليلاً. كان منظرها رثاً مهلهلاً وملابسها متغضنة وعلى قسماتها الغضب. حتى ظُهر ذلك اليوم تقيأ المدقّق ثلاث مرات. مشاعر الأسف أو التشفي تعتري كل من ينظر إليها وهي تشيح بوجهها عن الكاميرا

كأنها تستحي المواجهة. ما كانت هناك وسائل إعلام أجنبية هذه المرة، ولا جهات موثوقة تُفسر المشاعر التي تبعثها هذه الصورة. هل أسيء معاملتها، أم لم تتعاون مع أجهزة الأمن. لوحة كلمة المحقق أعلى منها، فوق رأسها، المعاني والدلالات، العين بالعين... كانت متشنجة في جلستها، وتصالب ذراعيها، وتنظر إلى الجهة الأخرى. قبل العصر ما كان في استطاعة المدقّق المقاومة. أخرجت معدته كل عصاراتها، كل السوائل الممكنة. جفاف ظاهر في شفتيه وعينيه. قيء فارغ، كاذب، مجنون. ما استطاع متابعة الأخبار. يقال أنها ستُحبس أكثر من عشرين يوماً. أخذوه إلى المستشفى.

١٠

"هذا الدواء يؤخذ عند الضرورة فقط. يُسمح، كحد أقصى، أربعة أقراص في اليوم الواحد. لستَ بحاجة إلى تناولها كل ساعة وأخرى. هذا قد يتسبب في ضعف لوظائف الأمعاء الغليظة. ليس هناك رابط بين التوتر والقهوة والمعدة. أنت تتوهم العلاقة والعلاج. عليك إجراء التحاليل اللازمة لمعرفة مشكلتك الحقيقية. اسمع! لا تتناول تلك الأقراص إطلاقاً. دع جسمك يتخلص من المواد الكيميائية. غيّر نظام غذائك. الدهون الضارة، السكريات، الأملاح... اهتم بنفسك، واقذفِ الأقراصَ في أقرب حاوية".

عادت الأم تطلب من ابنتها أن تتحرى أمر ابنها. قالت: "إنكِ تهذين بترهات العمل والكتب، هذا الولد مأسور بإحدى الفتيات. أنا أعرف. سيصارحك وسيخجل لو سألته مئات المرات. هذا ابني، أعرفه جيداً". وبصرف النظر عما تشعر به الأخت من غبطة وغيرة هي تعرف أن المدقّق أقرب إلى أمه منها، لكن المشكلة الحقيقية تكمن في كونها تعرف - أيضاً - تلك الفتاة التي تقصدها الأم، زينة، ستنتشله مما يعانيه، وستغيّبه عن الدنيا. لو تبتسم له مجدداً، لو

تلاطفه بكلمة، لكن لا علاقة ستجمعهما في خيالات الأخت نهائياً. حاولت مجدداً إقناع الأم بأن الأمر مختلف، وبطريقة أخرى، قالت: "بالفعل، صارحني بحبه لفتاة منذ زمن يا أمي لكنه كرهها بعد حين. هو لا يريد الزواج. لقد صُدم جرّاء علاقته الأولى وفضّل أن يمارس علاقته مع الكتب". "أنتِ بلا قلب، ولا تعرفين أخاك كما يجب". وفي المساء، أسرّت له أمه لما انفردت به في غرفته: "يا حبيبي، لقد كبُرتَ وما عاد يليق بك أن تظل عازباً. يا حبيبي، أعرف أنك ترغب في فتاة ومنذ زمن بعيد". مع أن المدقّق فوجئ بما جاءت به والدته، فإنه لم يكشف عما داخله: "ليس أكثر من مرض، يا أمي". وعندما يعود إلى نفسه، يراجع الأحداث وما خلّفت من آثار، فيسأل عن نقطة التوقف، التحوّل التي قطع وصلهما، الاختفاء المباغت، الحالة التي دعت إلى إعادة النظر في جدوى الاستمرار. لو سألت المدقّق الآن: إلى أي مدى تحب زينة؟ أحبها كما لو كنت للتو قد رأيتها أول مرة، أحبها كإحساس الوهج الذي يشتعل في القلب حين أتخيلها كل ليلة. لكن مهارات المدقّق في الحب لم تكن لتسعفه وتعينه على شخصية مثل زينة. غامضة ومتملكة. كانت تهمل الرد على اتصالاته المتكررة، وتغضب عندما يلح عليها بأسئلته الكثيرة، تلك الوساوس التي تبتغي تأكيد انجذابها إليه. "قولي أحبك. أريد سماعها الآن. إلى أي مدى أثير إعجابك؟ ماذا لو مت! ستبكينني؟" يقضي الليالي يراجع ما قاله وما قالته. ربما كان لجوجاً بعض الشيء. ربما كانت عواطف الدهشة الممزوجة بالفرح تقوده نحو تلك التصرفات. هو لا يصدق أنه توصل إلى زينة. كان يشعر بأن

حاجزاً صلداً يحجب عنه مناله، لكنها أيضاً مارست تظاهرها بالصد واللامبالاة وكان يبادلها ذلك بالمزيد من اللطف والتقرب رغم النار المتوقدة فيه. المدقّق واضح بسيط وحساس، ولا يجيد التعامل بغير ذلك، لكن استمرار الأوضاع وتوقف علاقتهما من جانبها... الأشهر الأولى، حين الحوارات الطويلة وسرده القصص الكثيرة المتكدسة في ذاكرته. شهريار العصر الذي تبادل الأدوار مع شهرزاد. يحكي لها كل ليلة هاتفياً. يسهران حتى يشق الضوء فسحته. بدأ يشعر بعد وقت أنه يحدّث نفسه وأحس أنها صارت تتململ وتتهرب وتصطنع المشاجرات. في لحظة مواجهة، استدرك بأنه باع نفسه. أشار إليه أحدهم أن يتركها ويغيب. ستأتي إن كانت تحمل في قلبها ما تحمله. وبصعوبة بالغة، مضى في أمره واختفى بعذاباته وقهره. يقاوم البُعد. يحاول التماسك والصمود أمام جبروت جاذبية الحب. لم يكن في مقدوره آنذاك أن يقرأ حرفاً واحداً. كانت حالة مغايرة لا مثيل لها، انكساراً عظيماً لم يعش مثله من قبل. كانت كل أحرف الكلمات مكتوبة باسمها، زينة. زينة. زينة. لا شيء سواها. ماتت الأشياء في ذلك الوقت، ولم تكن الحياة كما يعرفها الآن أو كما من قبل. نسي لذة ما يستلذ به. يوماً وآخر تشتد الصعاب ويضيق الخناق. يوماً وآخر لانت المشاعر أو تصلبت. يوماً وآخر عادت الأفكار إلى فلكها ودارت حتى لاحت رسالتها. انتَصَرتُ. صوت داخلي صرخ بقوة. نجح الأمر. عادت تسأل وتعتب غيابه. شعر بأنه اكتسب مهارات وفهْماً خاصاً لهذا العالم الذي ظنه يوماً أسهل من كل هذه التفاصيل المعقدة. الحب. ذلك التبادل اليسير بعد الإعجاب والمصارحة. لا.

بات عليه أن يصحح هذا المفهوم. زينة. أظهرت حبها وتقربها على نحو غير معتاد. الحب. معادلة وأسلوب ونظام.

لكنه فَقد شيئاً من حماسته. بدأ يراجع بعض أفكاره. قال لنفسه بصيغة قرار: "زينة قد لا تصلح". لكن خطته التي تقتضي قراءة عشرة آلاف كتاب قبل الزواج أفصح عنها بعد هذا القرار. ليس بقصد، وإنما بات يفقد اتزانه بين حين وآخر. يقول الأشياء من أجل مشاعر الاعتداد والثقة لكنه يُصَّدق ما يقوله ويمارسه كحقيقة. كان يريد لزينة أن تتزوج إنساناً عظيماً متمكناً من إيجاد خلاص منطقي لكل المعضلات، وجواباً متيناً عند أي سؤال، لكنها تلقت هذا الكلام بكثير من القلق وبدأت تنسحب تدريجياً حتى اختفت. في الأثناء، كانت حساباته الخاصة قد تغيّرت. لم يسعَ إلى ملاحقتها. ستأتي بعد حين. وانغرس في حمولته من الكتب يمعن في قراءة كتاب الشجاع المحدودب وصديقه الذي يمتطي حماراً، وكتاب الولد المراهق الساخط الذي يوزع شتائمه على الأشياء، وكتاب الفتى الورع الذي يسعى إلى بلوغ بيان الدنيا رفقة المُعلم المؤدِب، وكتاب الأساطير الذي يفكك الدلالات ويجانس المفاهيم، وكتاب العصور وعصف التاريخ ودقائق التفاصيل، وفلسفة الفن الذي يتناول الشعر والحكاية، وكتاب منبت الأديان وحوائج الإنسان، وكتاب رأس السياسة لغايات الدول وإدارة القيادة. قرأ من هذا وطالع من ذاك ومضى إلى هدفه كأنما وجد كنزه من جديد، وأعاد اكتشاف الطفولة، وهكذا... يعيد أو يحاول استعادة السبب الذي فرقهما. ربما يعجز عن تصديق أن ما وراء ذلك مشاعر لحظية لأسباب قد تكون واهية وغبية، لحظة

قرار متعجل وثقة عالية تبعه انجراف خالي الإدراك. افترض أنه أمّن الأوضاع من ورائه ومضى يطارد الكلمات والروايات. نالت منه الأفكار في الليلة التي عرضت عليه والدته الكشف عن فتاته الساحرة.

"يا أختي، لمَ تبذلين هذا الجهد لإقناعي بضرورة التخلي عن فكرة الارتباط بزينة"، قالها فجأة مساء اليوم التالي عندما جلس بالقرب منها وقت مشاهدة برنامجها التلفزيوني. كان يشعر حينذاك بأنه يحتاج محبوبته فقط، في وقت عصيب كهذا، هي التي ستعيد إليه ألق الحياة بعدما انطفأ. لم تدخر أخته جهدها لتدافع أو تواجه وتدحر التُهمة المنسوبة إليها. تلقت الكلام بهدوء وأخذت تمعن في شاشة التلفاز بضع ثوانٍ قبل أن تلتفت إليه بحركة آلية: "أريد مصلحتك". زفرت جوابها الجاف المشوب بنبرة غضب أو نفاد صبر. حساسية الآخر جعلت منه يعرض عن جدال متوقع. لقد بلغه القصد، وما من حاجة إلى إيضاح أو تفسير.

تلقى اتصالاً من الروائي الفارس بعد يوم آخر. أخبره برغبتهم في زيارة استطلاعية إلى المطبعة. المكان ونظام العمل. يعتزمون البدء في تنفيذ الخطة. اتفقا على الموعد بعدما أرسل إليه العنوان. بعث إليه الفارس رجل الملابس الرسمية. كان المدقّق ينتظره في الخارج حتى يُسهّل عليه مهمة الوصول إلى مدخل المكان. الشارع والساحات المحاذية للمبنى مكتظة دوماً، ويصعب الحصول على فسحة مناسبة لإيقاف السيارة. اضطر أن يركن عند بقالة على مسافة منه. تصافحا ببرود ظاهر عند المدخل. أخذ نظرة شاخصة على ما يحيط بهم: مطعم وجبات سريعة، مقهى، محل لبيع الورود، جزار، فرع أحد

البنوك يلوح على الناصية. "منطقة فوضوية"، قالها رجل الملابس الرسمية وهو يلوك طرف عود أسنان يظهر بين شاربِه الكث. تلك أول جملة تصدر عنه أمام المدقّق منذ لقائهما في المكتب. نبرة ساخطة. كان بانتظارهما المدير في الداخل. أخذ ضيفهما يتفحص الماكينات والمدقّق يشرح طريقة العمل وتَدَرُج صناعة الكتاب. ناوله ملفاً محفوظاً في ذاكرة إلكترونية لأحد الكتب. طلب منه طباعته على سبيل التجربة. لم يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق. سرعة قياسية! دفع إليه نسخته كأنها أُخرجت من العدم. عندما أمسكها رجل الملابس الرسمية، لسعته حرارة من جهة طيّ الغلاف. اعتذر المدقّق: "هذه حرارة الغراء الذي لم يتماسك بعد، سيكون بحاجة إلى عشر دقائق أخرى". لم يعر الآخر أهمية لهذا. أسند الكتاب على طاولة قريبة وأخذ يقلب الصفحات بصمت قبل أن يسأل: "كم مخرجاً لهذا المبنى؟" نظر المدقّق إلى المدير الذي أجاب من فوره: "اثنان: مواجه للشارع وآخر جهة الساحة الجانبية يُستخدم لإدخال البضائع وإخراجها". هزّ رأسه، ثم أخذ شوطاً على امتداد نوافذ المطبعة يطلّ على الشارع في الأسفل، ويمعن في الطرق المؤدية إلى داخل المنطقة وخارجها. أشار نحو مبنى يتراءى من بعيد: "هذه إدارة حكومية؟" أجابه المدير: "هيئة استصدار تراخيص قيادة السيارات". هزّ رأسه مجدداً. ثم عاد ليرمي بسؤال عارض: "هل يلزمنا الحضور لتسليمكم الكتب أم هناك طرق أخرى؟" شعر المدقّق أن الرجل يجهل تماماً مسائل التكنولوجيا. عاجله المدير: "بالإمكان تحويلها مباشرة عبر البريد الإلكتروني".

ثمة مشاعر غير مريحة في التعامل مع رجل الملابس الرسمية. رحل ذلك اليوم دون أن يعطي أي أخبار أو تعليمات لما تتضمنه الخطة المقبلة. لم يعر المدقّق أهمية للأمر، واعتزم البدء في تنفيذ طريقة جديدة وطارئة في التعامل مع القراءة. أخذ يجمع ثلاثة كتب يُجهز عليها دفعة واحدة، وإذا ما اضطر، قد يضيف كتاباً رابعاً. يراعي تنوعها: رواية، ديوان شعر، تاريخ، فلسفة... وهكذا. يقفز بين مئة صفحة وأخرى من كتاب إلى آخر. المدقّق إذا ما حدس بدنو خطر قريب أو مباغت يبدأ يسلك هذه السلوكات الغريبة. يتذكر الروائية المُغامِرة. الجهة المُعارضة لجأت في دفاعها إلى مكانتها الثقافية. الحكومة تهين رموز البلد. مطالبات بتدخل دوليّ للحفاظ على شخصية ذات طابع عالمي. الروائية ليست ملكاً خاصاً. مساهماتها في إثراء أدب المناطق الوسطى. القضايا الإنسانية التي دافعت عنها في أعمالها الروائية. سكون عام داخلي وخارجي يثير المخاوف. لا تصريحات ولا تعليقات من أي مسؤول أو مثقف ينتمي إلى دول الجوار، ولا أي فرد ينتسب إلى أي بقعة على هذا العالم المترامي. الشكوك بلغت حد ظن الناس أن هناك تنسيقاً مسبقاً بين حكومة البلاد ودول عظمى. من يدري؟ تَذَكر المدقّق ما قاله المسؤول: "هذا نهج في طريقه أن يصير عالمياً". الحكومات تخطط وتنتهج لكن للشعوب آراء أخرى. في اجتماع العمل الأخير، قبل الوعكة الصحية التي ألمّت به، تساءل المسؤول متهكماً في معرض حديث جانبيّ: "ما حال الكتب التي منعناها بعدما سُمح لها بالتداول بين القراء مدة تجاوزت السنتين حين أُزيلت إدارة التدقيق؟" "لا شيء". "إن الكتّاب

يحبون تعاطي مشاعر الاضطهاد والمكابدة، أو تلبّس الظلم والقهر لأسباب خاصة قد تعينهم على اختلاق القصص والحكايات".

عند عودته من إجازته المرضية التي صادف اتصالها مع عطلة نهاية الأسبوع، التقى المسؤول عند مدخل الإدارة. كان الأخير مبتهجاً أكثر من المعتاد. صافحه وضغط على كفّه وقرّبه من صدره. حركة أشبه بالاحتضان. قال: "سمعت أنك تعرضت لحالة تسمم خطيرة". فكّر المدقّق في ما قد يطلق عليه تسمم. الحالات البدنية هيّنة. أجابه: "فقدتُ خمسة كيلو غرامات من وزني خلال الأيام القليلة الماضية". ربت الآخر على كتفه وهما يهمّان لصعود الدرج، وقال: "لقد أتممنا مهماتنا الصعبة. قلت لك: الأمر لن يستغرق مدة طويلة. أنجزناها في وقت أقل من المتوقع". سرت رعشة في جسد المدقّق، وعنَّ له أن يستفسر عن مقصده المباشر رغم وضوح المعنى. افترقا عند الممر المؤدي إلى غرفة المدقّقين. التقط أنفه عند مدخل الغرفة رائحة عطر فواحة. وجد ثلاثة موظفين قدامى كانوا دوماً يصِلون باكراً لكنهم يجلسون هذه المرة بلا عمل. يرتشفون الشاي. أحدهم على غير المسموح يُشعل سيجارة. "صباح الخير"، رد الزملاء بصوت يتخلله الإرهاق. "ما الذي تغيّر بعد غياب يومين فقط؟ هل يكافئكم المسؤول؟" رد الزميل المجاور: "مكافأة بالإكراه"، ثم أطلق ضحكة قصيرة. لم يفقه مقصده، والتَفتَ نحو الزميل المدخن وأشار إلى لوحة معلقة في صدر أحد الحوائط: "ممنوع التدخين". أشار الآخر بكفه دلالة على قلة الاهتمام، وأضاف جملة أثقلت عليه مزاجه: "الآلة إذا ما حمّلتها فوق طاقتها محتمل أن ينتج عنها دخان. نحن أقل من آلة".

في اليومين الماضيين، طلب المسؤول تكثيف الجهود ومضاعفة طاقة العمل، وصار ممكناً إنجاز كل الكتب قبل نهاية الأسبوع. سبع آلات لسبعة كتب تقلّب صفحاتها بوتيرة واحدة، صفحة صفحة بالتزامن، ودون توقف. نتج منها غيمة غبار. عمّ المكان رائحة تراب. هل هذا يفسر سبب العطر الفواح؟ انتهى العمل جزئياً، ولم يتبقَّ ما يدعوهم لمناهزة الزمن. قال الزميل المجاور: "لقد احتفظنا بحصتك من الكتب"، مشيراً نحو مكتب المدقّق الذي تكدس بِرُكام من ورق. تعاليم المسؤول تقتضي ألا يتحمل أحد أعباء الآخر. دائماً ما يزوّد كل موظف بحصته حتى إن لم يكن موجوداً. يضعها على مكتبه ويرحل. قضى صاحبنا ذلك اليوم يمارس العمل بمفرده حتى بعد اكتمال بقية الموظفين. زر آلة واحدة يفسد سكينة اليوم. قال أحدهم: "ننتظر الآن تظلمات المؤلفين. أظننا سنعاود قراءة غالبية الكتب التي حظرناها". بعد نهاية العمل، حين رحل الجميع، قرر المدقّق أن يبقى مدة أطول ينجز عمله المتأخر. ظلّ يشتغل بجد وتركيز: يقلب الصفحة، يضغط الزر، يراقب الشاشة، يكرر الفعل حتى يصطاد كلمة، يرمي الكتاب في ركن المحظورات بعد أن يطبع تقريرها الإلكتروني. راح يعيد العملية حتى واتته رائحة خانقة يعرفها اجتاحت غرفته بغتة. هذه المرة مكثفة على نحو لا يطاق. هاجمه سعال حاد. بَدأت ذاكرته تستعيد ارتباطات متعلقة بها. التفت ناحية النافذة في حركة آلية فجائية: مشهد صادم في مواجهته. لم يستوعب حينذاك ما تراه عيناه. أمعن جيداً. كانت عشرات المخاريط المعدنية موزعة عشوائياً في الساحة الترابية، وعشرات العمال يديرونها. رجل

أسفل المخروط وآخر في الأعلى ومئات بل آلاف الكتب تحترق. لم يكد يلاحظَ المسؤول الذي يقف على بُعد معقول يسمح له بمتابعة العملية بوضوح.

***

III

"المعذرة. لم أشأ التطفل. لقد توصلت إليك من صديقنا المشترك"، يتسرب هسيس الفتى المهذب عبر الهاتف. أخالنا نتحدث خلسة. شككت فيه بادئ الأمر، واضطررت أن أطلب منه أكثر من مرة تكرار كلمة أو جملة. "لم أسمع". "عفواً! لم أفهم الفكرة الأخيرة". عانيت طوال مكالمة دامت أكثر من نصف الساعة بدأها بنصيحة: "لا تقُل لأحد عن كتب ومجلات الأطفال التي تخص والدك". ثم قرر أن يحكي لي قصة تخص واقعة حقيقية ومستمرة كنت إلى حينئذ لم أفهم مراده. أحسست بأنه سيأخذني في حديثه إلى بقعة مختلفة لا تمت بصلة إلى ما يجمعنا. قال إنه لا بد لي أن أتوخى الحذر، حتى لو أخذتُ حكايته على محمل المزاح أو العبث. كنتُ أجاهد للمحافظة على التركيز والإصغاء، وأضغط بسماعة الهاتف على أذني. قبل أكثر من عشر سنوات، نشرت الصحف خبر اعتقال الرجل الذي يشعل النيران في مكتبات مدارس الناشئة. لم تكن المنشآت التعليمية آنذاك قد اعتَمَدت استخدام كاميرات المراقبة، وبسببه، تغيّرت الأمور. كل أسبوع تقريباً يختار مدرسة ليتسلق أسوارها. "عفواً لم أستوعب ما قلته". "يتسلل إلى المدرسة عبر أسوارها. يقفز منها إلى الداخل. يُغرق أبواب المكتبة ونوافذها بالكيروسين. يشعلها ويهرب. مرة بعد أخرى

شَعرَت السلطة الأمنية بتعمّد مدروس". تذكرتُ حينذاك: قبل عشر سنوات كنتُ في مرحلة دراسية ناشئة ولم يمس مكتبة مدرستي أي سوء. قال الفتى إن الرجل... لم أسمعه جيداً. طلبتُ منه أن يعيد. قال: "خرج الرجل من الحبس خلال التحقيق بوصفه مختلاً عقلياً. أرسلوه إلى مصحّة خاصة لكنه لم يمضِ فيها أكثر من شهرين إلى ثلاثة، يقال أنه رجل مقتدر". "ماذا؟" "مقتدر. مقتدر. يملك قدرة مالية وفيرة. توقف عن التعرض للمدارس لكنه استمر في مزاولة نشاطه في المكتبات الخاصة. لا يحرقها، وإنما يتلفها. ينزوي ويستغل أيّ فرصة ليغرقها بالماء أو يمزقها. إذا وجد صعوبة، يشتريها ويتخلص منها". سألتُه عن سبب تصرفه: ما المزعج في قصص الأطفال؟ "عُقدة"، ألقى جوابه دون تكلّف عناء الشرح. عُقدة! كان ردّه على المحقق آنذاك أن تلك الكتب سبب بلاء الناس، ومنبت الشرور والفساد. لم يأخذ أحدهم كلامه على محمل الجد. شملني إحساس مباغت بأنني أضيّع وقتي في مكالمة مرهقة. حاولت مراراً أن أبيّن له عجزي عن سماعه جيّداً لكنه يمضي دون أدنى مبالاة. لم أشعر في المقهى بأنه ثرثارٌ إلى هذه الدرجة. قال إنه تقصى تاريخ الرجل، وحاول أن يعرف علّته أو السبب الذي يدفعه إلى هذا الفعل. كان المهذب قد حصل على أعداد من صحف تعود إلى زمن الحدث نَشَرَت أخبار الواقعة وتفاصيل استجوابه. لم يجد معلومات نافعة حول ما وراء تلك الأفعال الغامضة. كانت هناك زاوية لأحد الأطباء النفسيين فقط يحلل فيها الدوافع الغريزية لارتكاب أفعال شبيهة. "هلّا ترفع صوتك رجاءً". "يتحدث الطبيب في زاويته عن علاقة طردية لما تتعرض له طفولة الفرد وما يؤول إليه في المستقبل. يبدو أن قصص الأطفال كانت سبباً – في اعتقاده – في بلاء عانى منه طوال حياته". وددت حينذاك أن أسأل الفتى صراحة عمّا نخلص إليه من هذه القصة المؤثرة لكنني

لم أجد الفرصة السانحة لمقاطعته. قال إن الرجل الذي يشعل النيران صار يبحث عن الأشخاص الذين يجمعون القصص، أولئك الذين يحتفظون بمكتبات خاصة تعج بمجلات الأطفال، أمثالي ووالدك. لا أنكر أن الفضول الذي اعتراني هو ما قاد استمرار هذه المكالمة لكنني لم أخفِ نبرة المناكفة حين سألته عن مصدر معرفته هذه المعلومة، فرد عليّ بلهجة حاسمة: "لأنه يلاحقني!"

أراد أن يتم المكالمة لمّا أردف أن الرجل كان يراقبه في المقهى يومذاك، وسألني هل كنتُ قد لاحظت ارتباكه وتوتره لكنني قاطعته بطلب لقاء عاجل عوضاً عن مواصلة الحديث في شأن غريب ومثير عبر الهاتف. فتى مثل المهذب لا يقطع طرقاته بحافلات المواصلات أو بسيارات التاكسي. والده يوفر له سائقاً خاصاً يقله أينما يشاء. انتظرته في غروب ذلك اليوم قبالة باب البيت. ركبت السيارة فور وصوله وطلبت منه أن يغادر المنطقة فوراً خشية أن نصادف عليوي يتجول بالقرب، الأمر الذي سيعرضنا لوابل من الأسئلة. ليس من المعتاد لشاب في مثل عمره أن يجلس في المقعد الخلفي. يتقمص دور رجل أعمال أو شخصية ذات شأن عام. كان يحمل معه حقيبة كتف جلدية أنيقة بنيّة. أحسست بأنني أمثل دوراً بطولياً في أحد الأفلام البوليسية. رائحة عطر عبقة شتتت تركيزي في البدء، قبل أن يسألني عن مكان ملائم نتحدث فيه بعيداً من تطفل أي شخص. كل الأماكن التي تخطر لي لا تناسب طبقة الفتى. أوكلت إليه الأمر، فاقترحَ أن نتناول وجبة عشاء في فندق ناصية المنطقة التجارية القريبة من منزلي. دعوة في مطعم شبه خالٍ تسمح له برصد مراقبة الآخرين له أو تنصتهم المحتمل على حديثنا الخاص. لا مانع. خجلتُ أن أكشف له أنني لا أملك فلساً واحداً في محفظتي، كما أنني لا أتآلف عادة مع الأماكن الفاخرة. لكن لا مانع. كانت طاولة المطعم في شرفة تطل على بهو

الاستقبال. كبيرة كفاية وتسع لأربعة أشخاص. المكان هادئ إلا من أصوات جر عربات الحقائب وهمهمات من الأسفل. هذا الفندق عريق جداً لكنه متجدد ومحافظ على أصالته. لم نكن بعد قد تطرقنا إلى الحديث عن أي أمر خاص بالرجل الذي يعادي قصص الأطفال. كنت مشدوهاً فقط لهذا الحدث الطارئ والجديد على حياتي. لن يجيء عليوي إلى هنا. قلتها لنفسي باطمئنان حين نهض الفتى المهذب يستطلع الجوار ويجول بنظره في المكان، وقبل أن يأتي النادل سألني الفتى عما أريد تناوله، فأوليته الأمر مجدداً. كان الوقت مبكراً. الساعة تقريباً ما بين السادسة والسابعة. لا تناسبها وجبة دسمة. شيءٌ خفيفٌ لا أكثر. بدا عليّ أنني لا أعرف التعامل مع مطاعم من هذا النوع. تنبهت للحظة أنني كنت قد خططت لمفاتحة المهذب بالحقيقة. أعترف له بأن المتيّم بقصص الأطفال أنا لا أبي. قال إنه مسرور جداً لكوني اهتممت بقصته إلى درجة طلب لقاء مباشر. لقد عَرض الأمر من قبل على عشرات الأفراد، منهم من كان يضحك ويقلل من أهمية الأمر وآخرون كانوا يؤجلون الحديث إلى أجل غير مسمى. لم يتح له أحدهم الفرصة ليبرهن صحة قصته. أَخرَج من حقيبته التي وضعها على الكرسي المجاور ورقة مطويّة عن نسخة لخبر مقتطع من صحيفة قديمة. فردها على الطاولة وأشار إلى صورة بورتريه جانبية لرجل حليق الوجه حاد الملامح هزيل القوام. تحت عينيه خط غائر لافت. قال: "ها هو الرجل. وهذا خبر اعتقاله". تناولت منه الورقة وقرأت التالي: "تَمَكنت شعبة السلطة الأمنية الجنوبية من إلقاء القبض على المخرّب المعروف إعلامياً باسم شيطان المكتبات، وقد أقر بتحمله المسؤولية الكاملة حول ما يتجاوز خمس عشرة حادثة حريق".

"كنت أرى هذا الرجل يحوم حولي في كل مكان"، قال المهذب، "لم تتغيّر ملامحه كثيراً، كان من السهل التعرف إليه من الصورة".

أسئلة صغيرة قد تراوح ذهن أي شخص يستمع لقصة كهذه. الفتى لا يعطي فرصة لأي احتمالات قابلة للشك. يجيب من فوره دون سؤال. قال إنه كان يبحث عن قصص ناقصة ضمن "سلسلة الحكايات الصامتة". صاحب إحدى المكتبات أخبره بالمأساة التي حلّت بهم عندما دعتهم إحدى المدارس للمشاركة في فعالية إثراء يوم الثقافة السنوي. قال إن مكتبتهم دفعت بالكمية الكاملة من هذه السلسلة. أودعوها عندهم على اتفاق تسلم المتبقي منها في اليوم اللاحق، وفي تلك الليلة، أُضرمت النيران والتهمت كل الكتب في واحدة من فعلات الشيطان. فضول المهذب دفعه إلى التساؤل عن المعنى المبيّت من اللقب الذي وصف به صاحب المكتبة الفاعل. وضّح له الآخر، وأطلعه على لمحات غير دقيقة حول الأحداث إياها. سعى الفتى في ما بعد للتعرف إلى تفاصيل أكثر، وأجرى بحثاً بسيطاً أوصله إلى هذا الخبر. تطلع إلى الصورة، وقال في نفسه: أعرف هذا الوجه... ليس غريباً. صُعق حين تذكر بأنه الرجل ذاته، ذاك الذي يراه بتكرار، مصادفة أو تعمداً. العلاقة الحالية بين الرجل والمهذب كفيلة بدحر احتمال المصادفة. كنتُ قد انتبهت للتو إلى ثريا ضخمة تتدلى من سقف بهو الفندق. بدت قريبة من مكان جلوسنا، في الوقت الذي جاء فيه النادل ليضع الأطباق والملاعق. رأيت رجلاً يسير في الجهة الأخرى المخالفة لمكاننا. بعض قطع الكريستال المعلقة في الثريا تعيق مجال النظر. لا أعرف إذا كنت أبالغ لو قلت إن ما يتراءى لي أن الرجل الماثل هو نفسه الذي رأيته للتو في خبر الصحيفة. لوهلة، استعدت تركيزي، وشككت في عيني. الحواس المجردة ليست دليلاً حاسماً بالضرورة. لم ألفت انتباه المهذب إليه. أتتني فكرة، فقلت: "ما ضير مواجهة هذا الرجل، اتهامه أو تهديده؟" لم يجب الآخر. أخذه تفكيره إلى مكان ما. قال إنه يعرض الأمر عليّ لغاية أخرى.

شعرتُ في لحظة أنه قد يقترح شيئاً بناء على فكرة غير سليمة. خطفت منه دفة الحوار، وعنيت بتوضيح نقطة مهمة. قلت: "يجب أن تعرف هذا قبل الخوض في الأشياء الأخرى". بدا أنه يتوجه إليّ بكامله، فتابعت: "الداعي من وراء لقائنا واهتمامي بمشاركتك أحداث قصتك نابع عن حالة أكثر صدقاً وعمقاً من فضول أو مساعدة". انشَدَهت ملامحه. "إن معرفتي بقصة الملك زنكار وضوء النهار لم تكن وليدة مصادفة؛ اعتقدتُ أن نظراتنا المتبادلة في أمسية المقهى كانت كفيلة بنقل مدى إلمامي العميق بقصص الأطفال. يجب أن تعرف أننا – أنا وأنت – لدينا هوس مشترك، وكنتُ أنتظر أن نتقاسم حديث إفضاء متبادلاً. هذا الأمر الذي أخفيته عن كل الناس خشية نظرة تصغير أو تحقير. لقاؤنا الماضي كَسر داخلي هذا الحاجز النفسي لكنني لم أتجرأ وأفضي لعليوي أن ما يتتبعه صاحبك هو عشقي منذ الطفولة". التمعت عيناه وأخذ يهز رأسه كأنه استعاد الموقف من جديد. أحسست في ذلك الوقت، إضافة إلى الإيمان التام ببساطة الفتى وعفويته، أن طبيعته لا تخلو من سذاجة قد لا تؤتمن على الأسرار. لكنني لم أعر لهذه الاحتمالية أي اهتمام. شعرت في تلك اللحظة براحة داخلية عظيمة كأن شعور الخفة أنبت لي جناحين. بدوت في مراقبتي نفسي أكثر ثقة واعتداداً بها واستعداداً لتلقي أي اقتراحات. حاولَ مداراة ابتسامة حائرة. قال إنه لا يعرف مدى تأثير هذه المكاشفة في ما يرغب، لكن ما يملكه من مقتنيات نادرة هو بمكانة كنز عظيم، وبحثه عن نواقص تفتقدها مجموعاته ليست سوى تسلية خاصة لا تختلف كثيراً عن هوايات قديمة مثل جمع الطوابع والعملات أو أولئك الذين يحبون اقتناء الأنتيكات من التحف والصور. هناك أشياء لا يعرضها للعامة. توقف ثوانيَ ينتظر النادل ليضع المشروبات على الطاولة. على سبيل المثال، قال إنه يملك نسخاً أصلية لأربع قصص من مؤلفات الدنماركي

الشهير هانس أندرسن، يعود تاريخ نشرها إلى أكثر من قرن. يا إلهي! هذا مثال وليس أفضل ما يملك. فاجأني بمنحاه. إن ملاحقة الرجل الشيطان تهدد هذه الثروة وتثير هلعه. منذ عرف بقصته صار يناوب مساءً يضبط المنبه كل ساعتين يتفقد مكتبته ويعود إلى الفراش. صار يعيش حالة من الوساوس التي ستجره نحو الجنون. في الحقيقة هناك اختلاف متباين بيننا: أنا قارئ أصيل أبحث في أعماق النصوص، وهو باحث أكثر أصالة ويسعى أن يمتلك التاريخ. لم أفهم حتى ذلك الحين ما الذي يمكن أن يصد عنه الأذى أو يحمي ثروته. قال بعد صمت وتفكير داما دقيقة تقريباً: "أفكر في نقل مكتبتي إليك". "

١١

كان من الملاحظ على الزميل الذي يقابل المدقّق الحيرة والتردد والقلق. بمعيّته، منذ البارحة، كتابٌ على غلافه رسمة سلحفاة كبيرة قرأه ثلاث مرات تقريباً، ودوّن مجموعة ملاحظات على ورقة جانبية، ثم عاود مطالعته عبوراً على صفحات مختارة أو عشوائية. يسحب نموذج التقرير، يباشر كتابة سطرين، ثم يفكّر بضع ثوانٍ. يجعد الورقة ويرميها، ويرجع يحط إصبعه حيث ترك علامة في الفصل الأول. يستغرق عشر دقائق، يُطبق الكتاب ويضعه على الطاولة. يخرج من القسم ويغيب قرابة نصف الساعة قبل أن يعود متعجلاً كأن فكرة لامعة واتته فيسارع إلى قلمه ويبدأ تدوين سطر جديد. يخال للزملاء أنه اتخذ قراراً نهائياً بشأن الكتاب لكنه قبل أن ينهيَ تقريرَه يشطب كلمة، جملة وأخرى، يلقي بالورقة جانباً، ويستلقي على الكرسي.

الشمس تلمع قبل دخول الظهيرة بدقائق. إضاءة الغرفة تستحيل فاقعة. قسمات الزميل المقابل تسطع من مكان المدقّق. ليس بإمكانه رؤيته جيّداً لكنّ صمته وثباته دليلا تفكير موغل في قضية شاغلة. تنحّت الشمس قليلاً بعد نصف الساعة. تكشّف الزميل. بدا ينظر

إلى نقطة متحركة. عيناه محيّرتان فضلاً عن كونهما حائرتين. قال له المدقّق بلهجة مازحة: "ما بال السلحفاة؟ إن غلاف الكتاب – موضوع قلقه – يمكن تأويله أيضاً بشكلين: يعطي انطباعاً أولياً ميّالاً إلى كونها حكاية أطفال بسيطة ومباشرة، وشكله الآخر يشي بأسطورة تراثية أو قصة فانتازيا من العالم السحري. صَدَفة السلحفاة الضخمة تحوي خطوطاً ورسومات تشكّل عبارات أشبه برسائل الحضارات الأولى. زخارف تعبّر عن بيئة محددة تعكس الأجواء المقصودة". التفت الزميل. انبرى كأنه ينتظر أحدهم يشعل فتيلَه. قال إنه وضع الكتاب تحت الجهاز أكثر من خمس مرات، وقرأه من الجلدة إلى الجلدة مراراً، وظلّل جُملاً استشعر بوجود عارض فيها. مراجعتها لم تسفر عن شيء. إن الكاتب لعب على القانون المعني بحظر استنطاق الحيوانات والجمادات. تنهّد الزميل وأخرج قنينة ماء من مكان ما أسفل مكتبه. جرع منها قليلاً وتابع: "هذا الكتاب في ظاهره تحدٍّ متعمد. لست مرتاحاً لمسألة إعطائه جواز المرور من إدارتنا. هناك خطأ ما. لن أسلّمه الموافقة قبل أن ألمّ كل الجوانب". عقد المدقّق حاجبيه. لحظة. غرابته الطافحة تمهد لسؤال متوقع: "ألا يمكن لكتاب أن يكون ملتزماً بالقوانين، ما يسوغ للإدارة السماح بتداوله". "هذا الكتاب مصيبة". ردّه الجاهز أثار دهشة الآخر: "إذا لم أعرض الأمر على المسؤول، سيغدو عملنا أضحوكة للناس". خطر في بال المدقّق: الثغرات منافذ للمضطرين. لم يقل: من له حيلة فليَحتل. لدواعي تفادي العبارات الشائعة، هذا ما دار في خلده رغم أنه لم يعرف حتى اللحظة محتوى الكتاب،

في حين لم ينتظر الزميل المقابل موعد الاجتماع الأسبوعي. نهض من فوره متجهاً نحو غرفة المسؤول. غطّ في جلبة خطى الموظفين الذين يسيرون أسراباً بلا توقف نحو غرف الاجتماعات داخلين خارجين. زَرَدَه قلقه أو خوفه. ذلك الوقت تلمس المدقّق انتقال عدوى المسؤول إلى موظفيه: حِرصهم البالغ على حفظ نظام العمل، تجنب خرق قوانينهم أو استغلال منفذ متاح يسهم في فك حالة التوتر والاحتقان الحالية، أجواء العمل تؤثر وتتأثر. في استطاعة القائد بث حالة من الحماسة أو الخمول. يَمثُل أمام الجميع في تطبيق ما يدعو إليه، ويتحوّل الباقون تلقائياً، بفعل وعي أو تقليد، فيصبحون ممثلين حقيقيين عنه. يتطلع المدقّق إلى نفسه، بصفته أحدهم، ويتساءل عن جدوى خلاصة ما توصل إليه من نتائج تحليل الحالة القائمة. بصفته أحدهم، يتجمد تفكيره عندما يتطلع إلى نفسه. يصرف الأمر طواعية ويركز على ما تدفعه إليه مشاعره.

في الاجتماع التالي، ألغى المسؤول كل البنود التي من المقرر طرحها. رحّل مناقشة المفردات الجديدة المقترح إضافتها في البرنامج إلى آخر عشر دقائق من الوقت المقرر. قال إن هناك مسألة طارئة تستوجب اتخاذ قرار عاجل. يتبدى كتاب السلحفاة رابضاً على مكتبه. "كان يا مكان في قديم الزمان، عاشت سلحفاة برية في غابة استوائية حياة طبيعية. تمارس دورها وفق الروتين والمعتاد. تتسلل في الليل كل شهرين أو ثلاثة تبحث عن مكان آمن بجوار علامة صلبة متينة لا تهزها الريح ولا تغرقها الأمطار، حتى تصنع حفرتها، وتبني عشها، وتضع أكثر من عشرين بيضة تحوطها بعناية

ثم تدفنها بلطف. تتركها بدفء الأرض وترحل. وفي النهار، تمضي بحثاً عن طعامها وشرابها وتزوّد جحرها بالمؤونة اللازمة. ذات يوم راحت تعاين بيضها كما هي عادتها كل مدة وأخرى. كانت قد دَفَنَتها عند صخرة ضخمة لا يزحزحها فيل لكنها صعقت ذلك اليوم. لقد تم مسح المنطقة كلّها. دهمها الخوف وشعرت بهلع رهيب حين تنبهت إلى جرارات ضخمة تسير على مسافة منها. كان رأسها يتحرك بكل الاتجاهات. تحدق في الأخطار أمّ تبحث عن صغارها الذين لا تعرف ما آل إليه مصيرهم. اضطرت ألا تطيل بقاءها، وكما نعرف جميعاً أن السلحفاة تستغرق وقتاً طويلاً لقطع مسافة قصيرة، لكنها في تلك اللحظة، ورغم أنها لم تحس بالأمان، كانت تسير ببطء أكثر من المعتاد. وبقدر حزنها العميق، كانت لا تعرف كيف جرى ما جرى. هذه خبرة جديدة على سلحفاة لم تبرح غابتها أبداً، ولم تشهد قوة جبارة في استطاعتها هزيمة وزن هائل كما الصخرة التي وثقت بها وتركت عندها بيضها".

أخذ المسؤول يقلب صفحات الكتاب باحثاً عن مشهد آخر. أمال بنظارته الطبية قليلاً إلى الأسفل، ثم قال مازحاً: "الحكاية لا تحوي أرنباً أو سباقاً. أمّا القصة، فتخبرنا أنّ السلحفاة قررت ألا تثق بأرض ولن تضع بيضاً بعد الآن، وغادرت الغابة بعدما أخبرت عائلتها وأصدقاءها السلاحف بالأمر؛ لقد شكلت تلك الحادثة صدمة نفسية زعزعت ثقتها بكل ما تؤمن به، بعد ظنها الأول، والموروث عن أسلافها الذين لا يزال بعضهم على قيد الحياة، أنّ صَدَفتها مبعث الأمان والحماية من الضواري والأعداء، والطبيعة إذا شاءت أن تدمّر

وتحطم، بزلازلها وفيضاناتها وبراكينها وعواصفها، بصخورها ونارها وترابها ومائها. عقب هذه الصورة المثالية المتيقنة في رأسها، تظهر قوة من العدم تكشط الأرض بما فيها دون أن تُحدث صوتاً يجلجل أسماع الحيوانات ويخرجهم من مساكنهم ومحمياتهم. لقد مضت السلحفاة الحزينة المصدومة تبحث عن الحقيقة، وتكشف عن نفسها نقاب الجهل الذي أشعرها بضعفها". في ذلك الحين، قطع المسؤول قراءته مشيراً: "أنا أعطيكم ملخصاً بسيطاً حتى تتفهموا ما أود الوصول إليه. لقد استخدم المؤلف حكاية حيوان دون أن ينطقه، مستعيناً بنفسه كسارد عليم يعرف ما في أنفس الحيوانات، حتى بعد ظهور النمور والقردة والغزلان والتماسيح. لم يتحدث أيٌّ منهم لو بكلمة، بل عمد في موقع من أحداث القصة..."، وراح يبحث عنه وقرأ، "علِمت السلحفاة بطريقة ما أن الأسد قُتل منذ أيام قليلة في هجوم عابث". نزع المسؤول نظارته لكنه احتفظ بالكتاب في يده: "واضح جداً أن المؤلف يسير بخط حذر ومتوازٍ مع القانون الجديد. القصة فاضحة. تتحدث عن الشك في الخلق والوجود والنفس وما حولها والآخر. ثمة تصوير للرب وقصة البداية واستخفاف بالمسلمات. الكاتب نابغ بلا شك لكنه فاسد". وضع الكتاب على الطاولة بعد أن أصدر حُكمه. تابع: "إضافة إلى كونه يحاول الهرب أو الالتفاف أو التجاوز، يريد أن يسجل لنفسه تاريخاً جديداً عند أولئك الذين يظنون أن الحياة متمثلة في صراع دائم متضاد الأقطاب، وينصّبون أنفسهم أخياراً مكلّفين في القضاء على الأشرار".

توقف عن الكلام بعدما تقلصت ملامحه كأنه رأى مشهداً مقززاً،

وفي المقابل، كان جميع أعضاء قسم التدقيق في صمت راصد يتطلعون إلى الطريقة الممكنة للتعامل مع ظروف كهذه. أبدى الزميل المجاور رغبته في المداخلة: "الأعمال الأدبية متعددة التأويلات"، ثم أشار إلى صدره ونظر إلى الأعلى محاولاً توضيح مقصده: "تؤخذ بمفهوم ونيّة قارئها، وأظن أن هذه الرواية - كما سمعت من زميلنا المُكلف تدقيقها - تحتمل المعنى المباشر أكثر من الآخر". هز المسؤول رأسه وأظهر رفضه لرأي موظفه، ثم علّق بنبرة حازمة: "في الشدائد، يَلزم تصفية كل الحالات المشكوك في أمرها؛ من المتوقع أيضاً أن نستقبل كتباً أخرى لمؤلفين وجدوا ثغرتهم ليبثوا سمومهم عبرها، لكن علينا اتخاذ إجراءات محدّثة تجاري إمكانات خصومنا، وتسد عليهم فرصة السبق والتطاول على القانون". لفت انتباه المدقّق وصف الآخرين بالخصوم. "لو تم السماح لهذا الكتاب بالمرور، سيكون عليكم انتظار كتب آتية تحمل عناوين مستوحاة من كائنات البراري والبحار". بادر أحد الزملاء يختصر على المسؤول خطابه: "ما مُقترح التعامل مع هذا النوع من الكتب؟" فأجابه: "فكرتُ..."، وأخذ يدعك عينيه بسبابة وإبهام كفّه الأيمن، "أن ننشئ لجنة جديدة تستدعي الكاتب لتناقشه في أفكاره ومقاصده بعد دراسة كافية لمجمل الاحتمالات المطروحة في كتابه. هذا إجراء مبدئي ومرتجل في كل الأحوال، لكن لا مفر من مواجهة هذه الحيل التي تهدف إلى تحطيم أسوارنا الصلدة". تساءل زميل آخر عن طبيعة النقاش وكيفية الوصول إلى القرار النهائي من مواجهة لا يُتوقع لها أن تكون هادئة وسلسة، ومتى ينجح أو يخفق؟ التحقيقات الإدارية

حول المسائل الفنية تقتضي طرح كثير من الأسئلة الدقيقة. صَمَت المسؤول لحظة يستعيد أفكاره: "نستعين بأفراد متخصصين يقدمون دراساتهم عن النص". ثم ابتسم قبل أن يتابع: "وعلى الإجابات أن تكون وافية وتغطي كل أوجه الغموض". أخذ يرفع سبابته: "شفّافة إلى درجة تسلل مشاعر ارتياح متساوية لكل أعضاء اللجنة. تُرصد النتيجة بعد مداولة تتم فور خروج المؤلف من غرفة التحقيقات".

تبادل الزملاء النظرات بينهم. اجتماعات المسؤول حول المسائل المستجدة لا تأخذ نوعاً من التشاور أو التعاطي للخلاص إلى نتيجة نهائية مقنعة للكُل، بل هي مجرد نافذة للاطلاع على القرارات المحسومة. لم يُصارح أحدهم الآخر إزاء هذا الشعور المشترك لكن ردود أفعالهم وتَجاوبهم الخنوع بلا أدنى اعتراض أو رفض شهادة يقينية أنه لا جدوى من الحوار. إن المسؤول اختار فريقه بعناية فائقة حتى يمارس صلاحيات كهذه دون أن يتعرّض لأيّ مصدر إزعاج، عدا النقاش المسالم حول الكلمات الجديدة المقترح إضافتها في البرنامج. إلى ذلك الحين، أُدرجت ألفاظ عدة تحت قائمة المفردات المشكوك في دلالاتها، مثل: إخصاب، حزب، مزار، انتشار، ركوب، عضو، عهد، ارتخاء، بعثة، آية، بلوغ، حملة، مزمار، حوض، شفافية، قيامة، هامة، ناشط، ناهض، هلال، هالة، رهاب... فبعد التصفية الكبرى، أو كما أطلق عليها بعض المتحمسين اسم التطهير الأول، صارت العملية ذات طابع متمهل متسم بالعدالة والدقة. آلية قائمة على اصطياد الكلمة، والشك في الفكرة والمعنى المبطّن، ثم النظر في فحوى الفقرة أو الفصل المتصل بها، حتى يصدر الحُكم بالتجاوز

أو الحظر، على أن يكون الأخير مدعماً بتقرير يشرح الأسباب. كان من الملاحظ أن طلبات التظلم قليلة جداً قياساً بحجم الكُتب التي حُظرت في المرحلة السابقة. لم تعكس هذه الحالة قلقاً أو تساؤلاً عند المسؤول. قد يرجع ذلك إلى كونه مؤمناً بأن الطبيعة تقتضي قبول ما تراه الحكومة مدعاة لزعزعة النظام العام وضرراً على الدولة، ولعله واجب أصيل للمواطن الصالح الذي يقدم المصلحة العامة على نفسه، لكن واقع حال المؤلفين والناشرين يشير إلى الخيبة والإحباط، ما أدّى إلى الانشغال التام بمحاولات إصلاح الصدع الباغت الذي فتك بالمنظومة العامة عوضاً عن التعامل مع إدارة خرساء.

في هذه الأيام، يشعر المدقّق بإرهاق شديد عند حلول المساء. جسده خدر، ساقاه لا تحملانه، إضافة إلى احتقان يقبض بلعومه ويهبط على شكل مغص في معدته. يود لو يتناول قرصاً ينسّيه وجعه. تركيزه هش ويجد صعوبة بالغة في المحافظة عليه. القراءة والكتابة سيان. يحط على مكتبه في البيت كتاب المكتبات، وحده دون كل الكتب المرصوفة في الرفوف وفق ترتيبه المعتمد. هذا ليس كتاباً فحسب، إنه الملجأ حين هجرة الأفكار والدوافع. كتاب من الحجم الكبير. لونه أزرق داكن وفي قلبه خطوط رأسية وأفقية تشكّل بطريقة ما صورة كتب متكدسة تتداخل معها كلمة المكتبات بحجم كبير. يتناول موضوعات سحرية شيّقة، ودائماً ما يعتمد عليه المدقّق في حالات اليأس والحزن. يتحدث عن كُتب الأسفل والأعلى، وكُتب النخبة والعامة، وقدرة كتاب أن يكون كل الكتب، وعجز مكتبات عن احتواء كلمة، ويتحدث عن جامع الكُتب، وندرتها ووفرتها،

وأنجحها وأفشلها، وعن أسرار المكتبات وشفراتها، وعن الخشب، والغبار، والقرّاء الذين يهدمون صرح كتاب ويبنون حطام ورق. يتحدث عن فَضل رفوف المكتبة المتزنة التي لا يشغلها فراغ ولا يخنقها فائض. كلما أدرك المدقّق عمق الهاوية، يأوي إلى كتابه هذا. يتعلق به كخشبة طافية وسط محيط مظلم. هذا الكتاب يمنحه أفكاراً خلاقة وزوايا باهرة جديدة. قرأه حتى اللحظة قرابة سبع مرات، كما أنه يتوقف عند كل موضوع، فيكرره، ويعيده مثل تعويذة. كُل مرة تتفتح في ذهنه نافذة جديدة. يشعر بالأمان والراحة، أو ربما يشعر بالوجود والأهمية. هاجمته تلك الليلة مشاعر سيئة. تلقائياً يسحب الكتاب الأزرق، المكتبات، إلى منتصف طاولة المكتب. يتابع قراءة صفحات عشوائية. كلمة في سطر انتخبت نفسها بنفسها. يَغرق في النسيان. ليست الأوضاع الداخلية للإدارة هي التي تعج في رأسه بقدر أمر آخر أزعجه بشدة. كان بعد أن سألَ الزميل المقابل عن مصير السلحفاة في القصة إياها، قال له إن النهاية لم تكن بالوضوح الكافي. لقد تعثرت عند حافة وتدحرجت على سهل ألقى بها إلى غابة أخرى مكتظة بكواسر لا يحكم أحدهم الآخر، فتستشري العشوائية، وكلهم يبحث عن فرصة مناسبة للقضاء على الثاني. تخفّت السلحفاة وسارت بحذر حتى وجدت آدمياً ميتاً ومُفترَساً بوحشية. كان وجبة لأحدهم بلا شك.

في تلك الليلة، اتصل الروائي الفارس ليبلغه جاهزية الدفعة الأولى: طباعة نسختين أصليتين وخمس أخرى مزيّفة أو مشوهة كما وصفها من قبل. كان رجل الملابس الرسمية قد نقل إليه مشاهداته وانطباعه.

عَلِم أثناء حديثهما أنه يرى المطبعة صغيرة جداً. رده لم يكن مباشراً لكنه أشار إلى ما معناه أن الحجم لا يعبّر عن الفعالية بالضرورة، لكنه قال تحديداً: "نحن على أهبة الاستعداد لخوض غمار هذه المخاطرة أو المغامرة". يقول الفارس إن الأمر الجيّد يتمثل في موقع العمليات؛ المنطقة مليئة بالشوارع الفرعية والطرق المختصرة. أيضاً هناك معابر رملية أخرى إذا ما استلزمت الظروف. شَعَر المدقّق في ذلك الوقت أنه يتحدث إلى خبير إستراتيجي في الشؤون العسكرية. لا يخجل من الاعتراف لنفسه والإقرار بأن هذه المفردات تخيفه وتحيله إلى فكرة وقوع خطر وشيك. الأوضاع العامة تتسم بالفوضى. البلاد بأكملها تنشق إلى قسمين: رافض متمرد، ومؤيد قانع. ودّ لو يقول: ما ضر البقاء مراوحاً بين هذا وذاك. حانت ساعة بدء العمل. لم يكن يوماً مُنتَظراً بالمعنى حين جلب رجل الملابس الرسمية كُتبهم في حافظة معلومات إلكترونية، ولم يقل المدير مرة أخرى: "بإمكانك إرسال الكتب دون الحاجة إلى المجيء". أوضح الرجل بدوره أنه يريد مشاهدة طور العملية ويشرف عليها بنفسه. قال إن الحافظة تحوي ثلاثة كتب، لكل منها ملفّان مختلفان: النسخة السليمة، والمشوهة. اكتفى المدقّق يومذاك بالمراقبة. لمح أغلفة الكتب. أحدها يحمل عنوان: أول أثر لدبيب البشر. وآخر: نظرية الدوران. وثالث لم يتأكد منه جيداً لكنه يبدأ أو ينتهي بكلمة الجياد. كتاب أحمر مائل إلى السواد. العملية تمت في غضون عشرين دقيقة. كان رجل الملابس الرسمية يتحدث عبر الهاتف، ويطلّ من النوافذ كل دقيقة وأخرى. عمّت مشاعر ارتياب في الأجواء. المدقّق مالك المطبعة، المدقق

موظف حكومي في الإدارة الخصم، المدقّق هو من بادر إلى هذه الفكرة؛ الحذر والحيطة واجبة. في أجواء كهذه، يصير من الصعوبة معرفة العدو من الصديق. يبدو أن رجل الملابس سيكرر زياراته حتى يطمئن، أو ربما لن يسلّم ثقته مطلقاً. من يدري؟ عند الغروب اتصل الفارس يبارك الجهد ويثني على جودة المطبوعات وسرعة الإنجاز: "إنه لمن الصعوبة على الفرد أن يعرف الفرق بين النسختين"، ثم عرج عن محور حديثه فجأة: "ثمة موضوع أكثر أهمية أرغب أن أطلعك عليه، وسيكون من الأفضل تحديد يوم مناسب للقاء جديد في الأسبوع المقبل". بدوره، لم يحاول المدقّق أن يتساءل حول فحوى الأمر رغم فضوله الجامح. اتفقا فقط أن يكون في المكتب إياه يوم الثلاثاء. حتى ذلك الحين، دأبت المطبعة في مهمتها الجديدة. انفرجت أسارير المدير والموظفين الذين بدؤوا يشعرون بأهميتهم خصوصاً حين جاء أوان طباعة كميات كبيرة من الكتب لتوزيعها على المكتبات. كان نشاطهم حتى اللحظة يسير دون أيّ مشكلات إضافة إلى تسلّم المدير قيمة المطبوعات كاملة بعد انقضاء الأسبوع الأول، ومبلغاً آخر للكتب اللاحقة. حالة استقرار مقبولة يعيشها المدقّق هذه الأيام. فرجة صغيرة في جوف قاتم.

في الثلاثاء، شَعر المدقّق بشيء من الحماسة أو الإثارة. أولاً بسبب لقاء جديد مع الروائي الفارس، فرصة سانحة لحوار شيّق، وثانياً لأنه يخصه بموضوع دون غيره. بطولة إضافية يحققها بعد الهزيمة الأولى. الإنسان الحساس بطبعه يحتاج إلى حُقن الثقة والمديح باستمرار وبمختلف الطرق. في ذلك اليوم، أحس المدقّق أنه يدخل

المكتب أول مرة. كان من الواضح أن المكان خالٍ حتى من عامل الخدمة. عوضاً عن رجل الملابس الرسمية الذي يوتّر الأجواء بدت الأرجاء أكثر خفة ودفئاً. انتبه إلى لوحة خلف مكتبه تُصّور فروع نهر تشق طريقها بين أشجار النخيل، ورائحة قهوة زكية تنبعث من جوار، ولما نظر إلى مكتبته الصغيرة، لاحظ وجود رواية "مَهد الظلمات" بين الكتب في الأرفف. قال الفارس وهو يهم بالوقوف: "أظنك تفضلها وسطاً". لم يفهم المدقّق. أعاد سؤاله: "سكر قهوتك". "نعم"، جاءت إجابته بتأثير المباغتة. "نعم نعم"، رغم أنه لم يحدد في المرة الماضية مقدار السكر المفضل لديه، كما أن الآخر أيضاً لم يسأله يومذاك. كان الفارس قد أعد القهوة بنفسه، الأمر الذي فاجأ المدقّق وأشعره بخجل شديد. نهض عندما رآه يحمل الصينية كي يساعده في تهيئة مكان مناسب لوضعها. قبل أن يجلسا كان عقرب الساعة قد أشار إلى تمام الثامنة مساءً. استفسر المدقّق هل شرعوا في إرسال أحد الكتب إلى الإدارة. تعجب الآخر من سؤاله. "أنت المدقّق لا أنا"، قالها رفقة ابتسامة عريضة. بادله صاحبنا ابتسامته، ثم آثر أن يوضح الاحتمالية الممكنة لكونه قد لا يرى الكتب التي يُكلف زملاؤه إياها، ومن الوارد أيضاً أنها لم تصلهم بعد، إذ تأخذ دورة مستندية ليومين تقريباً قبل مباشرة تدقيقها. قال: "أظن أننا أرسلنا كتاباً أو اثنين حتى اللحظة". رجل الملابس الرسمية هو المعني بإدارة هذه المسائل بالكامل. ثم عاد ليكمل بعد أن ارتشف قهوته: "نحن الآن نعمل على أكثر من جانب في آن. مثلاً منذ بدء الحكومة حملة الاعتقالات العشوائية، أصبحتُ متعهداً السعي للإفراج عمّن

تيسّر لي من المحبوسين بوساطة أصدقاء موثوقين يعملون في السلك الأمني والقضائي ويسهمون بطريقة أو بأخرى في خلق حالة قانونية مؤيدة لإطلاق سراح بعضهم. لعل أصعبهم الروائية المُغامِرة لكنني ما زلتُ أرى إمكانية إقناعهم – عبر آخرين كما وضّح – بضرورة إخلاء سبيلها". عند ذِكر المُغامِرة جاءت صورتها في ذهن المدقّق. انهزامية المشهد تبعث مشاعر كريهة: البطل النبيل عندما يُهان، قميصها الأبيض المهلهل... الحالة الحاضرة لا تُسعف المرء ليلتفت إلى النواحي الشكلية، يافطة غرفة المحقق أعلى رأسها، كل الأشياء تُحال إلى كيفما اتفقت الأحوال. أكمل حديثه: "الجزء الآخر يتمثل في حركة تأكيد القوة النافذة للكلمة والفكرة، وهذه نمضي بها بفضل مساعدتك وهمّتك وبقية أفراد المطبعة". في تلك اللحظة بالذات، شَعر المدقّق أن مُحدثه شخصية ثقيلة لا يُستهان بها. أضاف: "أكتبُ أحياناً خطابات يلقيها بعض الشخصيات ذات التأثير الإعلامي والجماهيري لشحذ همم المعارضين على المواصلة والثبات". عندما فرغا من شرب القهوة، قال الفارس إن الموضوع المتعلق بلقائهما هذا يلزمه جولة مشتركة في السيارة. أومأ الآخر موافقاً. يمتلك الروائي سيارة جيب مرتفعة من نوع حديث. فور خروجهما من شارع ضيّق يفضي إلى الطريق العام، أعرب عن اعتذاره بسبب تعامل جماعته الحَذِر. الشك مدعاة اضطرار في بعض الأحيان. الحاجة إليها وقاية من عقبات أو عقوبات لكنه أكد – رغم استمرار حيطة جماعته – أنه يشعر بارتياح وثقة بالتعامل معه. اعتملت في نفس المدقّق مقارنة حينذاك بين انطباعه الأول عن الفارس الروائي

الذي يعرفه في الورق، العبقري الذي تُعالج مفرداته مشاعر القارئ وعقله في آن، وبين الحالة الجديدة التي يعايشها، الفارس الصديق الذي يتنزه معه في السيارة ويميزه عن الآخرين بإيمانه بشخصيته ورسالته. أفصح له عن امتنانه وتقديره، في الوقت الذي يؤكد له الآخر أن لا أحد يعرف بالأخبار التي سيطلعه عليها. لاحت إضاءة صفراء ساطعة على مبنى حديث الإنشاء مكتسٍ بألواح رخامية متينة موزعة باتساع المساحة وتنحني بشكل هندسي مطواع مع انثناءات المُنشأة. قال الروائي: "لقد ابتدؤوا فعلياً تكوين مكتبات خفيّة غير معلنة تحسباً للأحداث المقبلة. إن الحكومة تتخذ إجراءات متلاحقة بحجة الأمن العام وحفظ النظام ومجموعة ترهات وأكاذيب، لدرجة أنهم تخلوا عن لعب أدوار الشفافية وإبراز الأدلة الدامغة التي تسوّغ قراراتهم الجائرة، ولذا علينا أن نكون يقظين حيال تحركات متوقعة وسانحة". تدخل المدقّق بسؤال: "ما سبب كل هذا؟" تطلع إليه بعد لحظة صمت. كانت السيارة تنحرف نحو مخرج مؤدٍّ إلى طريق لولبيّ يقود إلى أحد الجسور. أعاد سؤاله بصيغة مختلفة: "لماذا تتخذ الحكومة قرارات من شأنها أن تستفز الشعب وتغضبه؟" أخذ الفارس نفساً قبل أن يجيب: "التاريخ لا يعطي تبريرات منطقية لكل الكوارث والإجراءات التي غيّرت مجرى الحياة. القتل والظلم والمؤامرات في صميمها تعود إلى أهواء شخصية. مزاجيات. في الحقيقة، لا أعرف سبباً حقيقياً لهذا التحوّل لكنني أتفهم الدواعي الأنانية التي تدفع إلى هذا الاتجاه".

بعض الإجابات لا تعطي معلومات بعينها لكنها تمنح مشاعر

الاستيعاب. كان الفارس يسير في شارع فسيح يفصل بين منطقتين سكنيتين. تحَدَّثَ عن حالة من المباحثات المستمرة والحثيثة تُجرى منذ بدء الأزمة: اجتماعات بين ممثلي مجموعات عدة مناهضة لممارسات الحكومة خلصت في واحدة منها إلى اتفاق يفضي بتهيئة مكتبات سريّة في سراديب يجري اختيارها بعناية ودقة، وتُجمع فيها الكتب التي تحظرُها الدولة وتُحفظ لكونها إرثاً بشرياً تسعى الحكومة إلى إلغائه قسراً من ذاكرة الأزمان السالفة وحجبه عن مدارك الأجيال اللاحقة. "الفكرة قد تبدو في ظاهرها بسيطة، لكنها ستغدو مشروعاً مهماً وأنا على يقين أن جواسيس الأمن العام يتوقعون وجود مخابئ خاصة لنشر ما يسعون إلى منعه". بَدَأت معاني المفردات وإحالاتها تلتبس عند صاحبنا. الدلالات تتغير وفق متغيرات. تابع الفارس حديثه في الأثناء التي بدأت سيارته تتوغل في الشوارع الداخلية بين البيوت: "تولّت جماعةٌ ناشطة تدعى 'حرية بلا حدود' مسؤولية العناية باختيار المكتبات وإنشائها". لم يقل المدقّق إنّه يعرفهم. "أطلقت شعاراً عاماً روّجته بين الناس المتعاونين يقول: الحقائق تحت الأرض، وما على سطحها تفاهات. لكنني لم أستسغ المعنى الكامن وراء الكلمة الأخيرة، فأعدت معالجة صياغتها إلى: المعرفة في جوف الأرض، وليست في عنق السماء، حتى تتناسب والمبدأ العام، وتُستخدم كعبارة أمان متفق عليها لكل شخص يود العبور إلى المكتبة الخفية". انتبه المدقّق للتو أنهم يتجولون في منطقته السكنية. نظر إلى الروائي الذي توقع بدوره ورود سؤال عند مرافقه: "أعرف أنك تسكن في مكان ما هنا". أصيب الآخر

بالدهشة. لحظة توجّس بقرب خطر باغت. "أود أن أدُلك على مكان قد تلجأ إليه في حالات طارئة بصفتك الرجل الأقرب إلى الكتب المحظورة". ثم توقف عند أحد المنازل التي تُشِعل على أسوارها إضاءات بيضاء كئيبة. وتابع: "إذا ما استطعت تسريب نسخ من كتب منعتها الإدارة"، ثم أشار بوجهه نحو المنزل القريب، "أودعها هنا فقط". نظر المدقّق إلى باب السور الخاص بالمكان المعني يتأمل مدى قرب ممارسة هذا النشاط من محل سكنه، وهو يردد داخله: "المعرفة في جوف الأرض، وليست في عنق السماء".

١٢
مكتبة
t.me/t_pdf

عشراتُ المخاريط، عاصفة من الرماد، صائدة الكلمات، مكتبات سريّة، نسخ مشوهة، تحقيقات، الكتابة بمحاذاة القوانين، مظاهرات، الملابس الرسمية، أقراص المعدة، اعتقالات...

قال أحدهم: "لولا فوز الروائية المُغامِرة بالجائزة الإقليمية، لولا تدخل الإعلام الخارجي، ما تنازلت السلطة عن طوق تَحَكُّمها في ما يُقرأ وما يُكتب. العالم لا يُحكم بالقواعد. العالم يسير نحو تجيير الشعوب". ذاعت الأقاويل والشائعات حتى قضت الأمور على هذا الشكل. حياة ورقية هوائية تقتات على نصوص القوانين الدولية، وحتى لا تُستفز مشاعر الجماهير أكثر مما ينبغي. صار الناس يتحدثون بلغات جديدة. شيوخ المذاهب مثلاً، أصحاب الذّكر والمَراجع، اعتمدوا منهجية مختلفة في استصدار الأحكام. هذا زمان غير الزمان، يناسبه ما لا يناسب غيره. آن أوان تجديد التأويل. استنباطات محض من التاريخ والنصوص المقدسة لكنها تجري في صروف التنقية والتهذيب. أما السياسيون، فيحاولون الحفاظ على ما تبقى لهم من سلطة: يطالبون ويناشدون، يصرخون ويستنكرون،

يستهزؤون ويتشاجرون... باسم الشعب، بلسان المواطن، دون أن يتجاوزوا حدود قاعة البرلمان. البرامج الإعلامية أيضاً أصبحت مرآة في بطن مرآة: حوارات ولقاءات ووثائقيات ومؤتمرات... كلّها من أجل تأييد فكرة متفق عليها سلفاً. وهكذا.

غمر المدقّق شعور باللامبالاة. فجأة، على نحو غير متوقع، أحس بحنين إلى عمله في إدارة الرد على الخطابات الرسمية. ربما يود اللجوء إلى مكتبه المطل على المبنى القريب، وذلك الحائط الشاهق الذي يحجب الأفق. يود العودة لمراقبة الحمامة التي تضع بيضتين وتهجر عشّها كل مرة. يود لو يرجع إلى تأملاته التي يسجلها على شكل ملاحظات: "الضغط يولد الانفلات". بات يمارس عملية التدقيق بالعكس. يقرأ الكتاب كاملاً ثم يعرضه تحت الجهاز. أحياناً يترك واجباته ويبدأ تدوين نقاط رئيسية تخص الرواية التي يحاول كتابتها. في مرّات أخرى، يتمادى فيدوّن فقرات كاملة: مدخل فصل أو مشهد في سطر جديد، وإذا ما كانت أفكاره في يوم مدرارة، يذهب إلى أبعد من ذلك، فيستغرق في الكتابة مدة قد تصل إلى ساعتين. هذه الأيام بدأ يلاحظ ورود كُتب جماعة الروائي الفارس. رغم انغماسه في نشاطهم على نحو أو آخر، فإنه لا يزال يضع خطاً فاصلاً بينه وبين كل شيء في الدنيا. أخذت تصلهم بالتتابع. لمح الكتاب الأحمر ذاك الذي لم يتمكن من رؤيته بوضوح. "عتاد الجياد"، قرأ عنوانه هذه المرة. كانت كُتبهم تمر من تحت صائدة الكلمات دون أيّ مشكلات، ويقرؤها الزملاء مرة واثنتين دون أن يجدوا أيَّ مفردات أو أفكار تثير انتباههم.

من الواضح أن الجماعة يقظون ويطبقون خططهم بحرفية عالية. مطبوعاتهم لا تتبع جهة واحدة، ناشراً أو مؤلفاً أو مصدراً واحداً، وهذه نقطة أخرى أثارت المدقّق وولدت داخله أسئلة عدة، أو بالأحرى أشعلت فيه الشكوك: كيف لهم أن يعرفوا الكلمات المحظورة الخاصة بكراسة التدقيق ولا سيما تلك الجديدة التي تمّت إضافتها أخيراً؟ بعد تفكير، فسّر الأمر بوجود متعاون آخر داخل الإدارة. لا محالة! طوّف أنظاره نحو زملائه يتفرس ملامحهم. هل من الممكن لجماعة أو تنظيم بقُدرات محدودة أن يعمل بهذا الأسلوب المتناهي في الدقة. الظروف تفرض سطوتها بما يجعل المرء ينازع القيود شتى بالوسائل كلها وبكامل التركيز. أي الزملاء، يا ترى، ذاك الذي ينقل إليهم المفردات التي يتوجب عليهم تنقيتها من كتبهم؟ إذا ما نظر المدقّق إلى نفسه، لن يجد سواه مثيراً للشكوك. كل الوجوه الأخرى متشابهة. لا يعرف كيف يختلف واحدهم عن الآخر. أمر أخير قد تنتبه إليه الإدارة، أو المسؤول على وجه الدقة، تزايد أعداد الكتب التي صار في مقدورها نيل التصريح اللازم لعرضه في المكتبات. قد يدخل هذا في باب نجاحهم في فرض قوانينهم الجديدة، لكن على الأرجح سيُفترض فيه الاشتباه والارتياب.

في ذلك الأسبوع، جاء إلى إدارة التدقيق شاب يرتدي قبعة رسّام وبزة أنيقة متناسقة الألوان. أخبر مكتب الاستقبال عن موعد حددته الإدارة لمناقشته في كتاب. كان مؤلف قصة السلحفاة. بِيَدِهِ أنبوبة تدخين تشبه الغليون. منظره لافت للانتباه كأنه لا يمت

إلى هذا الزمن بصلة، إضافة إلى كونه واثقاً أو هازئاً. هذا كاتب جديد لم يَتعرف إليه أي من الموظفين. مغرور. هكذا يبدو. كان حدثاً جديداً على الإدارة. من الواضح أنهم لم يعتنوا بترتيباتهم جيداً. عمَّ نوع من الارتباك. لم يكن المسؤول على طبيعته في ذلك اليوم. بدت عليه حالة من الغضب غير المبررة. كانت لجنة مكونة من بروفيسور في اللغة، وكاتب قصص أطفال، وباحث في تاريخ الأدب، واختصاصي سلوك ولغة جسد، ودكتور في العلوم الدينية، ومستشار مكتب الوزير، وموظف من قسم المصنفات الثقافية، وموظف من قسم المداهمات، والموظف الذي تولى تدقيق الكتاب، بالإضافة إلى المسؤول نفسه. بدأت مراسم التحقيق بقراءة تقرير يتحدث عن المعنى المستخلص من قصة أطفال مضمونها لا يؤدي غرض التربية ولا التعليم ولا التسلية البريئة، كما أن حجمها لا يناسب القدرة الاستيعابية لسن ما قبل العاشرة إذ تخلو من الرسومات والألوان الجاذبة والمحببة، وإن كانت عكس ذلك، فإنها بشخصياتها ولغتها وأحداثها لا تناسب القراء البالغين، وعلى هذا النحو، ترى إدارة التدقيق أن هذه القصة بما جاء في حيثياتها المذكورة تريد إيصال الكامن أكثر من الظاهر، وعليه، يُجرى هذا التحقيق حتى يُثبت الحق والباطل. ثم توالت الأسئلة كلٌّ طبقاً لتخصصه. في الأثناء، لاحظ اختصاصيُّ السلوك ولغة الجسد أن المؤلف تخلى عن ثقته المفرطة وظهرت عليه أنماط التخوّف والتردد، وكان من الطبيعي أن تنتابه هذه المشاعر وسط هذا الجمع العملاق الذي يطمح إلى الإطاحة به، لكن ما

خفف وطأة الموقف أن السائل لا يناقش الإجابات، وإنما يكتفي بتلقي الرد وإن كان غامضاً أو لا يعطي معلومة كافية، وإنما كان المسؤول يودّ لو أن المؤلف يمتنع حتى عن الإجابة، لأن ذلك لن يصب في مصلحته وسيكون حجة لحظر الكتاب.

أنكر المؤلف الشاب جميع التّهم والتفسيرات التي قدمتها اللجنة وقال إنه حاول فقط أن يقدم نوعاً جديداً من الكتابة القصصية، وشكلاً تعبيرياً مختلفاً، وأخذ عند كل إجابة يستعرض أمثلة من الكتابات عبر التاريخ، المحلية والعالمية، ويشرح نظريات التجريب الحديث، وأخبر اللجنة أنه يحمل شهادة البكالوريوس في نقد الأدب المتقلب والمستقر، وهو الأمر الذي يخوله ويدفعه إلى العمل بطريقة مغايرة. بين كل إجابة وأخرى يمزّ أنبوبته التي لا تخلّف أي دخان أو رائحة لكنها كانت تثير غيظ المسؤول الذي ودّ بطريقة ما أن يوقفه عن هذا الفعل. ألمح إليه عن طريق دعابة حَشَرَها بين الكلام أثناء خطبة ألقاها قبل الخوض في أسئلته كما يحب غالباً، لكن الآخر لم يعر ذلك أي اهتمام. كان نظام التحقيق المتبع مريحاً للطرفين، اللجنة والمؤلف، مع أنه خيّم على تنظيمه شيء من العشوائية التي جاءت على نحو مقبول، ولذا صار المؤلف الشاب أكثر اعتداداً بنفسه بعد مضي منتصف الوقت، وعندما انتهى اللقاء، أو التحقيق على وجه أدق، نهض من كرسيّه وصافح جميع أعضاء اللجنة في وضع مستنكر مثير للاستغراب. لم يعرف المسؤول المعنى المبيّت لهذا السلوك لكنهما حينما تصافحا قال المؤلف: "كان في إمكانكم اختصار كل هذا". لم يتيقن الآخر من

معناه المباشر، ونظر نحو اختصاصي السلوك بعد خروج الشاب الذي قال إن هذه علامة استسلام صارخة.

هذه الأشهر الأخيرة من السنة، موسم تحول الصيف إلى شتاء، فصل خريفيّ مغاير. هبّات الرياح أشد من المعتاد، وأمطار غزيرة. منذ بدء المطبعة عملها الجديد، المخاطرة أو المغامرة، ينسى المدير أحياناً احتمالية وقوع ضرر مفاجئ. تجاوز العمل مدة الشهر. المدقّق لم يكن من جهته يرتاد المطبعة بتاتاً. منذ التجربة الأولى التي أجراها ورجل الملابس الرسمية تُشاغله فكرة تسريب نسخ كُتب محظورة. طلبُ الفارس الأخير كان له حصة وافرة من قلق يتصاعد إثر تزاحم الأحداث وتداخلها. ما الطريقة الممكنة والمتاحة التي تسمح له بإخفاء نسخة من اثنتين يجري إيداعهما في الإدارة؟ كان يوماً ماطراً منذ الصباح. جميع الموظفين يهرولون من بوابة مبنى إدارة المنشورات عند انتهاء العمل هرباً إلى سياراتهم من زخات المطر الثخينة. راودته خطة أخذ كتاب إلى البيت بحجة استكمال قراءته وإنجازه. سَلَمَ للفكرة مبدئياً. وعوضاً عن كتاب محظور واحد أخذ اثنين ينتظران حتفهما في مخروط لاهب. رأى أنه وقت مناسب لفعل كهذا. سيأخذهما ويتركهما عنده إلى أن يتيقن من الطريقة المثالية التي لا تثير الشكوك ولا تلفت الانتباه. خطر له أن ينتشل نسخه من مكبات المحظورات التي ينقلونها إلى الخارج عند كل مخروط. سلة حديدية ذات عجلات تُلقى فيها الكتب بعد استصدار تقرير المنع فور انتهائها من غرفة التدقيق. يتم تسليمها وفق وصل إثبات على خروج نسختين من كل عنوان

إلى قسم الإتلاف والتصفية. الكتب تُرمى في المخاريط بطريقة عشوائية فيصعب رصد نسختين من كل كتاب.

الأمطار واصلت الهطول. تشتد وتهدأ بتبادل لا يكف. المدقّق رابط بالقرب من النافذة المطلة على واجهة البيت رفقة كتاب المكتبات. تداعى له مشهد حالم يوم أرسلته أخته إلى زينة ليحمل عنها كيساً ثقيلاً، يوم تلامست أصابعهما. سرت فيه رعشة لذيذة، وانتفضت مشاعره تستدعي كل ما له صلة بتلك الليلة. كانت الحالة تعاود تَمثُّلها أمامه. ينظر حوله لعل أخته في الجوار. تعتريه متعة مُسكرة حين يعترض اسمها حديث، اسمها زينة. يود لو يسمع هذا بلا توقف، عنها وكل ما يتعلق بها. الحكومة أعلنت الغد عطلة رسمية. الأمطار تسببت في مشكلات في الطرق، والأوضاع في الخارج قد تنجم عن أخطار لمرتادي الشوارع، ولطلاب المدارس، ولوسائل المواصلات. الكتابان اللذان انتشلهما المدقّق وضعهما على طاولته بالقرب من سريره: التاريخ الموجز، ورواية عالمية معاصرة. رأسه يعج بأفكار متقاطعة. ينظر إلى غلاف كتابه. خطوط طولية وعرضية تخلق صورة كتب متكدسة. العطلة وصوت زخات الخارج فرصة جيدة لمراجعة قرارات قد تؤدي إلى نتائج وخيمة. لو تمنحه الطبيعة عطلة دائمة، أمطاراً أبدية لا تتوقف! المطبعة كذلك لم تتوقف عن مزاولة نشاطها. صناديق كتب متوالية تتكدس في الأرجاء إلى أن تحين القدرة على نقلها إلى الخارج. العائلة – المدقّق وأمه وأخته – التفوا حول التلفاز مساءً تحت صخب رعد المدينة ووهج برق السماء. تُواصل الحكومة تغطياتها الإعلامية

لجهودها الأمنية في مساعدة الناس على تأمين سلامتهم وحفظ ممتلكاتهم. المياه تسربت إلى بعض المنازل. أتلفت سراديب وأدواراً أرضية. بعض المناطق هابطة فتنحسر الأمطار وتصب فيها. من حسن حظهم أن منطقتهم تقبع في ارتفاع يحميها من كوارث محتملة شبيهة. المدقّق تذكر الفارس حين أخبره أنهم ينتقون المكتبات الأرضية بعناية. تُراهم عمدوا إلى تلافي مشكلة متوقعة من هذا النوع؟ لم يجد فرصته تلك الليلة لإفراغ شهوة الحديث عن زينة، لا الموقف ولا المناسبة. إعلان جديد يشي باستمرار العطلة الرسمية ليوم ثانٍ. الطبيعة تستجيب لأمنيات خاصة وخالصة. العطلة قد تكون حاجتهم لتهدئة الأوضاع ومظاهرات الاعتراض. مع أن الكاميرات تُلقي بتركيزها على أوضاع الطرق والشوارع في تغطياتها المباشرة، فإنها لا تستطيع السيطرة الكاملة على تلافي إظهار كلمات وعبارات كُتبت على الجسور والحوائط الخرسانية واللوحات الإرشادية وفي الأنفاق. في المدة الأخيرة، انتشر رسم في مناحي المدينة لنصف ملامح بالأسود تُشكل وجه الروائية المُغامِرة، كشعار وجيه للحملة التي تناهض ممارسات الحكومة. الرسم نفسه يراه المدقّق وجه زينة. في صبيحة يوم تالٍ، كان يجلس في مكانه بجوار النافذة ينظر إلى حركة الغيوم. خطرت له عطلة أخرى سانحة، استجابة ثانية لرجاء قلبي محض. إذا ما تمت، ستندمج وعطلة نهاية الأسبوع، ما يعطي فرصة أكبر لمراجعة وضعه ضمن الأوضاع الحاضرة. كانت أخته قد انضمت إليه في كرسي قريب. أرادت فتح التلفاز لمتابعة مستجدات الخارج.

أوقفها المدقّق، وسألها عن السبب في توقف زيارات زينة منذ أمد. أظهرت استياءً مبالغاً من سؤاله. تذمّرها يحيل إلى سؤال آخر في أعماقها لم تتفوه به: "متى تكف عن ترديد هذه الأسئلة؟" رغم شعور صاحبنا بانكسار إثر رفضها التجاوب وصده بأسلوب غير لائق، فإنه، كما عادته، لا يبدي رد فعل عدائياً. أعرض عنها فقط وخرج ليجلس مقابل البيت تحت مكان ظليل يحميه من الأمطار.

في المساء، قرعت أخته باب غرفته. كان من الواضح أن ضميرها قد وبخها على فظاظتها معه. قبّلت رأسه عندما استجاب لطرقاتها. لم يمنعها من اعتذارها بتلك الطريقة. كان ينتظر منها تبرير تصرفاتها المستمرة على هذا النحو، وحول هذا الموضوع بالذات. طلبت منه الدخول حتى لا تنتبه أمهما إلى حديثهما. كانت وكما كل الأشياء التي نتجنبها، أو نخشى الاقتراب منها، لا تعرف متى تجد وقتها المناسب أو الحالة الجيدة حتى تعالج هذه الورطة العالقة بينهما. أوضاع البلد، أوضاع الوظيفة، حالة المطبعة، حالة القراءة... كل الأشياء تتجه إلى غير ما يطمح. كيف لها محاورته في أمرَها. كيف تبدأ كيف تنتهي كيف تصل... جلست قبالته ووضعت كفيها على صدغيها في محاولة لاجتذاب عبارات مناسبة تسعف حالها. كانت عيناها قد بدأتا تدمعان. اهتز قلب المدقّق عندما انتبه إليها. قالت بلهجة واضحة، شديدة الوضوح: "عليك نسيان زينة"، ثم كررتها مرتين بصوت مغموم: "عليك نسيانها، عليك نسيانها، زينة تزوّجت منذ عام، وقد أنجبت للتو طفلها الأول". عادت السُّحب وتظافرت. أمطرت الليل دون رحمة، دون توقف.

أغرقت كل المدينة. الحكومة لم تجد سبيلاً آخر. أعلنت يوم غد عطلة جديدة.

***

IV

”نسيت تماماً أن المهذب قد حصل على رقم هاتفي من عليوي. كانت ليلة باردة في مقهانا المعتاد. نحاول أن ندفئ مشاعرنا مع كل شهقة سيجارة. نخزّن دخانها ثوانيَ قبل أن يختلط مع طقس الخارج، في حين تذكر عليوي فجأة أمر صاحبه. عدّل جلسته ومدد ساقيه بعدما كانتا مثنيتين فوق الكرسي. سألني هل اتصل بي المهذب. فكّرتُ لحظتها في استغلال الموقف لزجه في الأجواء. قلت: ”نعم“، ورميت بسيجارتي التي شاب طعمها مرارة عقبها. ”لقد طلب أن أرتب له موعداً لزيارة مكتبة أبي“. سمعتُ في تلك اللحظة صوت رصاص خافت يأتي من فيلم يُعرض على التلفاز. ”صحيح“، استدرك عليوي، ”لم أكن أعرف أن لوالدك مكتبة تحوي مجلات وقصص أطفال“. تداخل جوابي معه: ”ليس لأبي أيّ مكتبة“. جلجلت ضحكته سكون ليل المكان كعادته. فأكملت موضحاً: ”لفقت له الكذبة خشية إزعاجه المحتمل إذا ما علم بعلاقتي والقصص خلال الطفولة“. في الأثناء، لاحظتُ أحدهم يجلس في كرسي منزوٍ وحده. يَغرق في ظلام عزلته، وينظر إلينا بترقب. ثم أردفت: ”بعد ذلك قال لي بضع ترهات عن شخص خطير يلاحقه ويريد أن يضرم النار بمجموعة القصص القيّمة التي يمتلكها“. عاد وانفجر مرة أخرى. هذه المرة التَفتَ إلينا

كل مرتادي المقهى تقريباً. "مجنون". عليوي يقول: "هذا الولد مجنون". وددت لو أقول له: كلاكما طينة واحدة، لكنه استعاد نفسه وقال إن هذه الكذبة أزلية ومعروفة، ويفضي بها لأي شخص يختلي به. فأضفتُ: "لقد أصر أن نلتقي في أقرب وقت، وقدّم دعوة عشاء في الفندق القريب من منزلي، وقال إنه يعرف مطعماً رائعاً في شرفة الطابق الأول التي تطل على بهو الاستقبال، لكنني رفضت فوراً". فأجاب لطيّ سيرة المهذب: "دعك منه. هذا الولد يبتغي العيش في أجوائه البوليسية".

أنا لا آخذ أصدقائي على محمل الجَدّ، ولا أيّ شخص كذلك، حتى نفسي أسخر منها في الأوقات التي تختلف عن الأخرى. أنا أركض وراء احتمالات الحقيقة فقط. سألته هل حاول أحدهم التحري وراء مسألة الرجل الذي يحرق القصص لكنه أجاب قاطعاً: "لا أحد يصدق المهذب إطلاقاً. قصاصة الخبر التي تفيد بالقبض على رجل لقبته الصحافة شيطان المكتبات ليست دليلاً كافياً على صدق ما يحدث معه، لكن اهتمامنا المشترك يدفعني إلى موافقته ومتابعته، إضافة إلى السبب الذي دفعه إلى القدوم إلى المقهى يومذاك. لقد كان على موعد مع رجل يريد بيعه نسخة نادرة وثمينة جداً من كتاب حكاية الحكايات. قبل أكثر من قرنين، كما روى المهذب، اندلعت ثورة في إحدى دول أوروبا وشاعت الفوضى، وبات الرجال يتقاتلون في الطرقات، وقبل أن يُقبض على الملك، تمكن من تهريب ابنه رفقة معلّمه في قارب صغير، وأرسلهما إلى جزيرة يُعرف أنها مسكونة بالجن والعفاريت، وتداول الناس حولها الأخبار والخرافات. جَمع الفتى ما استطاع من ممتلكات خاصة قبل الهرب، وكان بينها ذلك الكتاب الوحيد والفريد من نوعه آنذاك، وخبأه في كهف ضيّق على مُرتفع الجزيرة تحوطه الأشجار من كل صوب، وبعد شهور، أو ربما

سنة وأكثر، عُثر على الفتى ومعلّمه ملقيين على الشاطئ وقد أعياهما الجوع والعطش، فاعتقلهما الثوار وأعدماهما لاحقاً مع العائلة الملكية التي تعرض أفرادها للاعتقال منذ وقت، وظلّت ممتلكاته في مكانها إلى أن وجدها بطريقة ما بعد سنوات عدة أحد الناجين من سفينة سياحية شهيرة غرقت بالقرب. المهذب يقول إن حكاية الحكايات تستحق مخاطرة الحصول عليها، إذ إنها شاهد على أحداث تاريخية موغلة القِدم إضافة إلى أنها أول كتاب صادر يحوي حكايات شعبية للأطفال".

أصبحتُ أدقق النظر كثيراً في الناس الذين يسيرون ويجلسون بالقرب مني منذ لقاء الفندق ذاك. أنا لست بعيداً من خطر ملاحقة أحدهم. قلت بصوت معبأ بالذكرى: "صديقك هذا أعاد إليّ أجواء تَعقُّب أحداث القصص الحميمة وشغف معرفة نهايتها". مد إليّ عليوي سيجارة جديدة قبل أن أُفصح له عن فضول حقيقي لمشاهدة متحفه الخاص والاطلاع على مقتنياته. اخترق حديثنا صوت آخر لرصاص خافت يأتي من التلفاز. قلت: "خَطر لي أن ندّعي له تصديق قصة الرجل الذي يلاحقه، ونسعى معه لكشف ملابسات الأمر، ونرى إلى أين سيقودنا هذا". كان جمر سيجارته يتقد تدريجياً، فأكملت: "أراها فكرة جيدة قد ينتج عنها إثارة ممتعة بدلاً من هذا التكرار الممل الذي نمارسه كل ليلة". هز عليوي رأسه ونفث دخانه: "فكرة جيّدة". كان الرجل الذي يجلس في مكان منزوٍ قد نهض من كرسيه، وأخرج محفظته من جيب بنطاله الخلفي، وألقى ورقة نقدية على الطاولة ورحل. لم أتمكن من رؤية ملامحه بتاتاً. كان مصباح المقهى المعلّق على عمود خشبي يسلط إضاءته على جزء من صدغه وأذنه اليمنى. أما شاشة التلفاز، فأظلمت وبدأت تستعرض كادر فريق عمل الفيلم الذي انتهى.

في تلك الليلة، عندما عدت إلى البيت، قالت أمي وهي تهمّ بالدخول إلى غرفتها: "اتصل رجل يسأل عنك، ولم يمنحني فرصة معرفة اسمه". استعرَضَت مخيلتي صور بعض الأصدقاء لكنني توقفت عند وصفها: "اتصل رجل". قلت لها على سبيل التحقق: "قد يكون أحد زملاء المدرسة؟" لكنها عقفت حاجبيها فوراً: "لا؛ يبدو رجلاً كبيراً". أخذتُ الهاتف واتصلت بالمهذب. ردّ بصوته الهادئ الهمس. عاجلته بالتحيات، وسألته بتردد هل اتصل من وقت. توقعت أن ينفي ذلك. أخَذَت ذاكرتي بعجالة تطوف تاريخ الأشخاص الذين أعرفهم. لم تجد اسماً مرجحاً يسد حيرة الحدث. هل أتوقع أن شيطان المكتبات قد أدرجني فعلاً في لائحة المطلوبين؟ صرفت الفكرة وجنحت إلى تغيير وتيرة الحديث: "اسمع، يا مهذّب، لقد أخبرت عليوي بما جرى بيننا، لقاء الفندق وقصة الرجل الذي يحرق القصص، ودليلك في ورقة الخبر، وعلينا الآن أن نتماهى معاً لمواجهة الأمر. ما كان في استطاعتنا وحدنا، أنا وأنت، فعل شيء رادع ضد رجل مجنون. وجود عنصر ثالث سيساعدنا كثيراً، وإن تطلب الأمر، فلا بأس من إضافة رابع وخامس". أوقفني رده. سمعته يقول: "أرجوك"، ثم عاد وكرر: "لا، أرجوك... يكفينا عليوي، هذه القصة إن تشعبت، فلن تصب في مصلحتنا. عليك تَذكّر أولاً كتاب حكاية الحكايات". سَكتُ، ولم أُجبه، فأكمل: "نحن نهدف إلى الحصول على كنزنا أكثر من سعينا إلى التخلص من الشيطان". سمعتُ باب البيت يُفتح في الأثناء. كنت أجلس في غرفة المعيشة. أطللت ناحيته؛ كان أبي. شعرت في رغبة عاجلة في إنهاء المكالمة، فقلت للمهذب: "دعنا نتحدث لاحقاً"، ثم أغلقت الهاتف. عندما أقبَل، كان متجهماً منزعجاً. شَعَر بوجود شخص بالجوار. اقترب من مكاني، فظهرتُ له وألقيت التحية. تجاهل الرد وسألني هل يجالسني

أحدهم في الغرفة. نفيت له ذلك. ربما سيكون هناك تنافرٌ تلقائي بين المهذب وأبي: الأول يرغب في نقل مكتبته إليّ لحمايتها، والآخر أنا بحاجة إلى من يحميني منه. كلّما تأملت أبراج المجلات والقصص في غرفتي، تدهمني ذكرى صغيرة في وقت ما. كنت أطمح أن أشيّد ناطحة من الحكايات تخترق سقف الغرفة، أو أصنع سريراً من الكتب، وأغطي الحوائط بالمجلات والقصص. كانت أمي دائماً تتحدث عن هوايتي بفخر عند أصدقائها وبقيّة أفراد العائلة. أبي لم يكن يولي الأمر أهمية كبيرة. بعد سنوات صار يوجهني إلى اهتمامات أخرى. لم أستجب بفعالية مثلما يطمح إلى تلك الأشياء. وكلما باءت محاولاته الحثيثة بالفشل، يصير أكثر عدائية ومقتاً لأكوام الأطفال كما يصفها، بالسخرية والمقارنة والانتقاد والمشاجرة والقوانين والعقوبات، ثم لا شيء يتغيّر.

بعد يومين، أفصحت لعليوي في المدرسة عن لقاء حقيقي جرى مع المهذب. جاء إليّ مع سائقه بسيارة فارهة. أخذني إلى الفندق. كنّا نجلس في المقاعد الخلفية. غمرني إحساس بأنني شخصية ذات شأن. مطعم فخم هادئ لا يتوافق مع ضجيج الداخل. هو ينطلق من حاجته إلى مكتبة أبي. أنا كاذب. لا أملك القدرة على المصارحة. في سريرتي أنا بين حيرتين. في ذلك اليوم أيضاً، لم أكن أملك في محفظتي فلساً واحداً. أمام عليوي أتصنع مسايرة صاحبنا للعبث ومعرفة حقيقة الرجل الذي يلاحقه. أمام نفسي أريد صديقاً أفضي إليه حديثاً متبادلاً حول القصص. أمام المهذب أنا معتدّ بنفسي فوق العادة. أستمع له باهتمام ولا أخشى أن يصيبني ما أصابه. في ظهيرة ذلك اليوم بالتحديد، حين العودة من المدرسة، عند نقطة افتراقنا – أنا وعليوي – عرَّجت ناحية زقاق يختصر المسافة وتحاذيه الأشجار من الضفتين. سكينة النهار إلا من قلق صغير تفتعله بضعة عصافير

في الأرجاء تبحث عن غصن مناسب لقيلولة قصيرة. لا أسمع سوى صوت خطاي على التراب الخشن. أركل بعض الحصى الذي يعترض الطريق. أقطع أوراق النباتات دون حاجة. تخطر كل الأفكار عادة في وحدة هذا المكان الذي يستغرق ثلاث دقائق في أسوأ حالاته للوصول إلى البيت. أسمعُ قرقرة انقباض معدتي، وألمح هناك عند منعطف قريب رجلاً يقف وراء أغصان النباتات الكثة. أخذت أبحلق في اتجاهه لكن رجلَيَّ لم تتوقفا لحظة عن المسير. كانت عيناه اللتان التقتا عينيّ تراقبان أو تترقبان. قامته نحيلة ناشفة. لحيته مدببة حادة. تحرّكَ من مكانه في ذلك الحين. بدا لي أنه يخرج من مخبئه. هممت أسرع باتجاه البيت. شعرت بغرائبية الوضع. قلت لنفسي: "سيحدث شيء، بلا شك". وبقدر الإمكان، حاولت الابتعاد دون إثارة بلبلة. شعرت في تلك اللحظة أن حقيبة المدرسة أثقلت حركتي، وسمعت صوتاً ينادي باسمي!"

١٣

غادرت السُّحب وتوقفت الأمطار لكن الخسائر كانت باهظة جداً. تدفقت أطنان المياه إلى المنازل، وجُرفت السيارات إلى نواصي الأرصفة، وأَخرَجت المجارير قاذوراتها، وأُتلفت بضائع المخازن. بعد أيام جفت الشوارع والمشاعر، وشُطفت جدران المدينة، وبان وجهها الآخر، ثم باشرت الحكومة سلسلة من الإصلاحات المتوالية: الطرق، الصرف الصحي، الكهرباء، الهواتف السلكية، أنفاق الخدمات. الكارثة أسفرت عن فوائد خلاف المضار: انتهاء صلاحية بعض المرافق القديمة، وأخطاء في محطات ومنشآت خدمية. بعد أيام أخرى، استهلت الحياة كما ينبغي: بدأت دوائر العمل نشاطها، وانتظم التلاميذ في المدارس، وعادت الأجهزة الأمنية إلى قواعدها، وخلت المستشفيات من ضحايا المأساة، واستقرت البلاد من جديد. لكن المدقّق لا يزال غارقاً.

كانت الإدارة قد استأنفت عملها منذ حين، وحالة من الكسل تطغى على الأجواء، إلا المسؤول الذي اقترح بحماسة في الاجتماع الأسبوعي الأول عقب الأمطار فكرة مبتكرة تتضمن عرض مكافأة

مالية للكتب التي تلتزم قوانين الإدارة الجديدة، ويفضّل أن ينْصبَّ تركيزهم على تلك التي تخدم موضوعاتها الانتماء الوطني. إضافة إلى ذلك، تروج الدولة وتعلن في الوسائل كلّها الكتاب المُختار في كل أسبوع أو شهر، وهذه التفاصيل خاضعة للنقاش الحر بين الموظفين، لكنها فكرة من شأنها تشجع المؤلفين على التسابق للفوز بهذه المزايا. عاد المدقّق إلى العمل بعد ثلاثة أيام أخرى من العطلة الجبرية الماضية. كانت هالة عينيه وخداه المنتفخان دليلي إرهاق وتعب، إضافة إلى إهماله الواضح مظهره العام. كل الذين التقوا به ذلك اليوم فوجئوا من حالته بمن فيهم المسؤول، ولما سأله، رد المدقّق بإجابة بدت كأنه أعدها من قبل: "لقد غرقتُ في البيت". لم يصحح المعنى المراد من جملته السالفة. فَهِمَ على نحو خاص أن سيول الماء قد أتلفت منزله وممتلكاته. لم يكن قادراً على العمل، وصار يُعرِض عن الكلام مع زملائه. السكوت والانعزال والغوص إلى الداخل. وراح يبحث في دُرج مكتبه بين رزم الأوراق المتراكمة عن علبة دواء المعدة. وجد واحدة منسية تحوي قرصين. تناولهما دون أن ينظر إلى تاريخ انتهاء صلاحيتهما، وقبل انقضاء يوم العمل اجتهد ليفعل شيئاً يعينه على نسيان غمّه وإزاحة ثِقله، لكنه يشعر بإرهاق عظيم عند أدنى مجهود. الحياة بدت أكثر عبئاً من أي وقت، وحالة من تلاشي الغايات تتقاذفه في كلِ الاتجاهات. المقاومة فعل للمحافظة على البقاء، والمدقّق بات يشكُّ في رغبة الاستمرار في هذا العالم. في الأسبوع الماضي، تبادل والفارس حديثاً حول خطتهما: الأجواء في الإدارة، ردود الفعل حيال كتب متوالية اجتازت حواجز

المخالفات. نَصَحه المدقّق بضرورة إرسال كميات كبيرة من الكتب التي تتضمن مخالفات أسوة بالأخرى المزورة أو المشوهة لذر الرماد في الشكوك. المسؤول إن غفِل عن شاردة، لا تأمنه في الواردة. لاحظ المدقّق يومذاك انشغال الزملاء بكتابة تقارير حظر كثيرة. قال لنفسه بصوت يغزوه الأسى: "لست وحدي من يقاوم". كان الغياب سبيلاً جيّداً له. يحاول أن يتوارى عن الدنيا. أمه التي حاولت تفهّمه، الاقتراب منه، الاتصال به... لم يكن قادراً على الإفضاء إلى أيّ أحد. تولتها أخته. قالت لها إن الفتاة التي يحبها ما عاد في استطاعته الزواج بها. لم يعد له الحق في الاقتراب. إن الفجيعة تكمن في تحوّل الممكن والمتاح إلى مستحيل. لكن السؤال المشروع الذي يراوده بين حين وآخر: متى تكتشف زينة أن زوجها لا يناسبها؟ متى يحين موعد انفصالهما؟ أسئلة وافتراضات على شكل نتف لوح لا تمنح النجاة وسط محيط متلاطم لا يَشعُر بالغرقى. كان إذا خرج من العمل، يتوجه إلى البحر ويسير بمحاذاة الشاطئ ويحمل في يده كتاباً لا يقرؤه. فقط ليمنحه شعور الصحبة. ساقاه لا تحملانه لمسافات بعيدة. في حال يشعر أن الأرض بدأت بالانشقاق، تتهدج أو تتهاوى في أخرى، ينتابه إحساس بالسقوط. يرى البحر، هذا المداد البعيد لو يخطفه في لحظة ينهي الوجود من دماغه. هلوسات وخيالات تغور دون توقف. هذه الحياة صورة ثابتة تتحرك في رؤوسنا فقط.

انقضى أسبوع ثقيل أنجَز خلاله كتابين لا أكثر. استغرب أحد الزملاء من هذا الكمد الغريب. لا بدَّ أن له سبباً آخر غير الخسائر المادية. محاولات البعض وعرض المساعدات كانت تزعجه جداً.

في الاجتماع الأسبوعي، عَرَض الزملاء مفردات جديدة للتشاور في حظرها: قمع، نعوظ، حسبة، خلع، دفق، عرش، رعش، نوص، ائتلاف، نساب، مكاس، انقلاب، نضال... وقبل خوض النقاش في تفاصيلها، الجواز أو التجاوز، أعلن المسؤول خطوة جديدة تتخذها الدولة، مَهمة تحتاج موظفين جداً. بعد فرض مدقق في كل الصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية، ودقة متناهية في الهيمنة على محتويات الكتب، الآن، ترى الحكومة ضرورة فرض موظف يمارس صلاحيات مراقبة مخرجات المطابع الخاصة ومتابعتها، ويجب على المؤلف أخذ موافقة سابقة من الإدارة قبل اعتماد الطباعة التي تَرسِل بدورها النسخة النهائية في رسالة بريدية حكومية إلى الجهة التي ستتولى تنفيذ الكتاب وتصنيعه. قال المسؤول موجّهاً كلامه إلى فريقه: "من الآن وصاعداً ستراجعون مسودات الكتب التي ستُطبع محلياً".

كلّما أحكمت الدولة قبضتها على المنابع، أُغلق منفذ من منافذ الفساد. كان المسؤول يشعر بثقة واطمئنان تام. هكذا تحافظ البلاد على كيانها وطابعها. بينما كانت الأجواء غائمة في الخارج، غرفة الاجتماع مظلمة تقريباً ولم يحاول أحدهم الاستعانة بالأضواء الكهربائية. كان المدقّق لا يكاد يلاحظ فم المسؤول الباسم. فكّر في حاجة ماسة إلى مراجعة طبيب العيون. أبدى أحد الزملاء تساؤله حول استخدام وصف مراقب للشخص الذي سيدقق إنتاجات المطابع. نقطة مثيرة للانتباه والإعجاب في آن. لكن المسؤول مدرك تماماً اختياراته. أبدى بنبرة عارف: "المراقبة فعل مجرد ومحتمل عدم إبداء رد فعل حياله. تحمل معنى النظام والملاحظة أكثر من التصدي

والمجابهة. أما التدقيق، فسِمَة ليست تابعة. إنها فعل متفحص حثيث ملحق بعواقب تلقائية".

المشاعر حالات كثيرة، منها الطارئ الذي لا اسم له. الإنسان يختار أسماءه من الأشياء التي يعرفها. ماذا لو كانت حالة لا تشبه الإنهاك والإعياء والنعاس، أمراً يستوجب عليك خلق صورة معجونة من مشاعر عدة. قصور اللغة ناتج عن عجز ذاتي. المدقّق وسط عصف أهوج يختزل ذاته في ذاته. كل الكلمات التي حطت عليها عيناه، التي استوعَبَ مداها أو عمقها، التي تسلى بتنضيدها وخَلَق منها صوراً عالية النقاوة، ومشاهدَ ملأى بالأحاسيس... تلاشت. جاءت غيمة أخرى في سماء مبنى الإدارة. ظلمة حالكة في غرفة الاجتماع. أحس صاحبنا بخنقة ووخز في جلده الذي بدأ يفرز العرق. خطرت له صورة الروائي الفارس. الليلة سيقول له: علينا إيقاف الخطة. الحكومة تزرع عيوناً جديدة، تدقق أو تراقب. الدولة تتربص بالمتربصين. ربما سيقول الروائي إن خلاصنا هو المواجهة الصريحة. ربما لجماعاتهم حلول وألاعيب أخرى، خطة بديلة، أو يواصلون خطتهم الأصيلة. أصبح المدقّق لا يسمع شيئاً مما يقال في الاجتماع. ينظر فقط إلى جحوظ عيني المسؤول اللتين تكادان تخرجان من محجريهما، ولحيته التي تركها تطول أخيراً وقد ابيضّت تماماً. ليس واثقاً بما يراه، هل هي حقائق أم أوهام. بدأ يشعر أنه يفقد وعيه أو ينام. يغمض عينيه تدريجياً. اسوداد الرؤى تماماً. جائز أن تكون هذه تخيلات أيضاً. تذكر منظر السيارات أسفل نافذة غرفة الاجتماع. رأى أنه يقف هناك ينظر إلى الأسفل، دوار،

دوار... هذا بلا شك ليس واقعاً. صوت احتكاك أرجل الكراسي بالأرضية الرخام. استعاد وعيه فجأة. كان الزملاء يهمون بالوقوف. سَحَب نفسه وتظاهر بأنه يفعل مثلهم. لاحظ أن المسؤول لا ينظر في اتجاهه. نهض متباطئاً بسبب ألم حاد في خاصرته. عندما وقف أحس بالآلام تتمدد وتتسع وتحوّط بطنه وقد استدارت عليه مثل حزام، وقبل أن ينصرف طلب منه المسؤول أن يبقى قليلاً ريثما ينتهي من حديث جانبي مع أحد الموظفين. لقد مرَّ بهذا الموقف من قبل. أراد أن يتذكر متى ولماذا. كل الأشياء آلت إلى النسيان. لا الحالة ولا المدة الزمنية السانحة تسعف شيئاً. خرج الزميل. لم يبقَ سوى المدقّق والمسؤول. كان في يده أوراق فيها جداول وأسماء. طلب منه أن يقترب أكثر لينظر جيداً. بعد ثانيتين تقريباً عَلِم أنها قائمة بأسماء وعناوين كل المطابع. أمّا في الخانة المجاورة، فأسماء أشخاص. وضع المسؤول إصبعه في مكان على الورقة وقال: "انظر! أسماء ملّاك المطابع في القائمة المقابلة. هذا اسمك". لا نعلم من قال بالضبط. هل كان يحدّث نفسه أم الآخر يحدّثه. الأهم أن هذا بالتأكيد ليس من قبيل تشابه الأسماء! في الأثناء، كان الألم يتصاعد في شكل غاز حمضي إلى المريء.

***

تُرَتِب ماكينة الطباعة أوراق نسخ الكتب الخام على حامل بارز. إن أهملتَ نقلها، فإن الحامل سيهبط كلّما ازداد وزن الورق. رأى

المدقّق في تلك الليلة أن الماكينة قد ثقلت وغاصت أرجلها في البلاط. وبعدئذ انتقل المشهد إلى زينة. كانت تنظر في مرآة وقد غزا وجهها البثور والدمامل حتى كاد لا يعرفها، وكانت تتحدث إليه بارتباك بيّن، لكنه يمعن النظر في الاحمرار الداكن على الجانب الأيمن من أنفها، الأمر الذي مسخ ملامحها إلى درجة أنه لم يتحمل إطالة النظر إليها. عندما استيقظ، شعر بشعلة أمل تدفئ قلبه. أرجأ حلمه الأخير إلى إشارات واضحة وجليّة حيال سوء أحوالها ونفسيتها، لكنه عندما عاد إلى المراجع الموثوقة، وكما ذُكر في كتاب "الدليل الحاسم لرؤى الخيّر والآثم"، وجد أن البثور الحمراء في وجه المرأة المتزوجة علامة عن حبها الشديد لزوجها.

اعتزم في مساء ذلك اليوم ألا يعود إلى عمله. كانت جملة ثقيلة قد استعصت عليه. لَفَظها قيصرياً. لم يستغرق في التفكير في هذا الشأن. هبط عليه القرار بصورة طارئة وحاسمة. "لن أعود إلى العمل"، هكذا قال. عندما رفع رأسه من ورقة الكشف التي تتضمن اسمه، نظر في عينيّ المسؤول. كانت تلك اللحظة التي قالت ما قالت. حتى عندما أفصح له عن قصة المطبعة، إرث أبيه الذي يؤجره لشخص آخر يتولى شؤونه بالكامل، ولا سُلطة له أو عليه، لم يشعر بارتياح. رأى كما لم ترَ العيون: الأمور لن تسير على ما يرام. أرسل قلبه رسالته القاطعة، وانصاع دون مماطلة: لن أعود إلى العمل. سأعتزل وأنقطع. واتصل في تلك الليلة بالروائي الفارس وأخبره بوجوب إيقاف العمل حتى يجدوا البديل. قال: "أنا في عداد المستقيلين". عند انقضاء العمل في ذلك اليوم صادف مرور مظاهرة عند تقاطع قريب من مبنى الإدارة.

أوقف سيارته بالقرب وأراد أن ينضم إليها. لم يرَ نفسه في أي وقت مضى ضمن تلك الجموع التي تسير نحو نهاية غير محددة وتهتف بصوت واحد وتُكرر دون توقف عبارات سجعية سطحية تفتقر إلى العمق والتجديد. لذا، في لحظة ما، قرر أن يعود إلى سيارته. حاول الفارس حينئذ أن يقنعه بالعدول عن قراره. "سنسعى معاً لنزيح الشكوك من قلب المسؤول". "لو تعرف خطوتهم التالية. سيسلّطون موظفاً على المطابع، وسيطلقون عليه اسم المراقب". لم يكن خبراً مفاجئاً للروائي. قال: "أعلم بكل هذا. سنتعامل معهم". كان المدقّق في حالة صعبة جداً. توسل إليه بكل الطرق أن يصمد ويتماسك. "يا مدقق، لو تدري أنني على مقربة من خطوة الإفراج عن الروائية المُغامِرة، إنها قوية وصلبة في زنزانتها، وأنت عمود أساس في بنائنا". كان يعيش حالة مشوشة، مرتبكة، متوترة، ولا يعرف كيف يتخذ قراراً صائباً، لكنه في كل الأحوال لم يذهب إلى عمله حتى نهاية الأسبوع. حبس نفسه في غرفته طوال المدة. كان في ليالي تلك الأيام، عند ساعة محددة من الفجر، يصدر من غرفته أصوات لطم وصراخ، ثم يلحقها ببكاء غاية في الحزن واليأس. لم يعرف أحد ماذا يحدث بالضبط، عدا تلك الوحدة، الحالة الغائرة التي تُرسخ في عقل المرء قناعات تقول إن لا أحد في استطاعته أن يفهمك، ولن يصل إلى إحساسك، وليس هناك من سيعطيك ما تحتاج؛ أنت وحيد وهذا قدرك الأزلي. فقط الكوابيس التي كان في مقدورها الدخول إليه كلّما استراح من ضجيج أفكاره.

في ليلة مغايرة، وجد نفسه يخرج من باب بيته، ثم أخذ يسير في

جوار قريب، مكان يألفه لكنه لا يعرفه. كان طريقه وعراً خطيراً، وعلى جانبيه، تسكن الأفاعي والتماسيح والسحالي والعقارب، ورأى كذلك تنيناً بثلاثة رؤوس، وكان يحمل في يده كتاب المكتبات. رغم الظلام والفخاخ والرياح الشديدة التي تحمل وتحوم من حوله الحشرات والقاذورات، فإنه يواصل مسيره بسعادة وإصرار. كانت تغمره حالة غريبة من الارتياح، وفي آن، شعر أن الطريق طويلة جداً وتكاد لا تنتهي. حتى في لحظة ما اعترته الشكوك في أنه قد لا يستيقظ أبداً، وبعد أن تكررت مَشاهد الضواري التي تحاول مضايقته على قارعة الطريق، ومشهد الحفرة التي يختبئ داخلها رجل مشتعل يحمل في يده بندقية صيد، انتبه فجأة أنه وصل إلى حافة المنطقة، جزء مهمل رملّي يتوسطه برج كهربائي. عهده في هذا المكان يعود إلى طفولته. في وقت ما، كان يقود دراجته الهوائية بين الأزقة حتى يصل إلى هذه المحطة حيث موعد التقاء الأصدقاء. ثم رأى مربعاً إسمنتياً أسفل قدميه يحوّطُ غطاء فولاذياً سميكاً. استطاع بصعوبة بالغة، بعد ثلاث محاولات بالتمام، أن يرفعه من مكانه، حتى شَعر بألم شديد في كتفه اليمنى، لكنه دون أن يبدد المزيد من الوقت تمسّك بكتابه وقفز إلى الداخل المعتم.

عندما أفاق من رؤيته تلك، كان الوقت فجراً، هكذا تراءت له ساعة الحائط بوساطة حزام ضوئي آتٍ من النافذة يشق ظُلمة الغرفة. استدار إلى جانبه الأيسر. رأى الكتابين اللذين سرقهما من إدارة التدقيق على الطاولة بالقرب من سريره: التاريخ الموجز، والرواية المعاصرة. لمعت فكرة في رأسه. قال: "هذه إشارة لا محالة". كان

يوماً صقعاً بعد انقضاء مدة رطبة متوازنة الحرارة خلّفتها الأمطار. رياح شديدة متفاوتة الهبوب. كل الناس تختبئ في مثل هذا الوقت تحت أغطيتها وتغط في كسل ممتع، لكن المدقّق قفز من مرقده بنشاط. ارتدى بنطالاً قطنياً ومعطفين خبأ في أحدهما كتابيه. كانت أمه تنام في غرفة الجلوس العلوية الصغيرة القريبة من غرفته تنتظر خروجه في أيّ لحظة، لكنها لم تتنبه إلى صوت بابه الحذر وخطواته الناعمة آنذاك. غلبتها الأفكار وإرهاق السهر. استطاع المرور دون أن يُحدث أيّ ضوضاء. كانت سلالم النزول لا تَوَدُ أن تقوده إلى نهايتها، قال لنفسه: "سأجرب، سأتبع الإشارات". رغم عهد العزلة والانزواء والشك والحذر التام، لا مانع من تتبع علامات المنامات بعدما اتخذ موقفاً حاسماً جرّاء استشعار قلبي. وقف في الخارج أمام باب منزله يحاول مراجعة خطوته مرة أخيرة، لكن الرياح التي جاءته فجأة كادت أن تسقطه، فتماسك، وتفحّص الشارع من جانبيه: لا حركة في القرب. بدت له أصوات نداءات في البعيد لم يتمكن من رصدها جيّداً. تغمُر الأجواء رائحة حريق مجهولة المصدر. أخذ منعطفاً بعد جارَين، وخاض معبراً بين الباحات الخلفية للمنازل. هناك فسحة تضيق في موقع وتتسع في آخر، معبّدة بحجارة ملساء في المنتصف وبالتراب في الأطراف. نبتت حشائش كثة وطويلة ملاصقة لجدران المنازل المهملة. كان يصيخ سمعه جيّداً. المدقّق يعرف أنه من المحتمل أن يكون تحت الرصد. غيابه عن العمل في الأيام الماضية قد يكون سبباً لإثارة حفيظة الأمن. من يدري، ربما أبلغ عنه المسؤول! أيضاً هو الآن يتوجه إلى قِبلة محفوفة بالمخاطر.

كان يراقب أقدامه. يحاذر أن يدهس أوراق نباتات جافة، أو أغصاناً صغيرة أسقطتها العاصفة من قمة شجرة. كان متوجساً وشديد الحساسية. يتفحص النوافذ العليا ويمعن في الخرائب التي يكدسها أرباب البيوت في هذا الجزء غير المرئي من الواجهة. يدرك تماماً مدى الفطنة التي يجب أن يكون عليها، ويتساءل في آن حول استحالة الأحوال من أقصى الشمال إلى أدنى الجنوب. كان الزقاق طويلاً جداً وآخره منفذ يؤدي إلى متسع. الرياح تنحسر في هذا المكان وتهب بقوة في وجه المدقّق، وتصدر صفيراً حاداً بين دقيقة وأخرى يضطره إلى الجمود حتى تهدأ وتسنح له مراقبة الأشياء من حوله. بدا الممر مثل مكب نفايات: قنانٍ فارغة، كتابات ورسومات غاضبة على الحوائط، خزان ماء خاوٍ متصدع وملقى على جنب. عندما رآه المدقّق، تزامن معه سماع صوت ماء ينسكب من علّية مجاورة. لم يكن في مقدوره الاستعانة بمصباح يدوي يكشف له ما تلتقطه حواسه. لعل أشد ما يقرع قلبه، حين الاقتراب من أي مفرق يختبئ وراء النباتات السياجية، أنه يخشى أن يترصده أحدهم ينقض عليه فور عبوره. تذكر روايته. عنَّ له مشهد صاحبه، الفتى في الرواية. تساءل في لحظة: "لماذا لم أُطلق عليه اسماً يدلّ عليه؟" خطر له أن يختار له وصفاً يميّزه عن بقيّة الشخصيات. في الوقت نفسه، كانت زوايا الكتابين اللذين خبأهما في معطفه تضغط على الجزء السفلي من قفصه الصدري. الألم حين يتبع الخوف ينصاع له. إضافة إلى درجة التجمّد ينبغي للأرصاد الجوية التخلي عن وصف البرودة بالحرارة المنخفضة. وبقدر احتدامه، كان يشك في سيره. يتساءل:

"هل مررت من هنا قبل قليل؟"

تراءت له مظلة ممزقة في زاوية بيت يجاورها جهاز تبريد يعود صنعه إلى ما قبل عقدين على الأقل. هذه الأشياء سبق أن شاهدها. تلّة رملية صغيرة ممزوجة بالحصى. أحدهم كان يعدّ لبناء أو ترميم. هذا الزقاق كان لامعاً في صباه ونظيفاً وأخضر. كان يشقه أيام الأربعاء للوصول إلى مكتبة صغيرة في الضفة الأخرى من المنطقة، فيما كان والده يحظر عليه القراءة كليّاً. يهرب من نافذة البيت العلوية. يقفز على المرآب ومنه إلى الحديقة في ما بعد انتصاف النهار. يستغل هذا المعبر ليتوارى عن أنظار محتملة، والده أو الجيران. يتفادى أي أسباب قد تقود أبيه إلى الجنون. في المقابل، لم يكن يستطيع منع نفسه من ممارسة جنونه الخاص. فجأة انتبه إلى ظهور قطة من عدم تَصنَع فجوة في الأرض لقضاء حاجتها. تغالبه ذكرياته. حول هذا المكان تقريباً وجد صندوقاً خشبياً أملس السطح. ألهمه بفكرة. أعد له حفرة مناسبة لحجمه وأخفاه داخلها، وأخذ يحتفظ فيه بمجلاته التي يشتريها من المكتبة. في كل مرة، يقفل عائداً إلى البيت قبل غروب الشمس، قبل أن يستيقظ والده من قيلولته ويكتشف غيابه. يغلق الصندوق ويضع فوقه حجارة ثقيلة ويغمره بالتراب. بعد أسابيع وجد الصندوق محطماً والمجلات متلفة ومرمية على مدى المكان. لسبب وجيه، تذكر منامه الأخير: المكان الذي اختبأ فيه عن الرجل المشتعل الذي يحمل معه بندقية صيد. هبّت ريح أوقظت الحاضر. في لحظة، أحس بالكتابين أمام بطنه مثل سترة مضادة للرصاص. على مرمى الدرب هناك منعطفات جانبية بين كل عشرة أمتار وأخرى.

كان المدقّق متوتراً إلى درجة أنه نسي تماماً أي طريق عليه أن يسلك حتى يصل إلى مقصده. الظلال خلف النوافذ الزجاجية في البيوت التي تنبعث منها أضواء خافتة تثير ذعره وتُضاعف مخاوفه. كان حائراً أي منعطف يسلك. دوّى أزيز ماكينة في مكان ما. تذكر في الحين: مِن هذا الطريق سأصل إلى المبتغى. لاحت له الإضاءة البيضاء الكئيبة، فأسرع خطاه نحو البيت المعني. هناك توقف يومذاك مع الفارس الذي قال له: "في وقت لاحق عليك ملاحظة نافذة الطابق الثاني. إذا ما كانت مضاءة تلك علامة استعدادهم لاستقبال الزائرين". كان نوراً خافتاً أصفر. حالة من فقدان التناسق. توقف لحظة ليلقي نظرة شاملة شاخصة. من الممكن أن تحين لحظة القبض على المدقّق متلبساً. أوان معرفة وكر الكتب المسرّبة. تخيّل نفسه في رواية من أربعة أجزاء ضخمة. يقف عند باب المحفوظات العظيمة. تذكر جملة للروائي الفارس في خضم حواراته يومذاك رفقة رجل الملابس الرسمية. قال إن الكتابة الإبداعية تشوبها الآراء، والرأي بحد ذاته يفتح الأبواب.

أخذ المدقّق يبحث عن حصاة مناسبة يرمي بها النافذة. هذا البيت رغم قربه من منزله، لا تجمعهما أيّ ذكرى. كانت يده الجافة المتجمدة ترتجف. أخذ يفرك كفّيه وينفخ فيهما قبل أن يلتقط حجارة صغيرة محشورة بين بلاطتين. ثبّت قدميه جيداً حتى لا يخطئ هدفه. المعطفان يعيقان حركة ذراعه. انتظر قليلاً حتى تهدأ الرياح. استغل تردده في معاودة تفحّص المكان من حوله. هو يقف في عراء الشارع منكشفاً على البعيد والقريب. رمى حجارته التي أصابت هدفها، ثم انحنى جانباً إثر صوت ارتطامها بالزجاج. أفزعته نتيجة فعله. مرّت

دقيقة أو أكثر ولم يَرِدْهُ الجواب. تشكك في الأمر. قرر أن يحاول ثانية. المخاطرة بالوصول إلى هنا في ساعة ما بعد منتصف الليل أبلغ من المواصلة والإصرار على تنفيذ المراد. التقط حجارة ثانية. موجة خوف طوّقت قلبه. عاود فعله لكنها ارتطمت بالإطار المعدني الذي يحد النافذة. بضع ثوانٍ أسفرت عن ظلال كفّ تلوّح من الداخل في إشارة لم يعرف غايتها. انتظر المدقّق بقلق يثور ويتصاعد. في لحظة، شَعر بأنه أقدم على فعل ساذج. بعد قليل فُتح باب حديدي صغير غائر في مرآب البيت، في حين كان ينتظر المدقّق وراء السور قبالة الباب الخشبيّ الكبير رجل ملثم يحتمي من صقيع الخارج، أو على الأرجح يحاول أن يخفي هويته في آن. قال شيئاً لم يسمعه المدقّق جيّداً لكنه فهم مطلبه من إيماءة رأسه. اقترب من جهة وقوفه، وأخذ يفك معطفه الأول. أصابعه لا تعمل بشكل جيّد. استعصت أزراره أن تستجيب. أخذ وقتاً حتى خلّص الكتابين من مكانهما الدافئ. هبّت ريح شديدة في ذلك الحين. شَهَرهما في وجهه لكن الآخر طلب منه أن يقترب أكثر. بدا أنه لا يرغب في ترك مكانه. كان يتمسك بالباب بقوة. هذه المرة سمعه جيّداً. قال: "ماذا تريد؟" لم يكن يكترث لما يحمله المدقّق. كان يحاول معاينة ردّه. كشف أذنه اليمنى من وراء اللثام. تذكر صاحبنا من فوره، واستدرك أمره. قال: "المعرفة في جوف الأرض". ثم ترك بين الجملة والأخرى هنيهة انتظار يرصد تجاوبه، فأكمل: "وليست في عنق السماء". هز الرجل رأسه مرتين ثم حرك ذراعه يستحثه للدخول بسرعة.

كان الممر خلف الباب قصيراً وضيقاً ويقود إلى مساحة خارجية

صغيرة، ثم باب آخر يؤدي إلى الداخل. بدا الملثم حريصاً على عدم ترك ضيفه يسير من خلفه. لاحظ المدقّق ذلك إضافة إلى كونه يتفهّم هذا السلوك. الأوضاع العامة تستلزم تعاملاً عسكرياً أو شبيهاً بذلك، شديد الدقة والحَذَر. الرجل لم يفك لثامه بعد، ويبدو أنه لا ينوي المخاطرة بكشف هويّته لكنه أظهر اهتماماً شديداً في سؤاله: "أين سيارتك؟" لوهلة، لم يفهم المدقّق مُراد السؤال. كان يرد بتلقائية تامة. قال: "في البيت". ثم استوعب شيئاً فقال: "أتيت ماشياً". وبين الجواب الأول والاستدراك الآخر، أطلّت من عينيّ الملثم دهشة مخيفة أربكت صاحبنا، فراح يشير بأصابعه باتجاه منزله، لكن الكلمات كانت قد هربت في ذلك الحين. تلعثم مراراً قبل أن يقول: "أسكن في الجهة الأخرى"، ثم أردف: "على بُعد أقل من مئة متر". وأضاف: "أتيت من الزقاق المُختَصَر". بحلق الرجل في عينيّ المدقّق وضاق المكان بصمته. كان الاثنان في حيرة من أمرهما، لكن المدقّق أراد أن ينهي حالة الشك فقال: "أنا من جماعة الروائي... الروائي الفارس". لم تطرأ على الآخر حالة من الارتياح. لا أحد يعرف هل هناك صلة بين أفراد الجماعتين. تذكر المدقّق مشهداً من رواية يصوّر مداهمة قوات أمنية غرفة تَجمَع شاباً وفتاة يمارسان نشاطات سياسية مشبوهة. كانت اللحظة التي بدأت الأحداث بالانحدار فيها إلى النهاية، وصارت الأوراق المتبقية من الكتاب أقل بكثير من تلك التي انقضت. كل الذكريات الطارئة تنبع من صلب مشاعر سيامية مع الحالة الجارية. نَظر الملثم إلى الكتابين، وقال: "أرني ما معك". تنبه إلى نبرة صوته المميزة. رفع المدقّق ذراعه المتيبّسة. ناوله تتابعاً

الرواية المعاصرة، فالتاريخ الموجز. ثم قال: "جديدان كلياً". قلّبهما الآخر ولم يبدِ أيَّ تعليق. أشار إلى جهة السلّم وطلب منه النزول إلى السرداب. تبعه الرجل. في لحظة، شَعَر صاحبنا بحالة غير مطمئنة من جراء هذا الحذر المفرط. كانت أضواء المكان خافتة وتعتمد على أنوار في زوايا المكان. لا شيء يدل على أن هناك أحداً يعيش في هذا البيت سواه. سكون تام وهدوء إلى درجة سماع خطى الملثم الذي يترجل بجواربه على السلالم الرخامية الملساء. كانت رائحة الأوراق التي يعرفها المدقّق جيداً تفوح من الأسفل. على اليمين مكتب عليه جهاز كمبيوتر بالقرب من باب موارب، ومن جهة اليسار ممر مُتَسع يفضي إلى صالون كبير مظلم.

أخذ الملثم الكتابين ودار حول المكتب. ظل المدقّق واقفاً ينتظر شيئاً ما. أطل في الباب الموارب، فرأى شبح مكتبة. بدت الغرفة مضاءة في العمق. يصل إلى الباب رذاذ النور. كان الرجل منهمكاً في تدوين بيانات على ما يبدو، ويبحث في شيء يخص الكتابين. يعيد تقليبهما، ويفتح صفحة المعلومات. قال المدقّق: "أهذه المكتبة الأرضية؟" هزّ الملثم رأسه. حين سمع المدقّق أول مرة المسمى المخصص لهذا المكان، صوّر له خياله شيئاً شبيهاً بخندق تنبثق رفوفه من جدرانه الرملية، أو قبو سريّ بابه مدفون في مكان مخفي على الأرض. بدا الأمر مثل نكتة. ألقى سؤالاً آخر: "هل تُعدّ بطاقات مكتبية؟" صمت الطرف الآخر لا يشجع على طرح المزيد من الأسئلة، لكنه أجاب بعد مرور نصف دقيقة تقريباً: "ليس تماماً". حاول المدقّق أن يشغل وقته بمحاولة استراق النظر إلى الداخل،

فأخذ يتحرك قليلاً ويميل بجذعه كي يرى ما في استطاعته. لم يفلح في شيء. كان من الواضح أن هناك ممراً آخر يفضي إليها. فكّر في أن يتقدم بثقة في محاولة لاستطلاع الداخل، لكن الملثم قال في اللحظة نفسها: "فقط أتأكد من أنه لا نسخة مكررة في المكتبة". لم يرد المدقّق. لم يكن واضحاً له هذا التبرير. خشي من طرح أسئلة أخرى تبدو ساذجة، لكنه لم يتمالك نفسه، فقال: "أظن أنه لو توفرت أكثر من نسخة لديكم، سيكون ذلك أفضل". "لا"، رد الآخر بصفة قاطعة وفورية. ثم أكمل: "من الأفضل أن تودعها في مكتبة أرضية ثانية". استدرك المدقّق أن هناك مكتبات أرضية أخرى. صحيح، من أين جاء بفكرة المخبأ الأحادي هذا! المحفوظات الكبيرة الفريدة. أردف الملثم: "توزيع النّسخ المتكررة يحافظ على بقاء العنوان عند وقوع الخطر".

في غضون دقيقة، وجد المدقّق نفسه في الشارع أمام باب المنزل تلفه الرياح الباردة. لم يمنحه الملثم أيّ فرصة أو محاولة للدخول إلى المكتبة. أعطاه ورقة صغيرة قبل أن ينهض من مكانه تحوي رقمين يبدأ كل منهما بصفر وينتهي بسبعة. كُتبا بخط يده وأخبره أن يحتفظ بها لأنها ستدل على كتابيه اللذين أودعهما هنا، ثم قاده مباشرة إلى الخارج دون أن يودعه لو بكلمة شُكر. لم يشعر المدقّق بالرضا أو الاكتفاء؛ هل هذه نتيجة رؤيته؟ كان يقف في فضاء المكان يدس كفيه في معطفه، ويتفقد الشارع، ويرقب زوبعة صغيرة تطيّر معها بضعة قراطيس وأكياساً بلاستيكية مع أوراق شجر. كان منظره يشي بالحيرة. هبط تساؤله من جديد: ألم يحن موعد القبض عليّ؟

تعتريه مشاعر التسليم، النهاية الآتية التي يعرفها جيداً. ما الذي قاده في ليلة مريضة كهذه إلى مكان محفوف بالخوف؟ عاد يسير باتجاه الزقاق، ولم يكن على ثقة بما يفعله. حالة من الغضب والضيق تخالجه. "لن أعود إلى البيت". كان شيء يلكزه من الداخل. بعد عبور الممر القصير، صار عليه أن ينعطف يساراً، لكنه انحنى يميناً وأكمل طريقه إلى النهاية حيث الشارع الفاصل بين ضفتي المنطقة، تأتي السيارات عادة مندفعة من الخارج إلى داخل المنطقة، فيَحذَر المارة قبل العبور إلى الجهة الثانية، لكن المكان في هذا الوقت، في هذا الطقس، خالٍ تماماً. إشارة المرور التي تتصدى للقادمين تشع بالأحمر. لا أحد يقف عندها. تتبدل ألوانها: أخضر، أصفر، أحمر، أخضر، أصفر، أحمر... لا أحد هنا تمارس عليه هذه الإشارة سلطتها. يقطع المدقّق الشارع بسرعة، ويدخل في زقاق آخر يجاور حاجزاً معدنيّاً يطلُّ على الطريق العام. شيء ما يدفعه نحو هدف غير واضح. يريد بلوغ إحساسه، القصد الذي جعله يقاوم دفء الفراش إلى عراء الرياح والخوف والإدانة. راوده إحساسه مجدداً: أنا في رواية. ألجأ إلى المنامات التي تفك الألغاز وتعطي النُذر وتدل على المفقودات. ماذا لو لجأ إلى المفسّر، الدليل الحاسم. كان من الممكن أن يختصر عليه الليلة. في قرارة نفسه المدقّق هو لا يؤمن تماماً بأيّ رموز محسوسة. أسرّ لنفسه في خضم الفكرة: أنا الحاسم. وعندما وصل إلى الساحة الأخيرة التي ينحسر في نهايتها السياج المعدني، ويعود ليميل يطوّق المنطقة، رأى برجاً كهربائياً صغيراً يلفّه سور من الطوب المحميّ بأسلاك شائكة. راودته أفكاره في

ذلك الحين. ولسبب غير وجيه، تذّكر بمقت الأسلوب الذي عامله به الرجل الملثم، منزوع العواطف، مثل آلة كئيبة. أمعن في البُعد. كانت الساحة مكشوفة على امتداد نظره إلى درجة شكّه في وجود أشخاص أو سيارة تقف في مكان موغل لا يصل إليه بصره. لم يعد هناك ما يوقفه عن استمراره. هذا البرج رآه في الحلم. المدقّق يخشى أن يعترف لنفسه بهذه الحقيقة. لا يرغب في المزيد من التكشف. أخذ يتقدم بحذر. البرودة هنا أشد من كل الأماكن. هذه آخر المنطقة، وليس هناك ما يواصل بعدها إذا لم يتحصّل على جواب يشبع حيرته. تقدّم أكثر حتى صار البرج على مسافة خمسين متر تقريباً، وبينما هو يلقي بتركيزه على الخواء من حوله، تعثرت قدمه بشيء. كاد أن يسقط. نظر إلى مكان العقبة. كأنها ذراع حديدية، وكأنه يدوس على غطاء فولاذيّ. أزاح التراب بقدمه. الدهشة تسبق إدراكه. نحّى ما تبقى من رمل بيده. نظّف المساحة جيداً. هذا شيء لا يشبه أغطية الصرف الصحيّ، ولا شبكات الاتصالات، لكنه بالتأكيد يدلُّ على فراغ في الجهة الأخرى. وقف مجدداً، وأخذ يرتعش. هذه برودة الخوف والصدمة والمجهول.

١٤

كان مدير المطبعة قد أخبر المدقّق في مكالمة هاتفية قبل أيام قليلة بوجوب إغلاق المشروع وإنهاء العمل؛ ليس في إمكانه ضمان استمرار دفع الرواتب، أو سداد كلفة الإيجارات، وإضافة إلى ذلك، أعلن رغبته في الهجرة إلى دولة تمنحه فرصة أفضل للنجاح. لم يجبهُ المدقّق بشيء. قال له فقط: "افعل ما يحلو لك، وتعال نمزق العقود التي تربط بعضنا ببعض". في الحقيقة، انتهت المكالمة ولم يرَ المدير بعدئذ. كان يخشى عليه من الاعتقال لأيّ سبب ممكن: أن يطّلع المراقب على الملفات المحفوظة في أجهزة الكمبيوتر الخاصة بالمطبعة مثلاً، أو تُكتشف النسخ الأصلية الموزعة في المكتبات لاحقاً. لم يكن المدير أول من يقرر الهجرة، فهناك أعداد كبيرة متضررة اعتزمت أن تطوي نفسها وترحل. وعلى هذا المنوال، تَحَدث المدقّق أخيراً مع الفارس، وأخبره بعجزه عن المتابعة، وأنه الآخر سيرحل إلى مكان لا يُعرف عنه، واعتذر يومذاك كثيراً وأطال في ذلك إلى أن أنهى المكالمة.

في ليلته التي بدت مثل حلم غرائبيّ، حاول المدقّق أن يفتح الغطاء

الأرضي بيديه لكنه لم يفلح. عاد في ذلك الوقت إلى البيت مذعوراً ولم ينم قبل أن يطلع الصباح. كان يفكر في مصيره المُنتظر. تخيّل ما قد تخبئه هذه الحفرة: هل كان سقوطه داخلها في المنام مجازاً أم حقيقة؟ في يومه اللاحق، اشترى عتلة خاصة تعينه على فتح الغطاء، وأحضر معه مصباحاً يدوياً وأدوات أخرى احتياطاً في حال استعصت الأمور. فكّر أن يذهب إلى هناك عصراً لاستغلال أشعة النهار. استطلع المكان ولاحظ حركة نسبية من المارة في هذا الوقت، فقفل عائداً وقرر أن يعود فجراً. لم يكن يتحدث إلى أمه التي ترقبه بحذر، فيخرج ويدخل إلى الغرفة حاملاً معه حقيبة صغيرة اعتقدت أن داخلها كتباً، رغم أنه لاحظها ويعرف أنها تنتظر منه أن يطمئنها إلى حالته. وعندما حانت الساعة، خرج من البيت بالطريقة نفسها مع كامل عدته، وسلك الزقاق نحو هدفه من جديد. هذه المرة كان قلبه أكثر قوة. تخلص من بعض المخاوف والهلوسات التي اعترته وحررت داخله حذراً مفرطاً، وفي حقيقة أخرى، كان لا يبالي بتاتاً بما قد يحدث لو رُصد وأُلقي القبض عليه. لم تعد هناك خسارات تستحق الحيطة. كانت غايته الوحيدة هي التسليم بما تدفعه إليه العلامات. نظر من حوله جيّداً عندما وصل إلى مقصده. غُمرت المساحة بالتراب من جديد. لم يحاول إزالة شيء عنها. فقط أدخل طرف العتلة المعقوف في فراغ مقبض الغطاء، ما جعل الطرف الآخر يرتفع إلى أعلى، وراح يدفع بيديه إلى الأسفل. شعر بتحرك طفيف. كرر العملية وألقى بثقله كلّه على ذراع العتلة، لكنه لم يُزحزح الغطاء من مكانه، شيء ما كان يمسك الحافات. لم يكن المدقّق يرغب في تبديد المزيد من الوقت.

هو يلقي بتركيزه نحو إنهاء هذه المسألة. أخرج مطرقة من حقيبته، وراح يكسر الإطار الإسمنتي الذي يحوّط الحفرة. الصوت في براح كهذا يسري إلى أبعد مما يتصوره المرء، لكنه استمر في الطرق بأشد ما يستطيع حتى تحوّل مزيج الرمل والحصى إلى فتات. أخذ ينظف المساحة حتى بانت عتبة معدنية حادة. هذا الجزء كان مدفوناً تحت الإسمنت. ثم أعاد كرّته ثانية. كان يَسمع صوت صدى ارتطام معدني حين يهبط الغطاء من ارتفاعه الضئيل بعد أن يتوقف عن محاولته. أخرج العتلة من المقبض ومرر طرفها المعقوف على حافات العتبة المعدنية، وراح يضغط إلى الداخل ليفرج عن بقايا أشياء عالقة في الأسفل، أو يطلق الهواء المضغوط بين الداخل والخارج، ثم أرجع العتلة إلى موضعها السابق وأعاد محاولته ثالثاً. نزل بكل قوته على الذراع. استجمع طاقته كلّها. ضغط بإصرار إلى أن سمع صوت افتكاك ما. أحكم قبضته وزاد من شدته حتى انزلق الجزء البعيد من الغطاء، وأفلت الذراع أخيراً بعد كل هذا العناء، لكنه شعر حينذاك بألم شديد في ترقُوته اليمنى.

***

انتَظَرَ بضع دقائق حتى اختفى الألم، ثم أزاح الغطاء. هبّت في وجهه رياح دافئة رطبة. لم تكن رائحتها كريهة إطلاقاً. فقط كان يشعر بأنه أَفرَج عن هواء محبوس. وجّه المصباح اليدوي إلى الداخل فانتبه إلى سلّم حديدي معلّق بجدار الحفرة. أمعن جيّداً قبل أن ينزل

تحاشياً لوجود حشرات أو قاذورات. قرر أن يترك حقيبته بمحتوياتها في الخارج. وضع رجله على سلّمة وأمسك بأخرى بحذر. وجد الدرجات مبتلة زلقة. أحكم فمه على المصباح وغاص في العتمة. بدأ يهبط دون أن يرى اليابسة. أسطوانة مظلمة تبتلعه إلى الأسفل. ينظر إلى فرجة الأعلى. يمعن في الخارج. تتساقط عليه حبات رمل تقذفها زوابع صغيرة بالقرب. لكنه يستمر في النزول حتى شعر بأن المكان أخذ بالاتساع من ورائه. تمسّك بقضيب السلّم جيداً قبل أن يأخذ المصباح بيده الأخرى ويوجهه إلى الخلف. كان الضوء يكشف عن نفق مجهول المدى. وضع رجله دَرَكه أخرى، واكتشف حينذاك أنه وصل إلى القاع. نظر المدقّق إلى الأعلى. لم تكن الحفرة سحيقة كما اعتَقَد. اتكأ على الجدار الرطب وتجمد في مكانه، وراح يطوّف المصباح على المكان. لا شيء سوى ممر عرضه قرابة ثلاثة أمتار مقوّس السقف ويمضي إلى الداخل. خطا بحذر نحو مترين إلى الأمام. لاحظ إضاءات خافتة لا تُسعف ظُلمة المكان وتأتي من منافذ سفليّة عن يساره بارتفاع كاحل القدم. تأخذ شكلاً مستطيلاً. مغطاة بشبك حديدي سميك. أغلب الظن أنه قد تطل هذه النوافذ الصغيرة على أرضية الطريق العام الذي يقبع في منخفض ساقط وملحوظ عن المنطقة. على يمينه، تمتد أنابيب مختلفة الأحجام ملتصقة بالجدار، وتتصل هناك نحو خمسة أمتار بصندوق معدني كبير... أو هكذا بدا له. لاحظ على طول الممر أن هناك لمبات في الأعلى مغطاة بغلاف بلاستيكي. هذا نفق مخصص لأغراض صيانة أو خدمات متعلقة بالكهرباء. استنتاج منطقي. واصل تقدمه بضع خطوات. تساءل هل

الطريق يؤدي في نهايته إلى مخرج آخر. المنفذ الذي دخل منه أُغلق بقصد واضح. غير مخصص للاستعمال الدوري. ربما تم إلغاؤه. ربما تُرك للحاجة أو الطوارئ القصوى.

لا شيء. عتمة تتصل بأخرى. قالب مجوّف من الخرسانة الصلبة الملساء. المكان لا يسعف الخيال لإضفاء مزيد من الوصف. حتى الأنابيب الممتدة عن يمينه، المتصلة بالصندوق المعدني الذي أصبح قريباً منه، تمتد مجدداً من الجهة الأخرى إلى الأعماق. ربما ستصل إلى صندوق آخر، وهكذا. فكّر لو يجد مفتاحاً يضيء المكان. ذلك ربما سيشعره بأمان أكبر إضافة إلى أنه سيعرف ماذا يختبئ وراء السواد. اقترب من الصندوق. حاول فتحه فاستجابت درفة الباب بانصياع تام. كان مكسوّاً بالغبار. وجد عدداً هائلاً من الأزرار والمفاتيح. لا صوت ينز عنها. لا اهتزازات. أحسَ أنه لا حياة كهربائية تسري في هذه الأسلاك. حاول عبثاً أن يفتح ويغلق أيّاً من تلك الأشياء. لم يتحصل على رد. وردته تساؤلاته عن جدوى هذا التصميم: البرج في الخارج، التمديدات في الداخل، امتداد النفق، منافذ التهوية، أنابيب... لا يدري هل هذا المكان قيد التجهيز أم الإلغاء. في خضم حيرته، حاول أن يفتعل شيئاً يعطيه انطباعاً ممكناً عن طول النفق. لعله أقصر مما يظن. سعل مرتين بصوت عالٍ. أذعن ينصت إلى صداه الذي راح يبتعد بتدرج مخيف. عنّ له استنتاج خاص: الحلم الذي قاده إلى هذا المكان، المعرفة التي في جوف الأرض. عاد أدراجه إلى الخارج. أغلق الغطاء بإحكام. أخذ ينظر من حوله يطمئن إلى خلو الساحة من حركة غريبة. جَمَع أدواته وعاد

مجدداً إلى البيت.

لم يبدد المزيد من الوقت. انزوى في مكتبته يُخرج الكتب التي لم يقرأها بعد والكتب التي يحبها والكتب التي ما عادت متوفرة في المكتبات والكتب التي يعلم أن الإدارة حظرتها، وراح يضعها في أكياس بلاستيكية ويحكم إغلاقها، ثم ينقلها إلى سيارته. بذل جهداً هائلاً تلك الليلة. قضى في عمله ساعات طويلة حتى طلع الصباح. عندما استيقظ كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً. وجد أمه جالسة بالقرب منه. راحت تمسد شعره بهدوء. نَظر إليها ثم أغلق عينيه ودفن وجهه في حجرها. شعر بطمأنينة تشبه ملاجئ الطفولة السريّة. حين يختبئ في دولاب غرفته، يقرأ من المجلات التي يدخلها خلسة إلى البيت. وعندما تأخذه والدته ساعات إلى البحر، يمارس شغفه بحرّية وأمان. استنشق عبقها. أحس في لحظة أن كل مخاوف الدنيا المتدفقة. لها شكل واحد يعرفه، وكل السكينة الممكنة في مكانه هذا. رفع رأسه وقال بصوت متوجس: "أنا مُلاحَق". هزّت رأسها ولم ترد. لم تقل سوى ما معناه أن كل شيء سيغدو بخير. في الليلة الثالثة، قاد سيارته إلى حفرته إياها. توقف بجوارها وانتظر نصف ساعة على الأقل قبل أن يترجل ويذهب ليفتح الغطاء. ألقى نظرة إلى العمق. أمعن جيداً. ثم قرّب رأسه إلى الداخل محاولاً أن ينصت إلى شيء. كانت الرياح تطن في أذنه. ما زال الطقس بارداً، والأجواء غير ملائمة للخروج في مثل هذا الوقت. فتح صندوق سيارته وأخرج منها أكياس الكتب وراح يلقي بها إلى الأسفل بحذر ودقة واحداً وآخر. كانت قرابة ثلاثين كيساً من الحجم المتوسط. نزل بعد أن قضى آخر

مجموعة. غاص في عتمته المألوفة هذه المرة وسط جبل من الكتب المتراكمة في الأسفل. تحاشى أثناء نزوله دهس أي من الأكياس التي تناثر بعضها إلى نحو مسافة من السلّم. بعض الكتب مزّقت الكيس، وأخرى خرجت من فوهة كيسها المربوط إثر السقوط. راح يرتبها بالقرب من الصندوق المعدني دون أدنى تصنيف. وجد صعوبة بعض الشيء بسبب الظلمة التي لم يبددها مصباحه اليدوي على نحو يسهّل العملية. جلس قبالة الكتب. أسند ظهره بالقرب من النافذة الصغيرة. راح يوجه الضوء إلى الكتب تارة وأخرى ينقلها إلى العمق. يترقب قدوم أحدهم. ظهور شيء في البُعد. جالت خيالاته دقائق. افترضَ غولاً يعيش في هذا النفق منذ سنوات. قد يظهر في أي لحظة. عاد أدراجه بعد قضاء ساعة تقريباً وراح يفكر في التالي.

بدت الخطة في رأسه شديدة الوضوح. وحده يعرف الآتي واللاحق. لكن هذا لم يُخفِ شيئاً من التردد، أو الأمل على نحو أدق. تداعت إليه الذكريات والحنين. قبل أن يدخل إلى البيت مع انشقاق السماء وتبدي أشعة الشمس في الأفق، شعر بأن الأرض تميل ميلة القيامة. كانت المنازل تتزحزح وتتهاوى على امتداد نظره. ألقى بجسده على هيكل سيارته. بدا الشارع يرتفع بانسياب هادئ ويعاود هبوطه بخفّة. حاول أن يقطع خطوات قصيرة حتى يصل إلى باب المنزل. اسْودّت الحياة في عينيه. توقف وألقى برأسه إلى الأسفل. شَعر بأنه يركب دوّامة عظيمة لا خلاص منها. ها حانت لوعته. لحظة الغثيان. اندفع دون إدراك باتجاه زاوية قريبة وأفرغ جوفه، ثم انتظر دقائق حتى ربض في رأسه صداع شديد. شاهد عامل نظافة في أقصى

الطريق يتكئ على مقشته وينظر باتجاهه. رمقه ثوانيَ وعاد أدراجه إلى الداخل. تناول حبة صداع، في حين ورده تساؤله عن آخر مرة استخدم فيها أقراص المعدة. استلقى في فراشه وراحت هلوساته ترجه بعنف. أخذ هاتفه وأرسل إلى زينة دون أن يفكر لحظة: "أحتاج مكالمة واحدة".

***

عندما استيقَظَ عصراً، قضى نحو ساعتين في فراشه. لم ينهض من مكانه قبل أن يَطرق أحدهم باب غرفته. ظنّها والدته. لكنه رأى أخته. استسمحته للدخول. باغته ألم حاد جهة فصّ الدماغ الأيسر. تجاهله في الوقت الذي حاولت أخته قول شيء ما. فكّر لحظة أن والدته أرسلتها لتطمئن إليه، وقد فعلت. كانت تُسائله عن حاجة في استطاعتها أن تسديها. "حديث عالق لو وددت أن تفرغه أو تصرّح به. أنا هنا. أختك وليس لنا في الحياة آخر". تبادر في ذهن المدقّق: لا شيء يستحق البوح حين تنعقد نيّات الرحيل. عن ماذا يفضي المرء حينما تجرف القرارات تاريخه الشخصي والذكريات العامة والمعرفة الجمعية دون النظر إلى رأي أو تعقيب؟ كان قد نسي تماماً أنه أرسل رسالته قبل أن ينام. لكنها قالت على نحو مفاجئ: "زينة تبعث تحياتها وتعتذر عن أي وصل جديد". ذُهل لحظة. لم يتوقع سرعة الرد. كان ألمه قد تحرّك من مكانه إلى آخر بالقرب من صدغه. كل المَشاهد بدت له سرمدية. تنتقل من حدث إلى آخر دون

منطق أو ترتيب. أمله متعلق بأن يكون كل هذا كابوساً عسيراً. يتحمّل ليلته عسى تقضي ما فيها وتزول. بادرت أخته تُهدئه: "أرجوك! لا تدعها تسيطر عليك". كان صوتها يشفّ مدى يأسها. بالأحرى، بدت محاولاتها أشبه بالهَدهَدة. قالت: "انفضها وعاود حياتك من جديد". ران صمته القانط قبل أن يطرح سؤالاً عارضاً وعالقاً منذ أمد: "ماذا أنجبت؟" فوجئت أخته من جدوى سؤاله في وقت وحال كهذا. كرر مجدداً: "زينة... ماذا أنجبت؟" "فتاة"، وأضافت بلا حاجة: "جميلة". دفعه هذا أن يعترف بأنه رآها في المنام ذات ليلة بوجه مليء بالبثور والدمامل. كانت تلك علامة معروفة تشير إلى سعادة ورضى الزوجة عن زواجها. تغيّرت ملامح الأخرى. عنّ لها أن تصمت لكنها لم تتمالك نفسها. قالت بلا إرادة خالصة: "هذا غير صحيح". حدّق المدقّق فيها. فأضافت: "زوجها مجنون". "كيف؟" "يعاملها بطريقة سيّئة". ثم هزّت رأسها بغية الاكتفاء بما أفضت. انضم صمت آخر إلى الأول قبل أن تضيف: "أنت تستحق امرأة تقدّرك"، في حين كان ردّه: "لو تأتين بطفلة زينة أُقبّلها".

***

V

"لم يمنحني الخوف لحظة أَنظر إلى الوراء. كنتُ أسمع خطواتي الهاربة وتناهت إليّ خطوات أخرى ورائي. شعرتُ أن يد الرجل ستصل إلى حقيبتي في أيّة لحظة وتشدني إلى الوراء. تسارعتُ أشرد

من شر خارق يتقن المطاردة. لكنني حين أفضيتُ إلى الشارع. أدركت أني أتوجس من طيف، بفعل الإحساس فقط. التفتّ في عجالة ثم خفّضت السرعة وتفقدت الأرجاء. لا شيء. أعترف أن الرعب تملّكني ذلك اليوم. قضيت المساء كلّه أستعيد اللحظة التي انتزعتني فيها عيناه وعَبَرت بي ملامحه عندما قررت الاستعانة بالركض دون معرفة حاجته ومبتغاه. يستحيل أن أتوهم الحادثة. كنتُ أشعر بانفعال يتملّك كل جوارحي. هاجت دواخلي وانتفض جسدي من رعب الفكرة التي سيطرت عليَّ. لجأت إلى مضجعي وقتذاك أتأمل الموقف. هذا شخص يتتبعني ويعرف معلومات شديدة الدقة عني. يدرك أنني أعبر كل يوم من ذاك الزقاق إلى المنزل. وبالتأكيد، يعرف مدرستي ومواعيد مغادرتي وعودتي المعتادة. خضت ليلتها حواراً داخلياً ممتداً يكتظ بالافتراضات: ماذا لو كان يريد أن يُلحق بي الأذى؟ ربما يهدف إلى إثارة الهلع، أو يحكم سطوته بطوق التهديد. من المفترض أنه يبتغي الحصول على المجلات والكتب. هذا المرجح والمعروف على الأقل. قلت للمهذب: "يجدر بنا أن نجتمع نحن الثلاثة في مكان خاص. لقاء عاجل لورود أحداث خطيرة". طلب تأجيل الموعد إلى نهاية الأسبوع بسبب اختبارات مدرسته اللعينة. حتى تحين تلك الساعة عشتُ حالة من التوجس والحذر طوال الوقت. لم أفصح لعليوي عمّا جرى. لسبب مجهول، وجدت أنني قد أعرّض نفسي لتعليقات ساخرة لاذعة لن أحتمل تجاهلها. فضّلت أن أكشف الأمر في أوانه المناسب إضافة إلى أنني لم أعاود المرور من الزقاق مرة ثانية. كنت أتذرع بوجود روائح كريهة شممتها في الأيام الأخيرة، فيما أحاول دائماً أن أسلك طرقاً مكشوفة للعيان. ألازم الجلوس في البيت إذا لم تكن هناك حاجة ملحة إلى الخروج. وفي غروب أحد الأيام، لاحظتُ رجلاً نحيلاً حليقاً يذرع سور المبنى

المواجه لمنزلنا، مثل شخص يمارس رياضة المشي. وفي مساء آخر، أشعل أحدهم مفرقعات في الجوار لحظة خروجي من المنزل ولاذ بالفرار. أعترف أنني بدأت أشك في قدرتي على التميز. باتت كل أفكاري فكرة واحدة. وعندما يتوحد بي هاجس، أشعر بكل مخاوف الدنيا، وأرتعب من كل الاحتمالات، وأتجنب حتى الاقتراب من النوافذ. أتوجل من ظهور مباغت خاطف يؤكد لي أنه يحوم حولي. بدأت أشك في كل الناس. تفطنت أن أحد معلمي اللغة العربية يحمل ملامح مقاربة للمعني، شيطان المكتبات، ومحاسب السوق المركزي القريب من منزلنا، وموظف مطعم الوجبات السريعة، وسائق يعمل لدى أحد الجيران. تُرى أي العيون التي تنظر إليّ حين أعرض عنها؟ من يجنّد حياته ليزعزع حياتي؟ أنا أحتفظ بكل القصص والمجلات في غرفتي. تحرسها نخلة قريبة من نافذتي أستريح لها، وهذا مبعث الأمان الوحيد.

رجّح المهذب أن يكون اللقاء في منزله. لا اعتراض إطلاقاً. "يا حبذا لو ترسل سيارتك الخاصة تقلنا إليك". كنت مشحوناً في تلك اللحظة. لم أتطلع إلى الأثاث والديكور واللوحات والثريات والقِطَع الجمالية الآسرة في زوايا الصالات والممرات كما عليوي الذي أخذ يعلّق بصفاقة فجة على كل جزء يلاحظه: "أُنظر إلى دقة رسم الأسقف بالجبس والأصباغ. خشب الأبواب صلد فاخر. الأرض مكسوة برخام مخصوص مقتطع من جبل في أقاصي العالم. السجاجيد منسوجة يدوياً بدقة متناهية ووفق ذائقة فنية عالية". "توقف!" قلت لعليوي الذي انجرف يحكي من مخيلته مصدر الأشياء وقيمتها أمام الفتى الذي لم يملك سوى ابتسامة خجولة. ينتظره ينهي فقرته. "لنتحدث بجدية! أنصتا جيداً". ولأنني أود أن أقحمهما في قلب الموضوع، قلت: "أنا ملاحق". لم يفهم عليوي بطبيعة الحال ما

أعنيه عكس المهذب الذي انجذب بكامله نحوي. "قبل أيام، في الممر المختصر الذي نسلكه عادة للعودة إلى البيت من المدرسة – آثرت استخدام هذا الشرح عوضاً عن كلمة زقاق – أوقفني رجل كان يتخفى وراء شجيرات عند منعطف أحد المنازل. كان الرجل نفسه، وفق الصورة المنشورة في الصحيفة. شيطان المكتبات. هربت فوراً. ركضت دون أن أترك له فرصة أو محاولة استدراج وهجوم. ثم سمعته ينادي باسمي! وراح يركض خلفي". لمحت ابتسامة ماكرة على وجه عليوي. دَخَلَت الخادمة في تلك اللحظة ووضعت صينية ضيافة على طاولة تتوسط المكان. تحوي الشاي والقهوة ومكسرات وقناني عصير وماء. ثم راحت توزع محتواها على طاولات صغيرة قرب كل شخص. شعرت بأنها قَطَعَت محاولة احتشاد مسلطة نحو الأصدقاء بقصد توضيح مدى خطورة الحدث. جاهدتُ لأتجاهل الموقف وأعاود التماهي في الحالة. "قبل تلك الحادثة أجابت أمي اتصال رجل يطلبني شخصياً ولم يعرّف بنفسه. وهذا لا يحدث في العادة. أظن أنني وقعت في ورطة كبيرة. لا أخفيكم. تملّكني رعب حقيقي في الأيام الماضية، ولهذا..."، التفتُ نحو عليوي، "لم أسلك طريقنا المعتاد من المدرسة منذ ذلك الوقت، وآثرت الانزواء والعزلة. وإذا ألحّت الحاجة، أخرج في الأماكن المكشوفة على الملأ". تَوَجّم الآخر لحظة. وعلى النقيض، رأيت على وجه الفتى انتشاء مُنتصر. أُدرك جيّداً أنه سعى طويلاً إلى إثبات حقيقة قصته. "ولماذا يلاحقك الرجل؟" أبدى عليوي تساؤله بنبرة جادة هذه المرة أفهم مقصدها جيداً. يحيل سؤاله إلى اعترافي تلك الليلة في المقهى أنه ليس لوالدي مكتبة. قلت باعتداد نفسي صلب: "أنا أمتلك مكتبة". وأضفت: "ما زلت أحتفظ بقصص ومجلات الأطفال منذ أمد، وحتى اللحظة أشتريها بانتظام". كنتُ أنظر إلى كاميرا مراقبة معلقة في سقف زاوية الغرفة لحظة أفضيت

بالحقيقة كاملة. تحدث المهذب لحظتئذ بارتياح وثقة طارئتين عن تعرّضه لمواقف مماثلة عدة وأمضى وقتاً ممتداً يصارع التوتر والحنق وظلال الخوف. كان يراه دائماً في أماكن مختلفة: في سيارة مجاورة عند إشارات المرور، عند مداخل المجمعات التجارية، على مقاعد قاعات السينما. يقطع الشوارع، يركب الحافلات، يستلقي على الشواطئ، المقاهي، الحدائق، المكتبات، الواجهات، المطارات... ثم كشف عن سكين صغيرة يحملها في جيبه دائماً. ولا يتوانى عن العودة إلى البيت إذا ما نسيها يوماً. وعلينا، أنا وعليوي، أن نحمل معنا كذلك سلاحاً يحمينا من هجوم متوقع في أيّ لحظة.

تساءل عليوي عن الخطة المتوقعة للمواجهة والصد: إبلاغ الشرطة أم نتولى الأمر بأنفسنا. رد المهذب: "لن نتخذ أي خطوة ضد الرجل قبل أن نحصل على كتاب حكاية الحكايات. بطريقة ما، يبدو أن شيطان المكتبات رصد الرجل الذي بحوزته النسخة. لقد أخبرني عن تتبع أحدهم له بوتيرة غريبة، خفية ومكشوفة في آن، ما دفعه بعد مدّة إلى التوجه إليه بقصد طرح سؤال صريح حول الأسباب الداعية لتكرار تلاقيهم في كل مكان، لكنه فوجئ عند اقترابه بأن الآخر سبقه وسأله بصوت غاضب: هل تراقبني؟ كان يوجه حديثه إلى الرجل لكن عينيه لم تسقطا عن الكتاب برفقته. وعندما أبلغني بالحادثة، طلبت منه تأجيل اللقاء، إلى حين موعدنا السابق في المقهى، الذي جمعنا معاً. كنت قد عمدت أن أسبقه إلى الموقع أستطلع الأوضاع. وقد خابت الخطة عندما رأيت الشيطان بعد دقائق يذهب باتجاه طاولة في أقصى المكان. أرسلت إلى الرجل بوجوب تأجيل موعدنا مرة ثانية. وقد اعتذر الآخر عن مواصلته لإتمام المهمة وأخبرني أنه سيتركها عند سيدة تملك مكتبة صغيرة في مبنى بالقرب من المنطقة الصناعية غرب العاصمة، وسيُطلعها على الأحداث اللاحقة وضرورة أخذ الحيطة

والحذر من ألا يصل إليها الشيطان". "ثم ماذا؟" "أعرف المكتبة المقصودة وتواصلت مع صاحبتها، وقد أمّنت النسخة في منزلها حتى لا تتعرض مكتبتها للأذى. بالمناسبة، لقد أخبَرَتني بأنها تعرف قصة الرجل المعني، وأنها أيضاً من أولئك الذين لاحقهم في وقت ماضٍ لكنه اختفى لأسباب مجهولة مثل تلك التي ظَهَر من أجلها". هذا الخبر بحد ذاته مدعاة للإحباط. تساءلتُ صراحة لمَ لا يستضيف سيدة المكتبة في بيته ليتسلم منها الكتاب. لكنه اعترض: "لا". واتسعت عيناه. "هذا خطأ كبير. تظن أن الشيطان لا يعرف عنوان منزلك؟ هذا هراء. لن أستضيف العابرين في داري. أنت لا تعرف من معك ومن ضدك. كل الأشياء تبدو متشابهة. في الأصل، لقد اشتريتها من شخص يعيش في القارة الباردة التي تبعد عنّا مئات الأميال. واتفقنا ألا يرسلها عن طريق البريد الحكومي أو الخاص، لأن شيئاً كهذا معرّض للسرقة أو التلف، وأنا لن أغامر بالكتاب. الرجل الأول كان الشخص المُكلّف تسليمها لي، واعتذاره كان بسبب أوان موعد عودته. أما عن معرفتهم بصاحبة المكتبة، فهذا ما لم أبحث عنه".

اتفقنا بعدئذ على الغد موعداً لزيارة سيدة المكتبة وتسلّم النسخة من بيتها، وتركنا الفتى المهذب الذي أرسلنا مع سائقه مرة أخرى لنعود إلى منازلنا. فور تحرّك السيارة أمال عليوي جذعه باتجاهي ودفع كتفي بقوة: "إذاً، لديك مكتبة والرجل جرى خلفك". كانت مقاعد السيارة مغطاة بجلد داكن إضافة إلى الشوارع المعتمة التي يسلكها السائق في ذلك الوقت. كنتُ أرى زاوية صغيرة من ملامحه بمساعدة أعمدة إنارة الشارع الضعيفة. قلت: "لم أكذب في حرف. هذا ما جرى بالفعل". لم يدرك عليوي الأمر بعد. لكنني عرفت ابتسامته الساخرة رغم الظلام. قلت: "لهذا لم أخبرك بالأمر منذ حين". لم يستطع أن يتماسك أكثر. أطلق سراح ضحكته المستفزة. ورغم هذا،

حاول أن يبرر رد فعله هذه، وأَقسم إنه يصدقني، وكرر ذلك. لكنني كنتُ أشعر بالإهانة. لم ألتفت إليه. هززت رأسي فقط لكي يكف. ثم أخرج سيجارة من جيبه وقبل أن يشعلها وضعت يدي عليها وأشرت له بعينيّ نحو السائق. فهم القصد فوراً وأعادها إلى العلبة. ثم قال بجدية أشعرتني بارتياح: "أطلِعني على التفاصيل: عن اليوم المشؤوم ذاك، عن شكل هذا الرجل المجنون، عن الأماكن التي لاحظته يحوم فيها من حولك". رحت أقص عليه بحماسة ما جرى ولم أُخفِ جانباً من الإثارة التي اعترتني حينذاك. لاحظت أثناء ذلك تفاصيل لم أفطن إليها منذ حدوثها. ومع التفاعل المتبادل، قلت مازحاً: "يلزمنا سيجارة لهذا المزاج". قام السائق من فوره وخفّض جزءاً من النافذة القريبة وقال: "لا بأس من تدخين سيجارة داخل السيارة"، ثم نزع قبعته ووضعها على المقعد بجواره. لاح لي جزء من ملامحه. كنت أجلس في مكان يسمح لي برؤيته أفضل من عليوي. قال: "أنا أعرف شيطان المكتبات". ثم صمت ثوانيَ لكننا انتظرناه يقول ما بدا عليه يريد أن يكمله: "لقد شاهدته أكثر من مرة وأعرف أنه يلاحق أصحاب كتب ومجلات الأطفال". ما فهمناه أنه يعرف ما يعرفه من كونه سائق الفتى المهذب. لكنني في لحظة ما انتبهت أن السائق يحمل صفات مشابهة للرجل الذي نتحدث عنه: شعيرات صغيرة ورأساً مستديراً وعنقاً نحيلاً وجلدة وجه متهدّلة. هذا أغرب من خيال. منذ لاحظت ذلك بدا سكون السيارة ثقيلاً والطريق أطول بكثير مما هي عليه.❝

١٥

كتب المدقّق ملاحظة: "يجسّد المؤلف أحداث روايته من معاناة عاشها أو شهدها، وأحياناً يطلق خياله لما يتناسب مع أمنياته الخالصة فقط". رضَخَت والدته لفكرة مَبيته خارج المنزل. لم يكن هناك خيار آخر. المدقّق معرّض لمساءلة قانونية جرّاء غيابه عن العمل دون إلحاقه بعذر مقبول. هذا تخاذل أو من الممكن وصفه بخيانة وطنية. في هذه الظروف، تحتاج الدولة كل فرد وجهد. وجد صعوبة شديدة في أيامه الأولى خصوصاً حين يغوص في كيس نومه مثل عسكري يرابط على الحدود. يستعين بقنديل صغير يضيء مساحة ثلاثة أمتار من حوله. إذا أطفأه، تخيفه الظلمة وأصوات الرياح التي تتسلل من منافذ شتى. تدهمه الوساوس. يتلمس شعره وخلف أذنيه وظهره. يخشى من حشرة تندس في مضجعه أو جرذ يصعد على صدره ويقضم أنفه. وإذا ما ترك الإنارة، يتوجس من الوحش الذي يتخيله قابعاً في العمق. قد يستدل عليه في سباته فيفترسه ويمزقه. يخرج من نفقه إذا احتاج فقط أن يذهب إلى المنزل ليأخذ زاده من طعام واحتياجات أخرى ثم يعود فوراً إلى موقعه. في النهار، يعتمد على الإضاءة الطفيفة الآتية

من الشبابيك الصغيرة. تعينه على القراءة والكتابة وممارسة حياته بما أمكن. بعد أسابيع قليلة تكيّف تماماً في داره الجديدة. صار يستمتع بدفء الكتب ومشاعر الصفاء الداخلي. يسمع فقط أصوات عبور سيارات خاطفة قادمة من الشارع العام. لا يتحدث إلى أحد أبداً. أودع هاتفه الخاص في صندوق خبأه في غرفته واستعان بآخر بدائي فيه شريحة مسجلة باسم والده المتوفى. يتركه مطفأً ولا يفتحه إلا إذا أراد أن يتصل بمنزلهم ليتحدث إلى أمه وأخته. استعان به مرة للاتصال بالفارس بعدما رآه في أحد مناماته يجلس إلى كرسي مكتبه يدخن سيجارة وقد بدا عليه التعب. لم يشعر بأن أمراً ما اختلف منذ محادثتهما الأخيرة. ما زال يقاوم ببسالة وإصرار وقال إنه يمر بأفضل حالاته منذ بدء الأزمة. رغم وضوح الإرهاق في صوته، لكنه لم يخفِ سعادته عندما قال إن أعداد المكتبات الأرضية في ازدياد، وأرجع الفضل إلى المدقّق الذي فوجئ وارتبك من إشادته تلك. لم يفهم مرمى الفارس: "الفضل لي أنا؟" أفلت الآخر ضحكة تخللها سعال رطب: "لقد اشترينا ماكينات الطباعة من المدير بعدما قررتم إنهاء المشروع. نستغلها الآن لطباعة نسخ خاصة ومحدودة من مختلف الكتب. نقيم مطابع أرضية أيضاً"، ثم ضحك مرة أخرى.

بشرى رائعة! قال المدقّق لنفسه لكنه لم يكن مطمئناً إلى استمرار المقاومة. بصراحة تامة ومن دون مجاملات، يرى أن الروائي يغامر إلى أقصى حد ممكن. "بالمناسبة، ما أخبار الروائية المُغامِرة؟" تنهد الآخر قبل أن يقرّ بحيرته: "لا أعرف! لكنها حتماً ستخرج". في الواقع إن التوتر يعوق تقدم أي خطى. وهذا ما يعاني منه الفارس

في هذه المسألة نفسها. الروائية شعرت بالإهانة. وهذا ما يدفعها إلى التمرد ورفض الاستجابة لما قد يمهد لإطلاق سراحها. هذه حرب بلا شك والرابح بين الأطراف المتنازعة من يتحلى بالهدوء لقراءة الآخر. قد لا تكون هذه المكالمة الوحيدة بينهما لكن المدقّق يفضّل أن يتوحد في نفقه. يستغرق في التأمل ويحاول أن يستشرف المقبل. لا يعرف إلى ماذا سيؤول أمره. يتذكر روايات قرأها في أوقات متفرقة. تتحدث إحداها عن قاتل يختبئ في علية منزل تعمل فيه عشيقته الخادمة دون أن يعرف أي أحد عنه أو يشعر به. يقضي قرابة عام أو أكثر. يتذكر رواية أخرى عن شاب يُسجن لسبب مجهول في مكان صحراوي ناءٍ نحو إحدى وعشرين سنة. لا يرى سوى التراب ولا يتحدث إلا للسماء. يستحضر في نفقه القاتم قصة امرأة اختبأت في شقتها هرباً من الثوار وخوفاً من الموت ثلاثين سنة. كيف تحمّل أولئك وجع الصبر! كل هذا العمر الذي مضى دون أن تركبهم الحسرة ويؤلمهم الضياع. يعزي المدقّق حاله: "أنا هنا من مكاني هذا أجد الحياة كأنها لم تكن في الخارج". لم يتغيّر شيء إطلاقاً. بل شَعَر في وقت ما بالتحرر من أغلال لم يفطن إلى وجودها، وطنين متواصل يتوغل في دماغه. بعد مدة وجيزة عَلِم أنه تخلّص من كل الأذى عدا ذكرى زينة. لقد خانه "التفسير الحاسم لرؤى الخيّر والآثم"، ولأول مرة، يدين كتاباً في قضيّة. كيف أحال منامه ذلك اليوم إلى سعادة مزيّفة لفتاته التي تتواصل روحه معها. كيف ارتاب من إحساسه الخالص. كيف رآها يومذاك في الحلم. كانت قبيحة تعيسة واعترته مشاعر الأسى حيالها في مرقده. كيف

قطّع ذلك التفسير خيوط الأمل في احتمال عودتها إليه يوماً ما. أخته، بقدر حزنها عليه، لم تشأ أن تسعى إلى زرع نبتة في قلبه قد تذبل قبل أن تنبت. "ليس في المستطاع أن ترى ابنتها وتُقبلها ورسالتك الأخيرة المحقونة بالوداع... هذا وقت عسير. لو تعرف حال زينة، لو سمعتها، لأدركت مقدار هلعها. كان صوتها مهزوزاً مهزوماً كأنها معتقلة في أبدية لا تعرف خلاصها. يعذبها الخوف. تتحدث بأقصى نبرات التوتر. لم أتخيلها يوماً بهذا الضعف والتسليم". سقط المدقّق في نفسه. لم يتصور أن تكون معضلته أقسى من البُعد. وبقدر ما أشفق عليها، كان يلومها في حين. لم تُعطَ فرصة للمصارحة والانكشاف. تسرعت في اتخاذ قرارها. وكان يؤنب نفسه أكثر. لم يُحب الحُبَ بقدر ما أخلص لغرام القراءة. في النفق، على الأرض الجلفة والحوائط القاسية، عندما يسرف المدقّق في الغوص داخله، تهاجمه مشاعره. يحتدم ويخضع لبكاء طويل شجين يتردد صداه إلى العمق. حتى إذا ما سمعه الغول الذي يربض هناك، يستسلم للحزن.

لا بأس! هكذا يهوّن عن نفسه، ويعود إلى مؤنسات الحياة. يمضي في القراءات. يخوض حالات احتشاد الكتابة. تنسيه ما قد يقض عزلته. روايته تلك التي مضت معه. أحداثها المتلاحقة التي لم يعرف كيف يروضها أو يعترضها. يود لو يأخذ شخصياته الثلاث إلى مكان آخر. يعود بهم إلى الماضي أو يفضح لهم أمر الرجل الذي يلاحقهم. لم يكن يستطيع السيطرة على خيالاته. فكّر لو يتركها ويتجه إلى كتابة أخرى. قرأ أخيراً قصة صغيرة عن شخص معروف في قرية تعيش بالقرب من جبل. يسير دون توقف. لا أحد يعرف إلى أين

يذهب. لكنه يمشي ولا يكترث، ولا يجيب من يطرح عليه الأسئلة. لا يَذكر أحدهم أنه سمع صوته من قبل. يمضي فقط إلى هدفه كل يوم بهدوء. كانت ملهمة ومشوّقة وغريبة رغم أن قراءتها لم تستغرق أكثر من ساعة. راودته أفكاره. لو يبدأ كتابة جديدة شبيهة. يضع الأفكار ويخطط للأحداث ثم ما يلبث أن يعاود إلى المراهقين الثلاثة الذين يهربون من شبح يطاردهم في كل مكان. حتى أنه لم يفكر في تناول محتوى حكاية الحكايات لو عبثاً عبر شخصيته الرئيسية التي لم يختر لها اسماً حتى اللحظة. وهو يعرف تماماً أن هذا سيزعج القارئ، أو يربكه على وجه الدقة. فيقرر أن يعود إلى الفصل الثاني ويحشر اسمه ضمن السرد، ثم يتتبع ما كتبه لينتقي مواضع أخرى ويكرر فعلته، وهكذا... الأمر الذي سيعطي سهولة أكبر لفهم القصة. لكنه حين يكتب، لسبب غير منطقي، ينسى اختيار اسم له، خصوصاً بعدما نقل روايته إلى جدران النفق.

لم تكن مسألة الخروج من مخبئه والعودة إليه أمراً سهلاً. المدقّق متيقن من كونه موضع تعقب. لذا يصعد السطح في الظلام وأحياناً في مستهل الشروق. وإذا ما أراد أن يقضي حاجته، يقنن من تناول السوائل في النهار حتى غروب الشمس. وعندما يرتقي السلّم، يدفع الغطاء برأسه نحو ثلاثة سنتمترات تقريباً. يراقب الخارج. يمعن في الساحة الكبيرة. يحملق في عمق الاتجاهات من حوله كي يطمئن، ثم يزحف إلى الخارج ويسير محدودباً إلى أقصى المكان حتى يبلغ منحنى المنطقة الحاد. وعند بقعة واطئة، تُظهر للرائي البعيد الثلث العلوي من جسمه، يقضي حاجته ويعود أدراجه بالطريقة نفسها.

هذه عملية قد تستغرق نحو نصف الساعة وتتراوح وفق حالته أو الأوضاع من حوله. كان المدقّق قد نقل روايته من الكمبيوتر إلى كراسة مناسبة. ولمّا تحتدم حالات الكتابة، يأخذها مع قرطاسيته. يجلس بالقرب من الشبابيك الصغيرة ويضع أمامه القنديل حتى لا يسقط ظلّهُ على الورق. ذات مرة لحّ ظرفه أن يذهب إلى حمّامه فَتَركَ أغراض الكتابة في مكانها وغاب إلى غايته. وعندما عاد وجد كراسته مبللة إثر تسرب سيل طيني من المنفذ القريب، كان بإمكانه قراءة ما كَتب، وربما بعد أن تجف سيتحسن حالها. لكن قلبه لم يطمئن فأخذ يكتب روايته من جديد على جدار النفق. أول مرة بقلم الرصاص حتى يصبح في استطاعته تصحيح الأخطاء، ثم يخط فوقها مرة أخرى بالحبر السائل. بعد ذلك أخذته الحماسة أكثر فحاول أن يدوّنها مرة ثالثة بأداة حادة كي يضمن ألا تُمحى. وفي الأثناء، راودته أفكاره: ماذا لو تساقطت الأمطار الغزيرة يوماً؟ سيَغمرُ الماء المكان وستتعرض مكتبته للتلف. أرهبته خيالاته وسعى إلى اتخاذ إجراء احترازيّ أول. أحضر قماشاً كبيراً أزرق مصنوعاً من مادة لا تخترقها السوائل وفرده في مساحة قريبة. ثم أعاد ترتيب الكتب فوقه وطوى واجهته وثبّته بالحجارة. هذه ثروته التي لا يملك غيرها. رغم أن خبر شراء الفارس ماكينات الطباعة أمر باعث على الأمل، لكنه يعلم جيداً أنه منذ بدء انهيار المطابع وتعرضها للخسارة والانسحاب ستفعل آلة الزمن ستفعل فعلتها، وسيعود إلى الوراء. ربما ما يثير الذعر في هذه المسألة أنه مهما بلغت الأمم من تطور ومعرفة، فسيكون لقرار ما في أي وقت قدرته على قيادتها إلى سقوط سحيق.

يكابد المدقّق كل الوقائع مستغيثاً بالنسيان. ما يحدث في الخارج أمر لم يعد يخصّه الآن. تدريجياً يسعى إلى التخلص من كل الأشياء التي تربطه بالماضي. النسيان فعل مُجرب، في حين تذكر أخته عندما قالت له: "أنت تحب زينة فقط لأنك لم ترَ غيرها". ربما. فكّر أيضاً أن يستعين بالأكاذيب؛ من شأنها أن تسهم في الحفاظ على تغافل الفشل. لا شيء يستحق التذكر في هذا العالم خصوصاً إذا كنتَ بصحبة الأشياء التي تحبها. الكتب التي بحوزته آنذاك تقوم بكل الأعمال التي يحتاجها: الرفقة والترفيه والشغف والأمان والعلاج والصدق. كانت الدفعة التي ألقى بها في فم النفق مليئة من تلك التي لم يقرأها بعد. لم يترك شيئاً في البيت لم يطلع عليه من قبل. حتى إذا ما أنهى كتاباً وأراد أن يشرع في آخر، يمد يده في الظلام نحو ركام الكتب التي رتبها بعشوائية تامة. يلتقط أحدها دون أن يعرف عنوانه أو حجمه. يأخذه معه إلى ركن خصصه للقراءة. حينئذ فقط يتعرف إلى اختياره. كان جائعاً شرهاً يقضي على ما أمكن منها. لا يَعدُّ الكتب التي ينهيها في الليلة الواحدة. حضره تساؤل ذات مرة: لو أنجز كل مؤونة القراءة هذه، كيف سيأتي بالجديد؟ قال لنفسه: سأعيد قراءتها ولن أتوانى عن تكرار الأمر مرّتين وثلاثاً. يعرف أنه في كل مرة ستغدو مادة الكتاب مختلفة. ثم تبادر إلى ذهنه أمر: لو لجأ إلى المكتبة الأرضية القريبة، قد تكون خطوة جيدة. فمن يدري كيف ستؤول الأمور. لم تتشابه الأيام عند المدقّق. كان يشعر بأنه ينتظر الغد وبعده، ويمنّي نفسه أن تتوالى الأعوام دون أن يعرف أحد بمكانه. سيموت هنا. ما المانع! ما المختلف! هو الآن في الأسفل.

هذا مدفن يحبه ويألفه.

الخارج يعني دائرة الحياة المعتادة: إدارة المنشورات، التدقيق، الزملاء، صائدة الكلمات، القوانين، المزيد من القوانين، المسؤول... في آخر يوم عمل، حين اقترب من الورقة والإصبع يشير إلى اسمه المدوّن في قائمة بدت مثل لائحة جواسيس، حين رفع رأسه لينظر إلى عيني الآخر، كان ينتظر منه تبريراً مقنعاً. "أليس هذا اسمك؟" إحساس الفضيحة. تحوَل في لحظة من موظف محترم إلى مراهق أرعن. التهمة الموجهة إليه لا تشبه الإهانات التي يعرفها. "بلى، مطبعتي وهذا أمر لا يخص العمل أو لا يخصكم..." أو لا يَعرف على وجه اليقين بمَ كان عليه أن يُجيب. قد لا يكون الأمر متعلقاً بهذا الموقف. لعله يبحث عن شيء يدفعه لاتخاذ موقف شخصيّ يتسق مع مبدأ دوماً كان يؤمن به في أعماقه. منذ وقعت عيناه على تلك الرسالة التي وردت إلى هاتف أبيه ونَقلها إلى أمه ومتاعب القراءة لا تنفك تلاحقه. كانت الشرارة هي المعرفة. المعلومة التي نقلها من طرف إلى آخر. فَهِمَ المطلوب بعدئذ. قال لنفسه: التزم الصمت، لا تنشر المعلومات. لكن ألا تعرف أن المطبعة تقوم مقام الحقيقة التي أطلعتها على...

عندما تحدث إلى الفارس آخر مرة، شعر في البداية أنه يردّ على أسئلته بإجابات ملغزة. بعد دقيقة انتبه إلى المغزى. قال المدقّق ممازحاً: "لا أحد يوجه فوهة مسدس إلى رأسي". كان يضحك. لكنه عندما أنهى المكالمة آلمته الفكرة. لم تعد هناك حاجة ماسة إلى علاقته المتبادلة مع الروائي. رغم أن الآخر أفضى له بكل الأحداث

من حوله، هناك حركة اعتراضية من المؤلفين بطريقة غير مباشرة. هذا يعني أن المجتمع ما زال يرفض ويقاوم. لقد انهالت مجموعات كبيرة من الكتب التي لم يأبه مؤلّفوها بقوانين إدارة المنشورات. هناك حالة من اللامبالاة أو الغضب. أوضح الفارس أن لا دخل له أو لجماعته في هذه التصرفات. أصبح المؤلفون يكتبون على النحو الذي يمليه عليهم شيطانهم بكل ما فيه من ممنوعات ومحذورات، وباستخدام الألفاظ المباشرة دون أن يلجؤوا إلى الرموز وليّ المعاني. أخذ بعضهم يعيدون إرسال الكتب نفسها بعناوين مختلفة بعد إصدار قرارات الحظر. لا قصد ولا رغبة تهدف إلى شيء سوى مناكفة الدولة. بعد مدة أطلقت الإدارة عقب اجتماعات صورية ومؤكدة من المسؤول مع موظفي التدقيق قراراً يتضمن المساءلة القانونية والعقوبات الجزائية التي تصل إلى فرض غرامات مالية طائلة على من يثبت تعمده الاستهتار بقوانين الدولة. كان الفارس يستهزئ بالإدارة التي تظن أنها تستفحل في مواجهتها البائسة مع الناس. يقول إن الأشياء إذا تضخمت أكثر من اللازم، تنفجر. في نفقه الصامت، يفكك المدقّق كل الكلمات التي سمعها. يعالجها ويعيد تحريرها. المدينة الواجمة بعد الصخب والفرح. أحياناً يلتقط بعض الأحاديث العابرة لأناس يمرّون في الجانب الآخر من شبابيكه الصغيرة. سمع شابين يتحدثان في ما بدا له أمراً قد تورطا فيه. كان أحدهم يخض قنينة رش كل بضع ثوانٍ وبطريقة آلية. يطلب من الآخر أن يكف عن كتابة الشتائم. لكن الآخر كان منفعلاً وقال أشياء كثيرة متوالية لم يسمعها جيداً بسبب ضجيج الشارع. استدرك فقط أنه في نهاية

كلامه أخذ القنينة من يد الأول ورماها بالقرب من الشباك. ثم مضيا. وفي مرة أخرى، سمع صوت فتى يبدو في العاشرة يذرع المكان القريب منه ذهاباً وجيئة ويصرخ نحو الاتجاه الآخر من الطريق العام ويقفز منادياً شخصاً لا يكاد يراه كما يبدو. ثم يسمع صوت لهاثه الخائف. فهم على نحو ما أنه عالق في هذا المكان. ولا يعرف السبيل إلى المنطقة الأخرى. ثم أخذ يهرول فجأة. في العادة لا أحد يستخدم الطرف المحاذي للطريق العام بغية الانتقال إلى مكان مجاور إضافة إلى المخاطر المحتملة من السيارات المسرعة. لكنها شقاوة الأولاد في بعض الأحيان ومرّات أخرى لأغراض مختلفة. ذات مرة سمع صوت نحيب فتاة تعبر بخطوات متباعدة وسريعة. كان مروراً سريعاً لكنه ودّ لو ينهض ويسايرها من جهته في الداخل، لولا الظلام الذي يخفي ما يخفيه. لا يعرف لماذا رق قلبه لها. راودته رغبة حقيقية في أن يناديها. يسألها لو أرادت أي مساعدة، فإن الشخص الماثل الهارب في الداخل في استطاعته فعل شيء.

في صمت النفق، غدا المدقّق متكاثفاً وحواسه. يميّز درجات الأصوات ويحدد مصادر الروائح. ويتحسس الأشياء في الظلام بنباهة أعمى. أصبح في استطاعته أن يفتح أي كتاب على الصفحة التي يحددها مباشرة دون الحاجة إلى البحث والعبث. مثل ساحر يلتقط الورقة الصحيحة من بين مئات الأوراق. صارت مهاراته الخاصة فريدة ومتنوّعة. حتى ذلك الحين كان مكانه يعج بالفوضى والعشوائية. لكنه بدأ يعرف خواص كل بقعة فيه. قرر تقسيم مساحته من النفق إلى أركان: جهة تخص القراءة تُريح ظهره وتمنحه إضاءة

جيدة. موقع آخر للكتابة محفز وملهم وتأتي إليه أصوات من الخارج مُدرَّة للأفكار. وأفرد مكاناً لنومه، وجعل ركن الطهو وإعداد الطعام بالقرب من المخرج. كان في حوزته طباخة تعمل على الكيروسين لها عين واحدة، وبضع أوانٍ تساعده على تسخين بعض الأطعمة وصنع القهوة والشاي. فكّر لو في استطاعته أن يجلب دجاجات وديكاً ومعزة تمنحه الحليب، وأن يقيم حياة ريفيه داكنة في أحشاء الأرض. كان يسعى لتوطيد نفسه في هذا الجزء الشبيه بالأسطوانة المفرغة التي لا آخر لها.

بعد أربعة أشهر أو أكثر بقليل بدأت الكتابة ترهق خياله. أصبح من المُجهد استحضار المشاهد المسجلة في أعماق ذاكرته: كل الأماكن التي قد يحتاج زيارتها والتماهي بها، والمواقف التي قد يفتعلها، والأشياء التي قد تحفز أو تستفز الجزء المسؤول عن حالة الكتابة. هامدة. عليه أن يحضّر الحالة من أحداث ماضية في تاريخه. إذا ما باغته هذا العطب، يخرج رأسه من النفق. يستنشق الخارج. ينظر إلى خواء الساحة. قد يتحرك الحلزون الصغير الخامل في دماغه ولا يعود إلى الكتابة حتى يأتيه إيحاء الفكرة. قد يستغرق هذا ساعات إذا لم تضطره تحركات مريبة في الجوار إلى إغلاق الغطاء. في أيامه الأولى، كان يستلهم بعض القصص التي يطوّعها بصورة أو بأخرى في حكايته من كوابيسه الكثيرة التي تهجم عليه كل ليلة. لكن في ما بعد أصبحت مناماته ليست أكثر من غياب عن الوعي وصحو جديد. راحت الأيام تجر بعضها، متشابهة ومتواشجة. لا يحطمها سوى حاجته إلى زيارة منزله من حين إلى آخر لأخذ المؤونة اللازمة. كان لا

يستغرق من الوقت أكثر من اللازم. يقرر ما يحتاج قبل أن يصل. ولا يعطي الأحاديث الجانبية فرصة. يطبّق هذه القوانين بصرامة شديدة. لزوم الحَيطة والحذر. لكنه في إحدى المرات وجد أخته فور دخوله من باب البيت. وحينذاك اضطر آسفاً أن يُذعنَ ويكسر قواعده.

١٦

مضى وقت منذ آخر عودة له إلى منزله. المدقّق يسعى إلى البقاء في النفق أطول مدة ممكنة ولا يخرج إلا للضرورة القصوى. يحاول إطالة المدة الفاصلة بين فينة وأخرى. إن كانت الزيارة الأولى بعد مرور عشرة أيام، فاللاحقة بعد أسبوعين، وهكذا. يمارس تمارين قاسية من شأنها تهذيب بدنه وروحه. يتعلّم أن يقنن حصته من كل شيء. يتناول الكمية التي تلبي حاجته فقط. يقتصد بغرض اعتياد العيش بأقل ما يمكن. هذا الزهد الذي يبحث عنه يتطلب جهداً كبيراً. قد يؤذي أعصابه ويتعب نفسيته. لقد خسر الكثير من وزنه منذ عقد قرار الهرب حتى اللحظة وباتت لحيته طويلة كثيفة يهذبها بمقص صغير لا يجيد استخدامه. تغيّرت هيئته. ولولا أن أمه وأخته تلتقيان معه دورياً، ما استطاعتا التعرف إليه بسهولة. كان الوقت قد قارب منتصف الليل حينما اعتزم العودة القسرية من أجل الزاد والعتاد. يسلك طريقه المعتادة عبر المساحات الضيقة خلف المنازل. يضع في جيبه سكيناً صغيرة يتفقدها طوال الطريق. وعندما يصل، يأخذ التفافة استطلاعية حول البيت من مسافة بعيدة يتفحص خلو المنطقة من المراقبين المتربصين. تذكر نصائح الفارس في

المكالمة السابقة قبل سؤاله: "ألا تزال في منفاك؟". يقولها بنبرة تُخفي ابتسامة. لكنه لم يحاول بأي حال أن يعرف أين ينزوي عن العالم. ولج بهدوء تام من باب جانبي يقوده إلى المطبخ. فوجئ بأخته تجلس قبالة المدخل كأنها تنتظره. كانت تحدس الأيام المرجحة لعودته. اعتكفت في المطبخ منذ ليلتين تنتظر دخوله في أيّ لحظة. انتصبت عندما رأته. خاف المدقّق في بادئ الأمر لكنها طمأنته وحاولت أن تهدئه. ثم أمسكت معصمه قبل أن يعجل مثل كل مرة بالذهاب إلى غرفته. نظر إليها باستغراب. توالت تساؤلات في رأسه. ولسبب ما، أخذ يتحسس مكان السكين بيده الأخرى. شد ذراعه محاولاً إفلاتها لكنها رددت بصوت متوسل خفيض: "انتظر! انتظر!" توقَفَ وعاد ينظر في عينيها بريبة. قالت إن شيئاً مهماً حدث هذا الأسبوع.

***

ذات صباح قُرِع الباب على غير العادة. ولمّا فَتحت والدته، رأت رجلاً يرتدي زياً شعبياً ويضع على صدره شارة مكتوباً فوقها كلمة عريضة أهملت قراءتها. حمل ظرفاً أبيض وسأل هل المدقّق يسكن هذا البيت. لم تُجب سؤاله. قالت: "من أنت؟" بدا في عجلة من أمره عندما رد بصوت مرتفع: "مندوب المحكمة". دُهشت وتملكها الخوف واختفت وراء الباب بضع ثوانٍ حتى لا تنهار أمامه. لكنها تمالكت نفسها وقالت: "لم يعد يسكن هنا". امتعضت ملامحه وقال بنفاد صبر: "أود تسليمه إعلان موعد جلسة قضائية مرفوعة ضده".

لكنها أقفلت ولم ترد. انتظر الرجل قليلاً ثم رحل. بعد ثلاثة أيام تقريباً جاء أربعة رجال شرطة. أشهروا ورقة تأذن لهم بتفتيش البيت. كانوا يتحدثون بهدوء ولباقة. لكن والدته أقعت أمامهم وبدأت تصيح دون أن تُفضي بما يختلجها من وجع. أخذتهم الحيرة وراحوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً. ثم تحدثوا إلى أخته وطلبوا منها السماح لهم بأداء واجبهم. دخلوا بنظام يبحثون في الأرجاء وينتقلون معاً من غرفة إلى أخرى. لم يطيلوا معاينة حُجر النوم. كانت نظراتهم لمّاحة. يتفقدون المكان بمهنية عالية. يتلمسون الحوائط وينقرون الأسقف ويضربون الأسطح. سلوكهم ينم عن خبرة رفيعة لكنهم أمضوا في مكتب المدقّق بعض الوقت يتحققون من الكتب والأوراق المحفوظة في الأدراج. لم يلفت انتباههم أي من الموجودات وبدا أنهم لم يعثروا على أدلة تفيدهم بشيء. بعدئذ فرضوا استجواباً طويلاً طرحوا فيه أسئلة كثيرة تخص يوم الاختفاء: الساعة والحالة والأسباب. أخذوا يتقصون الأماكن التي من المتوقع أن يلجأ إليها، وحاولوا معرفة أسماء الأصدقاء والأقرباء. كانت غالبية الردود سلبية. لم تكذب أمه وأخته في إجابة. كانتا لا تعرفان أيّاً من هذه المعلومات سوى أنه بات يعاني اكتئاباً شديداً قبل هذا الحدث. سجلوا أقوالهما. لكنهم صادروا كل محتويات المكتبة باستثناء الأوراق وبعض الأدوات. ثم استغرقوا في إحصاء الكتب. حتى أن والدته لم تحتمل مراقبتهم وهم يحملون معهم شيئاً من ابنها رغم تعهدهم إعادة ما لا يحتاجونه في ما بعد. وقبل أن يغادروا وقعّت أخته على ورقة تؤكد ضرورة إبلاغ الجهات المعنية عن أي معلومات تفيدهم حال معرفتها.
منذ ذلك اليوم لم تبرح أمه فراشها.

عندما سمع المدقّق ما جرى، أسند ذراعه على الحائط القريب، ثم عرج نحو أقرب كرسي. شعر أن الدم بدأ يتجمد في ساقيه. وراحت أخته تطلب منه أن يعترف لها بحقيقة جرمه. لم تصدق أن مداهمة رجال الأمن منزلهم لداعي تغيّبه عن العمل فقط. أخذت تقترب منه حتى باتت تشعر بأنفاسه. عيناها فزعتان ترجوه أن يقول شيئاً لكنه راح يهز رأسه بصمت وحدقتاه بدتا شاخصتين نحو فضاء كأنهما لا تبصرانها. استحالت عائلتهم الصغيرة إلى حال ممزقة مريعة. لم يتخيّل أحدهم أن يغزو الخوف يوماً منزلهم الآمن. تغيّر صوت أخته فجأة حين أوصته ألا يعود مرة أخرى. "لا بد أنهم يُخضعون المنزل للمراقبة... من يدري". فكّر المدقّق في الاحتمالات. أعمل ذهنه وتخيّل أحداثاً ممكنة. "من يدري". دبت الحياة في أعضائه مجدداً. هرول باتجاه غرفة والدته. وجدها مستلقية على جنب في سريرها وإضاءة خافتة بالقرب منها. جلس على الأرض قبالها. كان التعب يطل من محياها رغم السكينة التي تبدو عليها. أمسك بيدها وراح يشمها ويقبلها. فتحت عينيها ببطء وأخذت رأسه في راحة يديها وقرّبته من صدرها. غرق في عبق ثوبها. رائحة الذكريات التي ولّت. كان ينتحب بصمت هادر. داخله حطام عظيم ليس في مقدور أحدهم تصوره. كان يعرف جيّداً أن آلامه غير قابلة للفهم. وهذا ما يشق قلبه. قضى يملأ روحه منها نحو عشر دقائق. تركها بعدما طبع قبلة على خدها الأيمن في وداع شاحب. استعاد شتاته وحاول تذكر ما يمكن من الأغراض التي يحتاجها. وعندما دخل غرفته، عنّ له تفقُّد هاتفه الخاص. وجده في الصندوق كما كان. دسه في جيبه. لو عاود رجال الشرطة كرتهم، قد

يجدونه. قد يطّلعون على رسائل قديمة بينه وبين الفارس. "من يدري". كان يشعر أن الوقت ليس في مصلحته. عانق أخته التي جهزت له حقيبة ظهر تحوي بعض الأطعمة. اعتذر لها وهمس في أذنها: "أنا لا أرتكب الجرائم". أخذ يراقب الشارع من النوافذ قبل أن يغادر. خرج بحذر شديد. يسير على أطرافه. عرج نحو الزقاق من جهة أخرى. الطريق هذه المرة أكثر خطورة. أخرج السكين من جيبه وجعلها تأخذ وضع استعداد في يده. هذه المرة كان الطقس خانقاً ميتاً. لقد جاء الصيف. الأشجار لا تهتز ولا أصوات أعلى من أزيز ماكينات التكييف. الأرض جافة ورائحة مكب نفايات في مكان قريب. كان يسمع صوت خطواته على الرمال الناعمة. لا حذر يفي إذا ما كان المدقّق تحت الرصد... ربما طلعته التي تغيّرت عما كان تتظافر والظروف تساعده في التخفي. رغم تيقظ حواسه طوال طريقه إلى النفق، فإن فكرة تجنب العودة إلى المنزل مرة أخرى شغلت ذهنه. لم يشعر أن هناك تحركات تحوم من حوله. كانت الأشياء تتخذ وضعها المعتاد حتى أدرك هدفه.

لم يصدق أن الأمور مضت بسلام. هبط بسرعة إلى جحره وأحكم إغلاق الغطاء. لكنه لم يشعر بالراحة الكافية. وضع حقيبته في ركن إعداد الطعام. وقرفص بالقرب من سلالم الخروج ينصت إلى أصوات الجوار. لم يبرح مكانه حتى بلغه الأمان. واستقرت دقات قلبه بعد لهاث التعب وشدة الانفعال. أخرج الهاتف البدائي واتصل من فوره بالفارس. انتظر حتى انقطعت المكالمة. لم يكن للآخر أن يجيبه في هذا الوقت المتأخر. كان مُجهداً ويشعر بأن النفق يتحرك ببطء إلى جهة اليمين. أغلق عينيه واستلقى كيفما اتفق.

ثم تراءى له مكان مظلم لا يرى فيه سوى خمس فجوات أرضية واسعة فارغة وتأخذ عمقاً مخروطياً. بدا كأنه في لعبة تلزمه اختيار الفجوة الصحيحة. وكلما ألقى بنفسه في واحدة، وجد نفسه يصل إلى مكان يشبه السابق ويحوي خمساً أخرى. راح يكرر فعلته حتى جاء الصباح. شعر بألم يطوّق رأسه. كانت جموع من العصافير تزقزق بحماسة بالقرب. أرخى جسده وأغمض يستعيد أخبار البارحة. أسبغ امتنانه للنوم الذي اختصر له الليلة. ثم فتح عينيه واستدار إلى جهة كتبه... أصحابه وأهله. فكر لو تركهم حيث كانوا في مكتبته، لأضحى مصير الكثير منهم في محرقة المخروط البشع. راح يتذكر عناوين يحبها من تلك التي صودرت. عكّر هذا مزاجه. ولما عدّل جلسته، شعر بشيء يحز فخذه. تذكّر هاتفه الخاص الذي ما زال في جيبه. أخرجه وراح يحدق في شاشته المعتمة. لم يكن ما جرى في منزلهم وليد اللحظة. لربما يُخفي هذا الهاتف بضع رسائل تحذيرية أو موافاة أحد الأصدقاء بما يحاك في الغياب. "من يدري". يكمن خطر هذه الهواتف في ارتباطها بالأقمار الصناعية. قد يستدلون إلى مكانه لو... قال لنفسه: "دقائق قليلة لن تجيء بالنكبة". عندما شغّله، انكبت جموع الرسائل. كانت إحداها من زميله المجاور في إدارة التدقيق. أخرى من أخته التي لربما نسيت أنه لا يحمل هذا الهاتف معه. لكن زمنه توقف لحظة حين وقعت عيناه على رسالة من زينة: "كيف حالك؟" أمعن في الشاشة دقائق طوال. لم يصدق. أدرك أنه قد مضى على إرسالها أكثر من عشرين يوماً. لكنه لا يهتم. لم يكن في استطاعته السيطرة

على عاطفته، سعادته المعجونة بالأسى. أخذ يعيد قراءتها ويكرر. يحملق فيها. يبتسم مثل طفل. كلمتان أزهرتا قلبه. "كيف حالك؟" تتكيّف أحواله بأحوالك. قال في نفسه: "ما زالت تهتم لأمري". سؤالها يحمل كل التأويلات المبهجة. "لو يعود الزمن يا زينة!" كان يغص في آه منذ قالت أخته ما قالت. كيف يجيبها الآن؟ فات الأوان. ما عاد في وسع الحب أن يخلصه من ورطته. إن الأشياء في طريقها إلى التحول. غرس في رأسه فكرة واحدة: ما زلتُ أراوح خيالات زينة. هذا قد ينفع محباً في ظرف المدقّق. أغلق الهاتف.

بعد دقائق رنَّ البدائي. كان اتصالاً مُنتظراً من الفارس. بات دافع المكالمة أقل أهمية من البارحة. قال له إن أحداثاً جديدة تعصف من حوله. ثم روى ما جرى بدءاً من مندوب المحكمة حتى مصادرة الكتب. كان الآخر يستمع دون أدنى مقاطعة. ثم راح يهوّن هول الأفكار التي تدور في خلد المدقّق: "هذه القضية بسبب غيابك غير المبرر. إنه شأن إداري بحت. أما التفتيش، فربما يكون بقصد الكشف عن أصحاب المكتبات المنزلية. لقد وشى أحدهم بك عند الأجهزة الأمنية. الحكومة بدأت تتخذ هذا المنحى. لقد اكتشفوا إحدى المكتبات الأرضية". كان صوته يشف عن حزن. "كيف؟" "لا أعرف". ثم كشف عن انفعاله الحقيقي: "الكلاب كُثر". لم يعتد صاحبنا سماعه يتكلم بهذه الطريقة. "يقال أن أحد الجيران المحيطين في ذلك البيت يعمل مخبراً مدنياً لدى السلطات. الشاب الذي يدير تلك المكتبة يخضع لتحقيق وتعذيب بلا شك". ثم همس بكلمة غير مسموعة قبل أن يقول: "ربما كانوا يبحثون عن مكتبة أرضية

في منزلك أيضاً". "من يدري". رغم كل هذا، فإن المدقّق لم يقتنع بهذه المسوغات. التزم الصمت عوضاً عن خوض جدال خصوصاً أن الفارس بادر بقوله: "سأحاول معرفة حقيقة هذه الإجراءات". في الواقع هذا لا يعني شيئاً لديه. الأمور سيان. ما يهمه هو أن يحافظ على البقاء في مكانه الدافئ هذا. خذ الخبر الثاني: "لقد تعرض الجزء الشرقي من إدارة التدقيق للانهيار". دهشة الآخر أوردت تساؤلاً مباشراً: "إثر قصف مدفعي؟" "لا". ضحك الروائي وسعل مراراً قبل أن يقول: "لا شأن لنا بهذا. إن مبناهم متآكل وآيل للسقوط منذ أزل. هُم منشغلون هذه الأيام حول أخبار الأضرار البشرية والمادية". تساءل المدقّق في نفسه. أين يقع هذا الجزء من المبنى؟ في لحظة بعدما أغلق الهاتف تذكر زملاء قسم التدقيق. طافت موجة ذكريات أو ربما حنين لأيام خلت والوظيفة التي كان يراها تشبه حياته. تهاوت بمرور الزمن. استحالت مصدر خوف. خفق لحظة أخرى. انتابه تعاطف حيال المسؤول. قد يرى أن حظر الكتب بمنزلة حياته أيضاً. لعل داخله إيماناً موغلاً بأهمية دوره. "من يدري". في وقت ما، كان يعد نفسه لاعباً مهماً ضمن فريق إدارة التدقيق. لا يذكر في أيّ لحظة على وجه الدقة تخلى عن إحساس الانتماء ذاك. باغته الجوع فجأة. التفت إلى الحقيبة التي أخذها من أخته. أحس أن ريقه جاف. حرارة المكان بدت خانقة لا تطاق. قال في نفسه: "أنا أتلوى هنا. ومن يدري؟"

***

VI

”على الفراش بالقرب من أكداس المجلات والقصص، كنتُ أرقب النخلة التي تطل على نافذتي. تساءلتُ إلى أي مدى سأتصوّر الأشياء وأتخيّلها. في الحين الذي أرى شيطان المكتبات مثل كائن ضوئي يطوّق جذعه والنخلة بقماش، يتسلق طولها الفارع، ومع كل قفزة ينظر باتجاه النافذة ويبتسم ويلوّح بمرح. هذا أقصى من الطاقة المتاحة. استفحلت بي الأوهام ودنا مني الجنون. يجب أن تتوقف كل هذه الأشياء وعليّ أن أتماسك أكثر وأتأهب لمواجهة محتملة. على الفراش، أُعيد شريط المواقف والأحداث. أحاول أن أستبدلها. لو تحدثتُ إلى أولئك الذين لبسوا ملامح الرجل أو كانوا يمثلونه. يبثون الرعب والشكوك. لو نظرت في عيونهم وسألتهم بغضب عن سبب تصرفاتهم المزعجة. لو قبضت على ياقة أحدهم وطلبت منه العراك حالاً عوضاً عن أن يجري خلفي في الطرقات الضيّقة. كل الوجوه تلك التي غدت وجهاً واحداً. لو كان معلم اللغة العربية أو محاسب السوق المركزي... أو موظف الوجبات السريعة. لو وضعت نصل سكين في عنق سائق الفتى. أنقل الخوف إلى قلوبهم وأستعيذ عنها بالشجاعة والخبرة. أقتل الأسطورة المستوطنة في نفسي لأناس يحملون صفات رجل واحد.

قبل أن يحين موعد زيارة سيدة المكتبة اتصلت بعليوي والفتى. قلتُ لهما بنبرة حزم وتدبير: ”من الواجب علينا أن نستقل التاكسي لغرض التمويه“. بلا شك الرجل يعرف جيداً سيارة سائق المهذب. لا اعتراض عدا عليوي الذي قال إنه لا يملك في جيبه فلساً واحداً. لم أقل له إن المهذب سيتكفل الأمر. كان معي القليل مما تبقى من مصروف البارحة. قلت له: ”سيكون لقاؤنا عند البقالة. ومن هناك ننطلق إلى الفتى ومنه إلى هدفنا“. جرت الأمور على نحو جيّد. لم

ألحظ في ذلك الوقت أي حركة غريبة ولا وجوهاً مألوفة خصوصاً أنني سلكت طريقاً ملتوية لبلوغ القصد. قررنا ترك الكرسي الأمامي للمهذب لأنه يملك عنوانها وسبل التواصل معها. كانت تسكن في منطقة بعيدة نسبياً من العاصمة لم أدخلها من قبل. بدت شوارعها منذ وهلة أولى ضيقة وطويلة أيضاً. لكننا نصل إلى طرق مغلقة والتفافات جبرية. الشمس دافئة تخترق زجاج النوافذ. تسطع في العيون وتتعب النظر. كنتُ أضطر أن أخفض رأسي بين حين وآخر لأرتاح من مجاهدة الرؤى الخارجية. الأرض صفراء مشعة وإذا ما تركت رأسي ثابتاً في مكان واحد، أشعر بقسوة حرارة زنانة مسلطة نحو مكان واحد. من الصعب أن نخلق حواراً متبادلاً في حالة كهذه. كانت أحاديثنا قليلة جداً إضافة إلى توجسنا المستمر من مرور سيارة في مكان من حولنا يقودها شيطان المكتبات، أو ظهور مفاجئ قميء على قارعة الطريق. بعد دقائق شعرتُ أن السائق يأخذ مسارات دائرية حول المنطقة. يلتف ويعود مجدداً ويعاود الكرّة. بدَأت تتكرر بعض الشوارع. لقد مررنا من هنا كما أظن. أم تلك أوهام فحسب إثر دوار مستبد في رأسي. "هل تتصل بصاحبتنا تتأكد من العنوان؟" لكن المهذب يؤكد أننا نسير في الطريق الصحيح. دخلنا حينذاك شوارع أكثر ضيقاً. صارت السيارة تسير بعجل إلى آخر الشارع ثم تنعطف إلى اليمين. ومرة أخرى تسير باندفاع إلى الآخر وتنعطف إلى اليمين. وأخذت تعاود الفعل لكن الطريق تصبح أقصر، ثم أقصر فأقصر كأننا نخوض دوامة سحيقة تسحبنا إلى الأسفل حتى نبلغ قاع المنطقة. "وصلنا"، قال الفتى. عم شعور من الارتياح رغم غثيان المعدة الذي أخذ يهدأ فور خروجي من السيارة.

قلت لعليوي إننا بحاجة إلى سيجارة بعد هذا المشوار الغريب. كنت أشعر بألم في أقصى رأسي. طلب الفتى من سائق التاكسي أن ينتظرنا حتى نخرج وأعطاه نصف قيمته المستحقة ليطمئن إلى صدقنا.

وقفت أنظر إلى الجوار: منطقة مخططة بطريقة عجيبة وغبية في آن. كيف لشخص يقطن في مكان يكابد الوصول إليه. الشارع الذي نقف فيه مليء بمبانٍ صغيرة مقسمة على هيئة شقق. كل طابق تسكنه عائلة وحدها. بدأ يخف ألم رأسي تدريجياً مع انقضاء السيجارة. كانت سيدة المكتبة تسكن في مبنى بجانب براح ترابي صغير. شقتها في الطابق الأرضي. اتصل بها المهذب وعندئذ فَتحَت لنا الباب وأشارت إلينا بالدخول. كانت على علم بأننا ثلاثة أفراد. عند ولوجنا المكان دُهشتُ إثر جمال صالونها. كان مكتبة فحسب. خشب داكن وأرضية بألوان شبيهة وأثاث منزلي يراوح بدرجات البني. أشعرُ أنني أنتمي إلى هذا المكان. لو كان بالإمكان أن أغيّر بيتي، لجعلته مثل هذه الشقة ولا شيء آخر. السيدة تكبرنا بما لا يقل عن خمسة عشر عاماً. تبدو في الثلاثينات لكنها مرحة ولطيفة. فهمتُ على نحو ما أنها تعيش هنا مع طفلها والخادمة فقط. بعد أن جلسنا ظلّت عيناي تراقب محتويات الأرفف التي تحوّطنا. مرتبة حسب تصنيف خاص لكل نوع. في جانب منها جزء مخصص لكتب الأطفال. انتبَهَت إليّ السيدة. قالت إنه بإمكاني أن ألقي نظرة قريبة. ابتسمتُ بخجل وقلت سأكتفي بالنظر إليها من موقعي. ثم قالت على نحو غير مبرر إن الجهة اليسرى من المكتبة تخص زوجها رحمه الله، واليمنى التي تحوي جزء الأطفال يخصها. ثم بيّنت أن زوجها الكاتب المعروف الذي توفّي في حادث اصطدام مجهول قبل خمس سنوات. ناوشت ذاكرتي قصة مماثلة لكنني أفتقد تفاصيلها. تأسّفنا جميعاً لما حدث لزوجها. تنهدت بدورها ونَهَضت لتجيء بكتاب حكاية الحكايات. كان مغطى بقطعة جلدية لونها أخضر كي تحفظ غلافه الأصلي المهترئ. وَضَعته على طاولة تتوسط المكان. ثم سألت: "ألهذا الكتاب يلاحقكم شيطان المكتبات؟" رغم أن عمر سيدة المكتبة قد يكون أكثر من ضعف أعمارنا لكن فيها من الجاذبية

التي تجعلني أنصت إلى حديثها وأستأنس بإيماءات تعابيرها. قال المهذب: "ليس لهذا الكتاب فقط. هو يطاردنا منذ زمن لأننا جامعو كتب"، ونظر إليّ في تلك اللحظة بقصد وجود تفاهم متبادل حول هذه الفكرة. كانت تهز رأسها بإعجاب. أظن أن هناك فكرة مضمرة داخلها تجعلها تُعاملنا أحياناً بصفتنا مجرد مراهقين. قالت إنها في بادئ الأمر كانت ستطرح علينا فكرة شراء النسخة منّا أو من المهذب على وجه الدقة. لاحقها شيطان المكتبات عندما كانت تسكن شقتها القديمة. لسبب مجهول أيضاً. لربما كان يلاحق زوجها من قبل لأنها لم تكن لتراه قبل أن تصير أرملة. باتت مرتابة من أمره حتى قدمت بلاغاً إلى الشرطة حول تعقب الرجل لها، إضافة إلى أنه قد يكون السبب في الحادث الذي أودى بحياة الكاتب المعروف. بعد مدة تم استدعاؤه بالفعل وأُحيل إلى التحقيق لكن ليس من دليل ضده ولم يعترف بأنه يلاحقها بل كما فعل أخيراً زعم أن السيدة هي التي تلاحقه. وبعد أن انقضى الأمر قررت الانتقال إلى سكن آخر. منذ ذلك الحين لم تره مجدداً. هي ترغب الآن في شراء النسخة لأنها تريد له أن يظهر من جديد ويلاحقها. هي متيقنة أنه وراء وفاة زوجها.

في لحظة ما، أثناء حديثها، شعرتُ أنني رأيتها من قبل. في التلفاز أو منصة لقاء عام. لا أعرف. لكن المهذب اعتذر عن قبول طلبها بلباقة وخجل وقال إننا أتينا ثلاثتنا بقصد الحماية من هجوم محتمل لسرقة هذا الكتاب بالذات. لقد سعينا إليه مطولاً ولم نكد نحصل عليه. تفهمّت الأمر لكنها طلبت منّا إذا ما شعرنا بملاحقة جديدة أن نتصل بها ونخبرها عن مكانه. ترغب في المواجهة وليس لديها ما تخسره. ظلّت السيدة تتحدث إلى المهذب حتى خرجنا من المنزل. راح عليوي ينظر في الجوار لكنه لم يقل شيئاً. مشى إلى المنعطف القريب وعاد مجدداً. ثم قال بعد أن انضم الفتى إلينا: "لقد رحل سائق التاكسي. لو تتصل

بسائقك؟" رد المهذب: "لن يعرف كيف يصل إلينا. أجدها فكرة غير مجدية. ينبغي أن نسير على أقدامنا إلى أن نجد سبيلاً آخر للعودة". كان في الإمكان اختصار شوارع المنطقة بين المنازل أو من خلال الساحات فوق الأرصفة وفي الأزقة، فذلك يسهل عملية الوصول إلى الطريق العام وقد يكون أسرع من استخدام سيارة. لاحظتُ أثناء المشي أن المنطقة عامرة بدور العبادة والباحات الترابية، وخالية من المارة ومرتادي المرافق. كان المهذب يقبض على الكتاب بكلتا يديه ورأيته يحاول أن يخبئه داخل ملابسه فيضعه على بطنه وراء قميصه لكنه لم ينجح في ذلك. بينما يحاول عليوي أن يقودنا وفق خريطته الحسية نحو مسار الخروج من هذه المتاهة، يصرخ منادياً عند مرورنا بالقرب من إحدى المنافذ أو المنعطفات. لعل أحدهم يظهر لنا ويرشدنا إلى الفرج. كنّا نسير على حافة المنطقة تقريباً. هناك في البُعد من الجهة اليسرى يتبدى شبك سياج يحد الطريق السريع. يفصل بيننا وبينه فضاء أشبه بصحراء مخصصة لأبراج كهرباء الجهد العالي. هل علينا أن نطرق أبواب المنازل حتى نجد أي شخص يعيش في هذه المنطقة المقفرة. تقريباً مضى على خروجنا من منزل سيدة المكتبة أكثر من ساعة. في حين بدأت الشمس تنخفض تدريجياً في أفق النظر، رأيتُ رجلاً يسير باتجاهنا من الطرف الآخر للطريق. أخيراً تأكدنا من وجود حياة على هذه الأرض. لوّح له عليوي. بعد لحظة تراءى لنا أن الرجل بدأ يركض إلينا. بضع ثوانٍ أخرى عرفنا جميعاً أن هذا ليس إلا شيطان المكتبات!

ركضت تجاه الساحة المؤدية إلى الطريق السريع وتبعني الأصدقاء بلا تفكير. علينا أن نكون معاً. نظرت إلى الوراء. لم يكن ليختفي هذه المرة. يجري بتوازن رياضي مثل عداء أولمبي. لكنني كنتُ أراه شبحاً بإمكانه أن يطير ويقبض علينا بكف واحدة. إحساس الرعب دفعني لأجري بأقصى طاقة لديّ. المهذب وعليوي كانا مثل ظلّي. خطواتنا متلاحقة

متتابعة تخلّف غبارها الكثيف. عيناي مسلطتان نحو بلوغ الشارع. لو حاول إيذاءنا، سيكون أمام مرمى زخات السيارات العابرة. أرى أن السياج يغوص إلى قعر مجهول كلّما اقتربت. لم أفهم كيف تميل الأرض إلى هذه الدرجة، لولا أننا لم ندرك الأمر في وقت باكر يسمح بأن نتمسك بالنجاة حتى اللحظة. استوعبت في الحين أن هناك منحدراً خرسانياً حاداً يفسّر اختفاء الهدف. نقف على مرتفع من الطريق السريع. بلا فسحة تفكير لاتخاذ قرار. وبحذر، انزلقت على الإسمنت الناعم الصلب في محاولة للتوازن بغية إدراك الأسفل بأمان أو بأقل ضرر. ومع الخوف من وصول مباغت للشيطان وجدت نفسي أتدحرج في أجزاء من ثانية. جالت الدنيا وطوّقت رائحة التراب أنفي. فتحت عينيّ وإذا بعليوي والمهذب كذلك يحاولون النهوض بأقصى سرعة. أخذت أنظر إلى حافة المنحدر في الأعلى. لم يكن قد وصل بعد. جرينا محاذاة السياج نصرخ ونرفع أيدينا. لا أحد ينتبه. "هناك منفذ"، صاح الفتى مشيراً إلى شق في الشبك يمكّننا من العبور نحو الشارع. تباعاً اخترقنا الضفة الأخرى. ورحنا نلوّح للمارة المسرعين لعلّ أحدهم يتوقف ويخلصنا من هذا. بعد دقيقة تقريباً، لحسن حظنا، توقفت إحدى السيارات. رمينا بأنفسنا داخلها. قلنا للسائق أن يتحرك ويعجل بالهرب. كنتُ أتحقق من عدم اقتراب الشيطان. نظرتُ إلى الوراء. أحسبني رأيته. لم أكن متأكداً لكنّني لمحت وجهاً يطل من أعلى. لم يحاول النزول وراءنا. "إلى أين تذهبون؟" كان رجلاً كبيراً يقود حافلة صغيرة. "أرجوك تحرّك". "لو أنكم تقصدون مكاناً في اتجاه مكاني". "فقط تحرّك وسنخبرك". أحس الرجل أننا نهرب من شيء. "هل ارتكبتم مصيبة؟" "هناك رجل يلاحقنا يريد خطفنا"، قال عليوي. فابتسم الرجل. "لا بأس عليكم. أين هو؟" وأخذ يتفحص من حوله. وَضَع المهذب راحته على كتف السائق: "أرجوك! تحرّك من هذه المنطقة". عادت السيارة إلى طريقها. شعرنا

بارتياح. نظرتُ إلى الكتاب. هل مسه ضرر؟ لا شيء. ثم أخذ يعاينه من جديد. يتطلب تنظيفه من الغبار فقط.

أطلعنا السائق على وجهتنا. قال: "أوصلكم إلى أقرب مكان". اتفقنا أن نذهب إلى بيتي ثم يأتي سائق المهذب يتولى إيصال عليوي. في لحظة، استرجعت الموقف. هذا الرجل شخصية سُريالية تمردت على مخيّلة شخص معتوه وجاءت لتلقي علينا جنونها. أي فعل أخرق قمت به أيقظ لي هذا المارد؟ كنّا صامتين غالب الوقت. ربما كانا عليوي والمهذب يستعيدان المشهد كما كنت أفعل. هل هبط من المنزلق خلفنا؟ لا أظن. لا أعرف. عقد السائق حاجبيه: "إذا كنتم تعرفون هذا القذر، أبلغوا الشرطة عنه". ثم توقف عند طرف منطقتنا في جزء شبيه بذاك الذي انتشلنا منه. واعتذر بسبب الظروف والوقت. لن يستطيع أن يلج إلى الداخل. ثم نظر إلينا بتفحص وقال: "أنتم رجال لا يخيفكم شخص واحد. في إمكانكم التغلب عليه". تطوّعت من ناحيتي ودفعت للسائق ما بمحفظتي. ترجلنا ولم نكن على ثقة بما قد يحدث في المرحلة المقبلة حتى نبلغ البيت. هذا فصل عليه أن ينتهي. لقد تعبنا وسئمنا هذا الركض المرهق. أصبح لزاماً علينا أن نسير أكثر من عشر دقائق حتى نصل ونطوي حدث اليوم. قفزنا فوق حاجز حديدي قصير يحد الشارع العام. كان التعب قد أجهز علينا. ولمّا كنّا نحتفظ بباقي طاقتنا لتلك المسافة القصيرة التي ستقودنا إلى النهاية، بدأ عليوي يتذمر من كل الأشياء التي مررنا بها. وعدَّ نفسه طارئاً عليها. لا ناقة له ولا جَمَل. ولا يدفعه دافع سوى المغامرة التي أوهمته بها. لم يكن يتصوّر أن الأمور ستصل إلى مراقبة ومطاردة حقيقية. كنتُ أعرف أنه جبان وضعيف لكنني لم أتخيّله يبدي ضجره عند أول موقف أو عقبة. كان يتفحص كدمة في مرفقه إثر سقوطنا من المنحدر. وعَرَض اقتراحاً يتمثل في أن نجمع كل ما نملك من مجلات وقصص

في أكياس وصناديق ونضعها أمام منازلنا مثل قرابين إلى الشيطان حتى يكف عن إيذائنا، في حين لم أكن مع المهذب نتجاوب مع كل ما يهذي به. بدت الحركة طبيعية في الشارع عدا سيارة بيضاء صغيرة على مسافة منّا تراوح بشكل غريب. تذرع مواقف مدرسة بطريقة تبعث الشك. اقترحت أن نتجنب الاقتراب منها أو نغيّر طريقنا. كانت غريزة الحذر تتغلب على كل الحاجات الأساسية. وعندما بدأنا الاستدارة إلى الجهة المخالفة، خرجت السيارة والتفت باتجاهنا. تلقائياً وجدنا أنفسنا نجري بين الأحياء والبيوت. كان وجه المهذب فزعاً لا يعرف إلى أين سنمضي وكيف سينتهي به المطاف. صرخت بعليوي الذي كان يتقدمنا: "أين نذهب؟" أشار إليّ بيده أن نلحقه فحسب. وراء بيت مهجور في زاوية المنطقة كان هناك غطاء أرضي نفتحه فيقودنا إلى نفق مهمل. كنّا في السابق نختبئ فيه إذا هربنا من المدرسة وندخن السجائر ونتبادل الأفلام ونخفي أسلحة بيضاء مثل عصي مدببة وسكاكين صغيرة عند الحاجة. هنا توقفنا. لم يفهم الفتى كيف عليه أن يدخل إلى منفذ يحسبه خاصاً بالصرف الصحي. الليل اقترب والنزول إلى مكان مظلم كهذا قاسٍ جداً. أخبرناه بأننا نضمن له إضاءة طفيفة تأتي من منافذ صغيرة تطل على الخارج. وسنقضي وقتاً قصيراً حتى نؤمن أنفسنا قبل أن نُكمل الطريق. هبط عليوي حتى يطمئن. وقلت: "إننا في حالة اضطرار. الخطر يدهمنا وفي أي لحظة قد يحل علينا ويمحونا. عليك أن تفعل مثلنا". استجاب على مضض، وبتقزز، كان يمسك قضيب السلّم بعدما أعطى عليوي حكاية الحكايات حتى لا تسقط منه على قذارة في الأسفل. وتبعتهم بعدما أصخت السمع وأمعنت في الجوار وأغلقت الغطاء بإحكام."

١٧

بلغ الصيف ذروته. أصبحت حرارة النفق متقدة وثقيلة وخانقة، الأمر الذي جعل المدقّق يتأكد أن عمق المكان الموغل في الظلمة لا يؤدي إلى فرجة. لا بد أنه يفضي إلى سدة صلبة. لا منفذ يسرب تيار هواء. حاول ترك الغطاء الخارجي مواربا. قد يجيء بنسيم ينعش المكان. لا شيء. هذا الحر المميت يجعل صاحبنا يعتمد في غذائه على التمر وبضع فواكه مجففة. ليس في وسعه إبقاء أنواع مختلفة من الطعام. أصبح يستلقي دائماً عند الشبابيك الصغيرة. يعري جزأه العلوي طوال الوقت. وفي الليل، يُخرج رأسه من النفق كي يلفحهُ هواء دافئ لا أكثر. المدقّق يعتاد عذابات المكان. يقبلها وقد يحبها. يألف حالته هذه كأنه تطلّع إليها يوماً في مخيلته وسعى إلى الظفر بها. تذكر أياماً صعبة كانت تهدئها أقراص المعدة. مضت شهور دون أن يحتاج لحظة إلى تناولها ما دامت هذه الكتب إلى جانبه والزمن يتمدد بلا نهاية. منذ مكالمة الروائي الفارس الأخيرة قَطَعَ كل سُبل التواصل مع الحياة في الخارج. لكن في الأيام القليلة الماضية بدت حركة السيارات شحيحة على الطريق العام. سكون الشارع

يبعث على الحيرة والتساؤل. حتماً يحدث شيء لا يود معرفته. لكن الفضول يعتريه. يود لو تَصِله أنباء الأشياء التي يهتم بأمرها. يفكر في المؤلفين إذا ما كانوا حتى اللحظة يكتبون. "مساكين! من يواصل حماسة التفكير والابتداع؟ الكتابة أسلوب مشاركة. لكن طرفاً ثالثاً بين المؤلف والقارئ يسعى إلى طمس العلاقة المباشرة بينهما". ينظر إلى روايته على الجدار ويقضم طرف تمرة يتركها في فمه دون أن يمضغها. يقول لنفسه: "لو قدمتها إلى إدارة التدقيق، كيف سيستقبلها المسؤول؟" أي التدابير الجديدة التي قيدوها ضمن قوانينهم الطارئة. أمعن النظر إلى الجدار. قال: "من سينشرها أصلاً؟ ربما بعد زمن ينشط فن جديد يدعى روايات الحوائط. تصبح وسيلة نشر ناجعة تسفر عن جهد مشترك. يحج القراء من أجل كتاب. من يدري. في الزمن الآني". قد يضطر المدقّق إلى فتح هاتفه لاحقاً حتى يطلب من الروائي أن يجد له سبيلاً يسلمه حكايته الأدبية الأولى. هذا الرجل في استطاعته أن يفعلها. يملك شجاعة وقدرة الحفاظ على رباطة جأشه. سكت قليلاً وفكّر في التعبير الذي طرأ إليه: رباطة جأش، ثم تجاهل الفكرة تماماً.

عمل المدقّق رسماً رديئاً لمبنى إدارة المدونات المنشورة على ورقة من الكراسة التي خصصها للكتابة. حاول تخيّل الجزء المنتمي إلى جهة الشرق بعدما سمع خبر الفارس. عندما يُقبل في الصباح على بوابة الدخول، بعد تجاوز الحاجز المعدني، يمضي بامتداد الطريق المحاذي للصحراء. تكون الشمس مواجِهَة. تأتي من خلف المبنى. قد تكون الناحية المتوارية المعنية بالانهيار. هناك بالضبط

موقع مكتب المسؤول. ينظر المدقّق إلى الرسم بين حين وآخر. تنتابه مشاعر غريبة. يحدس في متغيرات أو طوارئ. يحاول أن يتغافل. تباغته التساؤلات. ماذا يحدث في الخارج؟ في نهار يوشك أن ينتهي. تناهى إليه زحف سيارة بالقرب. وقف ينصت إلى الصوت. منذ نزح إلى هنا لم يوجس قدوم أحدهم بقصد أو عبث. صعد السلالم بغية كشف المصدر. بدت السيارة تحوم في الساحة الخارجية مدة راوحت دقيقتين. ثم استقرت في الجوار. اجتاح قلبه خوف رهيب. بدأ الخطر يناهزه. حاول أن يتماسك على أمل انصرافها بعد حين لكن أحدهم أغلق باب السيارة واقترب من الفتحة. عاد إلى الأسفل بحذر. لاحظ رعشة أصابعه على مقبض السلّم. نظر إلى مكانه: أكداس من الكتب، كيس النوم، أدوات طبخ، قرطاسية... ازدرد لعابه. جمد لحظة في مواجهة المشهد. دهمته مجموعة من الصور: ضوء المطبعة، والدته مستلقية على السرير، الروائية المُغامِرة أسفل لوحة التحقيق، رسالة زينة الأخيرة... صوت نقر خفيف على الغطاء. رمق الأشياء من حوله. أعمل ذهنه. أحاط المكان بعينيه. عن يمينه أنابيب الكهرباء. يساره الشبابيك الصغيرة. من الخلف سلالم الخروج. غربة جديدة تنتظره في جوف النفق. الظلمة من أمامه أو داخله. صوت همس رجلين في الأعلى. لم يدبر لهذا الموقف. الأخطار لا تنذر قبل مجيئها. خارت أحلام المكوث سنوات في قعر الأرض. المدقّق في حالة فرار متواصلة. ودَّ أن يستعين بنهاية رواية أحبها. ارتدى الحقيبة التي يحتفظ فيها بمخزون الطعام. توقف لحظة. نظر إلى الجدار حيث روايته. أخذ القلم. عالج كلمة وأضاف جملة في

نهايتها. وراح يقرأ الفقرة الأخيرة بانتباه. ثم كتب أسفلها: "تمت". تناول بيد قنديله الصغير وفي الأخرى كتاب المكتبات. كان الرجلان يحاولان كشف النفق في حين راح المدقّق يغوص في الداخل. يتوغل نحو العتمة.

***

VII

"بقينا في الأسفل زهاء نصف الساعة. حل الليل ولم يعد في المستطاع رؤية بعضنا من قرب. المكان يحتفظ بحرارة شمس النهار. المنافذ الصغيرة لا تبدد الخنقة. راح المهذب يؤنبنا بسبب قرار الاختباء في هذا النفق. "لو ركضنا مباشرة نحو المنزل". "في لحظة الحدث ليس لنا أن نحسن التفكير إضافة إلى بُعد المسافة نسبياً حين رأينا السيارة البيضاء تخرج من المواقف". أخذتُ سيجارة من عليوي وأشعلتها. تذكرت أحداثاً كثيرة اضطرتنا إلى الاختباء هنا. مضى وقت طويل جداً منذ آخر مرة لجأنا إليه. لكن الظرف الحالي مختلف تماماً. دنا الفتى نحوي. في وسعه معرفة مكاني من وهج جمر الدخان. بدا أنه يصالب ذراعيه فوق الكتاب. قال: "علينا أن نخرج الآن". ثم انتفض جسده فجأة. كان عليوي يقف بالقرب من السلالم منذ هبطنا. أراد أن يضع قدمه على أول سلّمة حتى يستطلع الخارج. تزامن هذا مع صوت مفاجئ لأحدهم يحاول فتح غطاء المخبأ. ارتبكنا. الحيرة والخوف حين يمتزجان ينجم عنهما رد فعل متسرع وفوضوي. رميت بعقب السيجارة وركضتُ إلى الداخل باندفاع دون أن أنظر إلى أي جهة

أخرى. كنتُ أسمع فقط لهاث عليوي والمهذب وصوت ارتطام أقدامنا على الأرضية الخرسانية. أترقب في أيّ لحظة أن يعوقني عائق وأسقط. كانت حالة من الجنون. ظلمة تامة ليس في مقدور أحدنا أن يرى ذراعه. وكلما مضينا، يصبح الهواء أكثر ثقلاً وسخونة. إذا ما كانت الأرضية منبسطة وسهلة حتى آخرها، لن يوقفنا سوى الاصطدام الحتمي بمنتهى النفق. لكن الأمر العجيب، الفكرة التي واتتني أثناء الهرب، أن هذا الممر طويل جداً. كلّما شعرت أننا جرينا مسافة غير معقولة وأن المخرج في الجهة الأخرى يقترب، أجدنا لا نصل بل نواصل حتى نضاعف ما قطعناه. في لحظة، أحسست أن الهواء يخف. سمعت عليوي يطلب منّا أن نتوقف. حثثته على الاستمرار. خيّل إلي: لو توقفنا لحظة، لأصبحنا بين ظلمتين قاتمتين، ولا شيء.

كنتُ أهرول وإحدى ذراعاي متأهبة أمامي في وضعية صد أي حادث محتمل في حين اصطدمتُ بجسم قوي مثل حاجز يرتفع حد خاصرتي. الدهشة إزاء المباغتة أو من صوت الشيء الذي انقذف أو تهاوى من الجهة الأخرى. توقف الاثنان. صوتهما في سواد المكان. لهاثهما الذي لم يسعفهما لقول كلمة واضحة. تساؤلهما عن المعني بالارتطام. فطن عليوي أنني الشخص الذي سقط. جاءت الضربة على وركي الأيمن. شعرتُ في أقل من ثانية أن صدري اندفع إلى الأمام ثم تقهقر إلى الخلف. أشعلَ عليوي قداحته. بان المكان بعض الشيء. قرّب الشعلة نحوي. كانت الكدمة أقل ألماً من هول الصدمة. رأسي آخذ بالدوار لكن شيئاً ما لاح أمامي. دفعت يد عليوي إلى الجهة الأخرى. لم أصدق أن الذي أوقفني ليس إلا رزمة مكعبة من الكتب المرصوفة بعناية. تطلع الآخر واقترب المهذب يشاركنا. تساءلنا باستغراب: ماذا تفعل هذه الكتب هنا؟ نهضت متحاملاً على ألمي. وضعت يدي في جيبي أتفقد قداحتي. أضأت المكان ورفعت

ذراعي حتى تنير الشعلة دائرة أكبر. تقدمت خطوة. تساءلت: "ما هذا؟" أطفأ عليوي حتى تبرد فوهة قداحته. اضطررت أن أتقدمهم واقتربت بحذر. تراءى لي كيس نوم. حرّكته بقدمي. ثم شعرت بحرقة في إصبعي فأطفأت الشعلة. الأجواء متوترة. اضطراب الحالة. الرهبة والدهشة في آن. تناوبنا فعل الإضاءة. أشعل عليوي وتوغل أكثر. اكتَشَفَ أواني وملاعق وإناء كبيراً. أدركنا أننا في نهاية النفق. أخذتُ أستطلع عناوين الكتب. لا شيء للأطفال. ثم انتبهت إلى كتابات على الجدار. وقفت أمامها. كان الخط صغيراً ومنضداً بعناية. السطر يسير باتزان دون أن يميل. أطفأت الشعلة حتى أتمكن من معاودة القراءة. ورحت أنفخ الفوهة حتى تنخفض حرارتها بسرعة. كان المهذب يسير إلى جانبي وما زال يطوق ذراعيه على حكاية الحكايات. قدحت مجدداً. رحت أنقل بصري على الكلمات بتسارع. كان شيئاً مريباً وأقرب إلى الجنون. لم أصدق ما أرى. هذه قصتنا. نحن الثلاثة. نهرب من رجل يلاحقنا. ارتعشت أطرافي. رحت أدقق في التفاصيل. لعل أمراً التبس عليّ. ما هذا الذي يحدث. شعرت بحرقة في عينيّ. انتقلتُ إلى الجزء الأخير. وجدت جملة تشي أن أحدهم يقرأ حكايته على الجدار! في حين وجد عليوي منفذاً للخروج يشبه الآخر الذي جئنا منه. تناءيت عن هذا السحر. بدا ذهني مشوشاً. ليس في الإمكان فهم الأمر بسهولة. لا بد أن عملاً خارقاً للطبيعة قادنا إلى هنا. التأمنا عند منفذ الخروج. صعد عليوي السلالم بسرعة. مشاعر من الارتياح عمّت قلوبنا لحظة. راح يحاول فتح الغطاء. أعمل جهده. وضع أصابعه على الأطراف. دفعه بكتفه ورأسه. لكنه لم يتزحزح أبداً. يبدو أننا علقنا. لن نخرج من هنا إلا من الجهة الأخرى. سأل المهذب: "هل معكما سلاح؟" تحسست السكين في جيبي. أخرجتها. وفعل الاثنان مثلي. قلت إن الحل الأوحد أن نعلن المواجهة. الممر قاتم

وطويل لكن علينا أن نقطعه. وجّهنا نصل السكاكين إلى الظلام. ورحنا نسير بانتباه نحو الجوف...»

***

عندما هبط أحد الرجلين إلى النفق، دُهش مما رآه. صاح على صاحبه قبل أن يطوّف مصباحه اليدوي على الكتب والأشياء من حوله. وبينما ينقل أنظاره في الأرجاء. تراءى له نور باهت في العمق ما لبث أن انطفأ. وجّه ضوأه إلى الداخل لكنه لم يرَ شيئاً. أمعن في الظلمة قليلاً. شك في أمره. حينئذ داخله خوف رهيب جعله يصعر إلى صوب آخر. منذ ذلك الوقت لم يعرف أحد شيئاً عن المدقّق. كان ذلك آخر ظهور محتمل. لقد اختفى تماماً. تلاشى في الغسق. يشهد عليه فقط نص رواية محفور في الجدار ومجموعة كُتب ينقصها كتاب المكتبات. ولشدة غموض غيابه، ظن الناس أنه صار شخصاً عادياً يحمل اسماً آخر وليس في استطاعته الكتابة، وربما القراءة.

مكتبة | 822
سُر مَن قرأ